دافيد ماشادو

مكتبة ٦٧١

مؤشّر السعادة

رواية

في سُلَّم
من 0 إلى 10

كم هي نسبة
رضاك عن حياتك؟

المركز الثقافي العربي

جائزة الاتحاد الأوروبي للآداب

مكتبة | 671
سُر مَن قرأ

دافيد ماشادو

مؤشّر السعادة

العنوان الأصلي للرواية:

David Machado
Índice Médio de Felicidade

© 2013, David Machado
e Publicações Dom Quixote
All rights reserved

مكتبة
t.me/t_pdf

٢٠٢١ ٢ ٢٣

الكتاب
مؤشّر السعادة

تأليف
دافيد ماشادو

ترجمة
سعيد بنعبد الواحد

الطبعة
الأولى، 2020

الترقيم الدولي:
ISBN: 978-9953-68-963-0

جميع الحقوق محفوظة
© المركز الثقافي العربي

الناشر
المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب
ص.ب: 4006 (سيدنا)
42 الشارع الملكي (الأحباس)
هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651
فاكس: 305726 522 212+
Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت ـ لبنان
ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء
شارع جاندارك ـ بناية المقدسي
هاتف: 750507 01 ـ 352826 01
فاكس: 343701 1 961+
Email: cca_casa_bey@yahoo.com

دافيد ماشادو

مكتبة | 671
سُر مَن قرأ

مؤشّر السعادة

رواية

ترجمها عن اللغة البرتغالية:
سعيد بنعبد الواحد

المركز الثقافي العربي

إلى ماريا ومارتين، المستقبل.

For the ones who had a notion
A notion deep inside
That it ain't no sin to be glad you're alive
I wanna find one face that ain't looking through me
I wanna find one place
I wanna spit in the face of these badlands.

Bruce Springsteen(*)

لمن كانوا يؤمنون إيماناً قوياً
لمن كانوا يعتقدون اعتقاداً راسخاً
بأنه ليس من الخطيئة أن يكون المرء سعيداً بالحياة
أريد أن أجد وجهاً لا يتجاهلني
أريد أن أجد مكاناً
أريد أن أبصق في وجه هذه الأماكن اللعينة.

بروس سبرينغستين

(*) جاءت بالإنجليزية في النص الأصلي.

.8

سويسرا.

الرقم الوارد في بداية الفصل ليس رقم الفصل وإنما كما ورد على غلاف الكتاب

(في سلم من ٠ إلى ١٠ كم هي نسبة رضاك عن حياتك ؟)

وجب التنبيه على النسخة المصورة حتى لا يدخل شك من وجود نقص عند القارئ

المبدف

أولاً، وقبل كلّ شيء، أنتَ لم تكن هناك، يا ألمودوفار.

لقد صارت الأمور صعبة بسرعة كبيرة. أو ربما كان ذلك هكذا دائماً، ربما كان العالم دائماً مكاناً معقّداً. لا أظنّ أنّ ذلك بدأ عندما سُجنتَ، رغم أنّ هذا الأمر يبدو لي أنه كان هو بداية كلّ شيء. وقد زاد غيابك من آلامنا، وكان لقرارك بعدم الرغبة في لقاء أيّ أحد عدة عواقب؛ لأننا لم نكُن مستعدين ألّا تكون معنا هنا. تركْتَ فراغاً كبيراً ولم يكُن أيّ واحد منّا يعرف كيف يتحرك في شساعة ذلك الهجران. لا أعرف إن كنا قد فشلنا، وكلّ ما أعلم هو أنك لن تكون أنت مَن يقرِّر فشلنا. في لحظة ما من الحكاية، صار انسجام صمتكَ شرطاً من الشروط.

أتخيلُكَ هناك، حيث أنت. مكان لا يليق بك، وفيه كان عليك أن تتعلم كيف تتكيف مع جسدك وتفهم قوانينَ لم تُكتب سوى في عيون رجالٍ من حولك. هل كان ذلك صعباً؟ هل اَلمتْكَ قوّة الأسوار من حولك؟ هل شعرتَ برعب مواجهة النظرات المحترزة لرفاقك الجدد؟ هنا، في الخارج، الجميع يظنون ذلك. خلال الأسبوع الأول الذي قضيْتَهُ هناك، كانت كلارا تتصل بي كل ليلة، بعد

العشاء، تبكي، وتتنفس بصعوبة، تكاد تختنق، وهي تقول «المسكين!» كما لو أنها تتحدث عن طفل بريء، كأنها ترمّلت قبل الأوان، تتنهّد «يا حبّي!»، وتسألني «ماذا لو أصابوه بسوء؟». ابنُك، فاسكو الصغير الذي صار أطول مني، كان يعود من المدرسة إلى البيت ويُغلق على نفسه في الغرفة ليعزف الكمان، وتوليفات الموسيقى مبعثرة فوق الأرض، يرفعُ إلى أعلى درجةٍ الأصواتَ الحادّة التي تصعد عبر جدران العمارة. ويقضي شافيير وقته في دراسة القانون الجنائي على الإنترنت، بحثاً عن بندٍ ما ليخرجك من هناك، ويردّد «إنه لا يتحمل، يا دانييل. ألمودوفار لم يُخلق ليقبع وراء القضبان». أصدقاؤك تحلّقوا حول موائد المقاهي، والمطاعم، والمطابخ، يدقّون الأقداح فيما بينهم بحماسٍ ويشربون نخباً من أجلك ليغطّوا على حَدْسهم بأنّ شيئاً فظيعاً يمكن أن يقع. لم يكُن أحد يفهم شيئاً. كيف يمكن أن يقع ذلك الأمر؟ رجل طيب، بابتسامته النبيلة، وكلماته الصائبة على الدوام. زوج. أب. صديق. أيّ تفسير كان يبدو ضرباً من الخيال. وأنا أمضي حياتي أبحث لكَ عن أعذار أمام الجميع، وأقول «لا بد أنّ له أسباباً، نحن نعرفه جيداً، وهو لم يعُد شخصاً آخر لأنه دخل إلى السجن». وقتئذٍ، لم أكُن غاضباً منك بعد.

لكني الآن أتخيّلُك هناك، داخل تلك الزنزانة. أتخيّل وجهك وحركاتك. الأفكار التي تملأ ساعاتك. ولا أعتقد أنك تشعُر بالرعب، كما لا أعتقد أنهم يصيبونك بأيّ أذى. أظنّ أنك بخير هناك. وجدت لنفسك ملجأ تختبئ فيه، وتنتظر كي تنقضي هذه الفترة العصيبة من تاريخنا، وينتهي هذا الشتاء الطويل. إنك في حالة سبات شتوي، وقد انخفضَت دقات قلبكَ إلى أدنى مستوياتها. ثلاث

وجبات في اليوم، أسوار توفّر لك الراحة، ووجودك يكاد ينعدم. هنا في الخارج، الحياة يمكن أن تتجمّد، لكن هناك في الداخل جسدك دافئ، بل وفكرُك أيضاً. إنك جبان لعين، يا ألمودوفار. متى تعقّدت أمور حياتك أكثر من أمورنا لتعطي لنفسك الحق في ارتكاب ذلك؟ أعرفُ أنّ كثيراً من الناس كانوا يعوّلون عليك، وتتعلق حياتهم بحياتك. بطريقة ما، كنت مسؤولاً عن هؤلاء الأشخاص. فهل كان ذلك ثقلاً كبيراً على صدرك؟

كان بإمكاني أن أفهم. لو أنك استقبلتني يوم ذهبتُ لزيارتك، ولو أنك أجبتَ على مكالماتي، لَتَحدّثنا وشرحنا كل شيء ولفهمتُ، يا ألمودوفار، لوفرتُ عليك حكي ما نعيشه هنا في الواقع، هنا بالخارج، وما يعيشه ابنك، وكلارا، وشافيير، وأنا، وما يعانيه كلّ الناس الذي تحبّهم من قلق، وعن هذا البلد الراكع، وهذا العالم المتداعي، وما كنتُ لأقول شيئاً قبل أن أسمع منك كلّ شيء، وأعرف منك كلّ شيء وأشعر به. ولكنتُ انتظرتُ لأقول لك إنه بعد ثلاثة أشهر على اعتقالك، أصبحتُ عاطلاً، وبعد ذلك بقليل ذهبت مارتا، التي كانت عاطلة عن العمل منذ عام ونصف، مع الأطفال إلى فيانا دو كاشتيلو لتشتغل في مقهى والدها، وإنني بقيتُ في لشبونة لأنني كنت لا أزال أعتقد أنني سأحصل على وظيفة جديدة. ورغم أن الأمور صارت أكثر تعقيداً فأكثر بشكلٍ متسارع بقيتُ أؤمن بذلك. وربما كان الحديث معك سيكون أمراً مفيداً بالنسبة لي، ربما ساعدتني، ولربما كنتُ أستطيع أن أنتظر أطول ما كان يلزم من الوقت.

يا لك من جبان لعين، يا ألمودوفار.

على أيّ حال، لا أجد طريقة أخرى للحديث معك. من جهة

أخرى، عندما تظن أن الوقت مناسب، سيكون لك الحقّ في الرّد الممكن في مثل هذه الظروف؛ ولربما استطعنا أن ندخل في حديث، وسيكون ذلك (تقريباً) كما في الأيام الخوالي. لذا، اسمع ما سأقوله لك.

يوم غادر شافيير البيت: يمكن أن نبدأ من هنا. كان ذلك الصباح حاسماً. قبل شهر من ذلك كنتُ قد حصلتُ على عمل لبيع المكانس الكهربائية. كانت تجارة فاشلة منذ البداية، وكنتُ أعرف ذلك عندما انخرطت فيها. لكن لم يكُن أمامي من خيار. خلال ستة أشهر ترشحتُ لعشرين وظيفة ولم أحصل على أيّ شيء يُذكر. كانت تعويضات البطالة ستنتهي بعد ثلاثة أو أربعة أشهر ثم يتلوها فراغ ثقبٍ أسود. كان عمري سبعة وثلاثين سنة، لكن حياتي كانت كأنها وصلت إلى نهايتها، مع ذلك. كنت مرعوباً. طبعاً، مرعوباً. وجدت الإعلان عن الحاجة إلى بائعٍ في أحد مواقع التشغيل على الإنترنت، فملأتُ الاستمارة، وفي اليوم الموالي، تلقيت بريداً إلكترونياً يقول إنه قد تمّ انتقائي. هكذا، من دون إجراء أيّ مقابلة، ومن دون أن أقدّم أدنى دليل على أنني مؤهل للقيام بالعمل. خلال حصة التكوين شرحوا لنا أنّ الأمر يتعلق ببيع مكانس كهربائية. كدتُ أضحك. ألمودوفار، كنتُ مستعداً لبيع قطع أرض في المريخ لو كان الأمر ضرورياً.

هل غادر شافيير بيتَهُ؟

لا، يا ألمودوفار، لم يَحِنْ دورك بعد لتتكلم. ثم إنّ هذه القصة سوف تخضَع للترتيب الذي سأقرِّره أنا.

كان نظام بيع المكانس الكهربائية كالآتي: كانت الشركة التي تسوّقها تُدعى .W.R.U، لكنني لم أعرف قط ما كانت تعنيه تلك الحروف. كنا نستأجر منها، أنا وزملاء آخرون تمّ انتقاؤهم، تلك الأجهزة لمدة أسبوع لنعرضها أمام الزبناء. وكان علينا نحن أن نتكلّف بترتيبات تلك العروض الخاصة بالبيع، بينما كانت الشركة تقدّم لنا، إن دعَت الضرورة إلى ذلك، دعماً لوجيستياً، وهو ما لم أفهم قط ما يعنيه بالضبط. لم يكُن لديهم مكتب خاص، بل يتوفرون فقط على مستودع يخزّنون فيه المكانس الكهربائية، ويعالجون كلّ الأمور الأخرى عبر الهاتف. لم يكُن هناك عقد عمل -وهو ما سمح لي أن أستمرّ في الاستفادة من التعويض عن البطالة- ويمكن أن أربح أقساطاً تتراوح بين 7 و11 في المئة عن كلّ مكنسة أبيعها، بعد خصم ثمن الكراء الأسبوعي. بعبارة أخرى، كان عليّ أن أدفع مقابل ذلك العمل. فقبلتُ على الفور.

كنتُ أجوب المدينة للقيام بالعروض. أسجّل في ذهني خطاباً، وأعرف كلّ أشكال المكانس في الكاتالوج، أحمل معي دائماً آلَتَيْن أو ثلاث آلات في المقعد الخلفي للسيارة. لكنه لم يكُن من السهل إقناع الناس باستقبالي في بيوتهم، فتمضي أيام دون أن يحدث أي شيء يُذكر، كما لو أنّ العالم يتوقف ببطء. من حين إلى آخر، كان أحدهم يفتح لي باب منزله، ويسمح لي بكَنس كلّ أرجاء بيته، من أرضية، وجدران، وسقوف، وسجادات، وستائر، وأرائك، وفي الأخير يقول لي إنه ليس مهتماً باقتناء الآلة. (إن الأمور لم تتعقّد فقط بالنسبة لك ولي أنا، بل إنّ الناس جميعاً كان يتخبّطون في الثقب نفسه). تفحصتُ جيداً لائحة معارفي. صديقات أمي. زميلاتي في وكالة الأسفار سابقاً. صديقاتي في مرحلة الثانوية

اللواتي لم أرهُنّ منذ عقد من الزمن. وأصدقائي من الرجال أيضاً. ساعدتني مارتا. حتى بعد أن ابتعدتُ عن المدينة، أجريتُ مكالمات هاتفية وطلبتُ من صديقاتي أن يستقبِلْنَني في بيوتهن.

ذات يوم، اتصلَتْ بي كلارا، بعد أن أخبروها أنني بحاجة للمساعدة في بيع مكانس كهربائية، فعرضَتْ عليّ أن تُنظّم عرضاً في بيتكم مقابل قسط من الربح بنسبة 10 في المئة من كلّ أرباحي. قبلتُ عرضها. كانت ظهيرة جيدة، فبعتُ مكنستَيْن. في الأخير، تحدثت كلارا عنك لبضع دقائق، وعن غيابك. كانت منشغلة بفاسكو، لأنه لم يُبدِ أيّ ردّة فعل بعد، كما لو أنه لم يُدرك بعد أنك لم تعُد هنا. وطلبت مني أن أتحدّث معه. فذهبتُ، وظننتُ أنه يمكن أن أقوم بذلك للتعبير عن امتناني لها. كان فاسكو في غرفته يخربش بعض الكلمات فوق مجموعة من الكتابات الموسيقية. يكتب شيئاً ما عن موت كلب من الكلاب. تحدّثنا لمدة عشر دقائق، وكان صوته يشبه كثيراً صوتك عندما كنت في سنّ الخامسة عشرة، بلحظات الصمت الطويلة نفسها بين الجُمل. تحدّثنا بشكل خاص عن الموسيقى. كانت تعجبه موسيقى الروك من سنوات السبعينيات، مجموعات مثل The Who، Led Zeppelin وRolling Stones. فخشيتُ أن أدمّر عالمه الجميل، لذا لم أطرح عليه أسئلة حول حياته الخاصة، ولا عن المدرسة، وعن صديقاته وأصدقائه. ولم أسأله عنك أيضاً.

هناك شيء مهم: كنت أؤمن بإمكانية إصلاح كلّ شيء، أن أمسك كلّ أجزاء حياتي التي تناثرت، وأجمعها على أحسن صورة لأضمّها إلى جسدي. ولم أكن غاضباً. وقتها لم أكن غاضباً. كلّ ما كان عليّ القيامُ به هو أن أظلّ منتبهاً إلى الأشياء الجوهرية وأتعقّبها، ألّا أنظر إلى الخلف، وأن أحسب كلّ خطوة أخطوها. كنت أعتقد

أنه لو أنني قمت بكل شيء على أحسن وجه فلن يقف مرة أخرى أيّ حاجز آخر في طريقي.

لكن، بعد ذلك، قام شافيير اللعين، الذي ظلّ يغلق في البيت على نفسه منذ اثني عشر عاماً، جالساً أمام الحاسوب، يفكر في الحزن العميق الذي يلفّ حياته، وقرّر أن يغادر البيت في اليوم ذاته الذي كنتُ سأقوم فيه بعرضٍ في أحد فنادق كاسكايش. انتبه لهذا الأمر، يا ألمودوفار: كان بإمكاني أن أبيع عشر أو خمس عشرة مكنسة دفعة واحدة، أربح بعض المال وأغيّر كلّ شيء في حياتي.

هل غادر شافيير بيتَهُ؟

نعم. وكان أول مَن رآه هو توغا، بُعيْد الساعة السادسة صباحاً، قرب وسط المدينة. في الرسالة النصية التي بعثها لي قال إنه لم يكُن متأكداً من الأمر، لأنّ ذلك كان يبدو له بَعيد الاحتمال، لكن الشخص الذي رآه كان يشبه كثيراً شافيير، بلباسه الرياضي الأزرق الداكن، وخُفّيْه الأُصْبعيّيْن اللذين يطقطقان خلف عقبيه، وشعره الأبيض كالعادة. بعد ذلك، رآه خمسة أشخاص آخرون يمرّ. وكلهم بعثوا لي برسائل نصية. كما لو كنت أنا والد شافيير. أو كما لو أنني أنْتَ. كما توصلتُ بمكالمة من شافيير على الساعة الخامسة واثنتين وأربعين دقيقة صباحاً، لم أردّ عليها لأنني أقطع صوت الهاتف ليلاً.

اتصلتُ بشافيير. تركتُ الهاتف يرنّ لوقتٍ طويل. لم يردّ على مكالمتي. هكذا، وضعتُ السلعة في السيارة، ستّ عُلب بها نماذج جديدة من المكانس. آلات يمكن أن تمتصّ أفكارك، وباهظة الثمن

كما لو أنّ وكالة الفضاء الأميركية هي مَن طوّرتها. وضعتُ كل شيء في السيارة، وخرجتُ أبحث عنه. ورغم أنه كان عليّ أن أكون في الفندق عند الساعة التاسعة، فقد قمتُ بجولة في الحي، وعبرتُ كلّ الأزقة التي تخيلتُ أنه يمكن أن يكون فيها، وعُدتُ إلى الأماكن التي اعتاد أن يرتادها قبل أن يصبح زاهداً لعيناً، ثم أجريتُ بعض المكالمات، أسأل إن . . . انتظر، هذا ليس صحيح. لم يحدث هذا. إنني أتحدّث كما لو أنني لا أريد أن أصيبك بخيبة، كما لو أن رأيك ما زال يهمني. ولجتُ السيارة، هذا صحيح، لكني لم أذهب لأبحث عنه بعد ذلك. وأنا أغادر لشبونة باتجاه كاسكايش أذكر أنني قلتُ في نفسي: **إذا كان يريد أن ينتحر، فقد كان أمامه ما يكفي من الوقت للقيام بذلك.**

لاحظ معي، يا ألمودوفار، لا أرى لماذا عليّ أن أدافع عن نفسي، وهذه القصة ليست محاكمة. سأكتفي فقط بقول ما يأتي: في ذلك الصباح، عندما توصلتُ بخبر أن شافيير قد غادر البيت، كان الشيء الوحيد الذي فكرتُ فيه هو أنه يجب عليّ أن أبيع هذه المكانس الكهربائية. حتى وأنا أعرف أنّ احتمال أن يلقي بنفسه من فوق إحدى القناطر كان احتمالاً مرتفعاً. حتى وأنا أعرف أنك، بطريقة ما، كنتَ تُعوّل عليّ لأراقبه. إلّا أنني لم أكن مثلك، وهذه بديهة قديمة. وعلاوة على ذلك، لم أكن صديقَهُ كما كنتَ أنت. في الحقيقة، أنا لا أعرف إن كنتُ صديقه. قبل مدة طويلة، كنا أصدقاء. بعد ذلك، انغمس في فقاعة سوداء، واكتسَت كلّ كلماته قلقاً خارقاً. أذكرُ أنني كنتُ أراه، مراهقاً في سن السادسة عشرة وسط مراهقين آخرين في السادسة عشرة أو السابعة عشرة، فأقول في نفسي: **إنه ليس هناك من تفسير، وقوانين الحياة كما نعرفها لا تبرّر**

وجود **شخص كهذا**. الاكتئابُ الذي أصاب شافيير لم يأتِ من أيّ مكان، كأنه اخترعه لنفسه. لم أحدّثك قط عن هذا الأمر، لكنني أظن أنه ابتكر هذه الشخصية: شاب حزين بشعرٍ أشهب، نظرة شاردة وسيجارة مشتعلة بين أصابعه، يخط رسومات مرضية على دفاتره، ويأسٌ دائمٌ يلفّ كلّ شيء من حوله، كأنه على وشك أن ينتحر. أظن أنه لم يكن واثقاً من هويته فاتّخذ تلك الشخصية السوداء، ثم أعجبه الدور أو تعوّد عليه وتاه فيه. فأصبح شافيير على ذلك الحال، يا ألمودوفار، يقضي أياماً متتالية وهو ممدّد فوق السرير ينظر إلى الفراغ الذي يفصله عن السقف. نحيفٌ كما لو أنه في إضراب عن الطعام. وُشومُ أرقامٍ على ذراعيه، وعلى ظهره وصدره، بعضها رسمها هو نفسه. الأقراص. الهوس بالإحصائيات والأرقام. معادلات رياضية على جدران الغرفة. الزبناء الذين يستقبلهم في كلّ ساعة وحين، نهاراً أو ليلاً، ليرسم عناكب على أجسادهم (لم أفهم قط لماذا العناكب بالضبط) مقابل قدر زهيد من المال لا يسمح له حتى بالبقاء على قيد الحياة. ثم غياب تامّ لأيّ آفاق مستقبلية.

وكان هذا الأمر بالضبط، أيْ غياب أيّ آفاق مستقبلية، هو ما أصابني بالرعب. كيف يستطيع ألّا يُفكر في المستقبل؟ كيف يمكن أن يكون الغد، أو الشهر المقبل أو بعد عشر سنوات، من الأمور التي لا يشغل باله؟ كيف يمكن لشخص أن يستيقظ كلّ صباح ولا يشعر بأيّ أمل أو خوف ممّا سيحدث؟ لم أكُن أعرف كيف أتحدث مع شخص كهذا. وأنا أستحضر ذلك وأنظر إلى الخلف، أظن أنّ ما حدث كان كما يأتي: كُنْتَ محصناً ضدّ تعاسة شافيير، وكانت قدرتُك على تحمّل كلامه البذيء ولامبالاتك المطلقة في أثناء الصمت كانت شبه مرعبة، وبقيتَ صديقاً له؛ وبقيتُ أنا معكما لأنني

لم أكُن مستعداً قط للتخلي عمّا كُنّاهُ. وكان خلقُ صداقات جديدة أمراً مستبعداً، لأنني لست من هذا النوع من الناس.

وأنت كُنت تريد أن تُنقذه. كنت تقول: شافيير فنان، وهذا هو حال الفنانين، يحملون معهم الموت والمعاناة. تحدثنا كثيراً عن حتمية انتحار شافيير لدرجة أنه، ابتداء من لحظة معينة، بدأتُ أفكر في الأمر كما لو أنه قد حدث منذ سنوات، وليس باعتباره أمراً يمكن أن يحدث في المستقبل. ومع ذلك، كنتَ تريد أن تنقذه، ولا أحد كان يستطيع أن يتحدّث عن الشقاء أمامه، لكننا لم نكُن قادرين على أن نتركه لوحده، كنتَ دائماً هناك لتمنعه من ارتكاب ذلك. كما لو أنه لم يعُد قادراً على تقرير مصير حياته.

أما اليوم، فقد تغيّر كلّ شيء: من هناك، حيث أنتَ الآن، لا يمكنك أن تنقذ أحداً.

صحيح. لكنك، أنت تستطيع ذلك.

إنك مخطئ. أنا لم أبقَ هنا لأشغلَ مكانكَ. وفوق هذا، خلافاً لك أنت، لم أشعر قط أنني مسؤول عن بقاء شافيير على قيد الحياة.

وماذا لو أطلق رصاصة على رأسه؟

ألمودوفار، إنّ السؤال الوجيه، بالأحرى، هو: «متى سيُطلق رصاصة على رأسه؟».

ومتى سيُطلق رصاصة على رأسه؟

إن شافيير يشكل جزءاً أساسياً من ذواتنا. يوم يطلق رصاصة على رأسه، سيبرز فراغ لن نعرف أبداً كيف نملأه. إنني أعرف ما أقول. هذا ما يسبّبه الموت لمن يبقوا على قيد الحياة. من جهة أخرى، سيكون ثمة ارتياح عميق، يشبه السلم. لكن هذا ليس هو أهم ما في الأمر. الأمر الأساسي أنه يوم يطلق رصاصة على رأسه، لن يكون هناك أيّ واحد منّا ليمنعه من ذلك.

لقد غادر البيت لأول مرة منذ اثني عشر عاماً وأنت ذهبتَ إلى كاسكايش لتبيع المكانس الكهربائية! إنك أناني فظيع، يا دانييل!

هدئ من روعك! إن كان هنا من أناني فهو أنت، أيها الوغد!

إن حزن شافيير يزعجك، لذلك تتركُه ليبتعد إلى زاوية مظلمة كي يضع حداً لحياته. وهكذا، يمكنك أن ترتاح، أخيراً، وتنعم بالسكينة، أو ما يشبه السلم، كما تقول.

إن شافيير، كأيّ شخص آخر، يستحق أن نحترم إرادته.

إن حياته تستحق احترامنا، وهذا يتطلب مجهوداً تأبى أن تقوم به.

أيها اللعين! ليس من حقك أن تتحدث عن المجهود وأنت ترفض أن ترانا منذ ما يناهز أربع سنوات. أنا بذلت مجهوداً ولم أذهب لأبيع المكانس الكهربائية.

لم تذهب إلى كاسكايش؟

كلا. وصلتُ إلى الطريق السيار. قطعتُ ثمان كيلومترات ثم أخذت أوّل مخرج وعدتُ أدراجي إلى لشبونة.

لماذ فعلتَ ذلك؟

لأنه قبْل حوالي شهرين كنتُ ذهبتُ إلى بيته. طلب مني أن أزوره وانتهى الحديث الذي دار بيننا بشكل سيئ.

عندما وصلتُ، كان ممدداً فوق السرير، الحاسوب فوق بطنه، وأصابعه تنقر المفاتيح. كانت الساعة تُشير إلى الرابعة زوالاً تقريباً، بَيْدَ أن الغرفة كانت تبدو كأنها كهف مظلم، وقد أنزلت ستائرها، وأُشعل بداخلها فوق الأرضية مصباحٌ غُطّي عاكسُ ضوئه بقميص. اختفت الجدران وسط الظلام، ودخان كثيف يطفو في الفضاء قرب السقف. ورغم الحر، كان نصف جسده تحت الملاءة. كانت هناك موسيقى بصوت خفيض، موسيقى غريبة، كأنه حوت يبكي، ما يشبه صوتاً مائياً. إنك تعرف شافيير وذوقه الغريب. فطن لدخولي لكنه لم يتحرك ولم يرفع عينيه نحوي. ألقيتُ عليه التحية فلم يُجبني، بالكاد رفَعَ يده، وسيجارةٌ مقرفة تتدلى من بين أصابعه. جلستُ على طرف السرير وبقيت أنتظر. لا أدري إن لاحظتَ مرة هذا الأمر: في غرفة شافيير يصير الزمن بطيئاً، وتحدث الأشياء بتثاقل كبير، كما لو أنّ أجسادنا تصبح أكثر كثافة، كما لو أنّ أيّ شيء، أيّ حركة، أيّ جملة، أيّ صمت، يدرك النهاية في الحقيقة. وبعد ثلاث دقائق، تكلّم:

- لقد قمنا بشيء سيئ - قال.

- ماذا؟ عن أيّ شيء تتحدّث؟

- أتحدث عن موقعنا الإلكتروني - قال. - إنه لا يشتغل.

أتُصدّقُ هذا الأمر، يا ألمودوفار؟ شافيير قلق بخصوص موقعنا الإلكتروني. أنتَ لم تعُد هناك منذ أكثر من ستة أشهر وشافيير لا يزال منشغلاً بذلك الموقع اللعين! وكلّ هذا لأنك وضعت أشياء غريبة في ذهنه. لمدة أشهر طويلة، لم تتوقف عن الحديث عن الموقع: فكرة مضمونة النجاح، بعد سنة سوف نبيع هذه الصفقة بحوالي 000 10% من الأرباح، هبة سماوية سنؤدي بها قرض البنك، ونفقات دراسة الأبناء، ونعيش حياة أكثر رخاء... على أيّ حال، كلّ ذلك الفيلم بكامله. وفوق ذلك، سوف نقوم بعمل خيري، ونساعد الناس. لطالما سمعتُك تتحدّث عن ذلك. أنا بدوري بدأت أصدّق الأمر. كانت تبدو فكرة عظيمة. حتى أكون صادقاً، إنها ما زالت تبدو لي فكرة عظيمة. لكن، في الحقيقة، أنا وأنت دفعنا أموالاً من أجل تلك الفكرة، أموالاً نحن بحاجة إليها اليوم، أموالاً ربما كانت ستمنعك من الإقدام على ما قمتَ به، ولم نعُد نرى تلك الأموال مرة أخرى. وكم من الليالي قضاها شافيير وهو يبرمج ذلك الموقع، أسابيع من دون نوم، وحين أصبح كلّ شيء جاهزاً في النهاية لم يحدث أي شيء. لقد كان على حق: الموقع الإلكتروني لا يشتغل. إلّا أنه، بعد سنة تقريباً، وفيما لم يعُد الأمر يهمني منذ مدة، كان شافيير لا يزال منشغلاً بالأمر.

لم أكن أرغب في ذلك الحديث العقيم، لكني حاولتُ أن أتحلى بالصبر.

- وما الذي تريد أن تقوم به؟ - سألتُه - إنك تعلم جيداً أننا لا يمكن أن نستثمر مزيداً من الأموال.

أغلق شاشة الحاسوب بعض الشيء، ثم تجهّم وجهُه، وقال:

- هناك أشخاص يزورون الموقع. المشكل أنه لا أحد من هؤلاء الناس بحاجة إلى مساعدة.

خلاصة الأمر، كان فحوى المشكلة كالآتي: خلقنا شبكة تواصل اجتماعية يمكن من خلالها أن يلتقي أشخاص بحاجة إلى مساعدة بأشخاص مستعدين لتقديم يد العون. خلال الأشهر الأحد عشر الأولى التي كان فيها الموقع مشتغلاً، سجّل ستة وعشرون شخصاً أسماءهم؛ من بينهم أربعة عشر لم يكتبوا أيّ شيء، أربعة كانوا يكتبون بانتظام ليقولوا إنهم كانوا بحاجة لمساعدتهم على تنظيف أجسادهم وتقليم أظافرهم وإزالة شعرهم... إلخ. وثلاثة كانوا يستعملون الموقع ليبقوا على اتصال فيما بينهم دون أن يطلبوا أيّ مساعدة قط؛ وشخص واحد فقط، كان يقول، من حين لآخر، إنه على استعداد لمساعدة كلّ مَن هو بحاجة إليه، في أي مكان وفي أيّ وقت، وأنه لأجل ذلك يتوفر على شاحنة صغيرة من تسعة مقاعد.

بالنسبة لي، السؤال المهم هو: مَن هم هؤلاء الأشخاص؟ نهض شافيير من السرير، وبدا لي أنّ جسده النحيف والفارع، ترنّح، كما لو أن هناك ريحاً تهبّ في الغرفة، أشعل سيجارة أخرى ثم أشار إلى النافذة المغلقة. سألني:

- أما يزال الناس كما كانوا، هناك في الخارج؟

- الناس هم الناس نفسهم - أجبتُه.

- وهل لا يزال هناك أشخاص بحاجة إلى مساعدة؟

- كلّ الناس بحاجة إلى مساعدة.

- لماذا لا يطلبون المساعدة، إذاً؟
- لستُ أدري، ربما لا يعرفون الموقع.
ثم خطا خطوتين وجلس إلى جانبي فوق السرير. ظهر وجهه في حاشية الضوء الشفاف المنبعث من المصباح، وقد اغرورقت عيناه بدمعتين قد تنزلان في أيّ لحظة وحين. لكنه، حين تكلم، كان صوته حازماً، كما لو أنّ كلّ العاصفة كانت تدور بدواخله.
- أخاف ممّا يمكن أن يحدث لو أن أحدهم طلب مساعدة.
لكنه لم يكن يبدو خائفاً. فقلت له:
- على الأقل، ستكون لدينا شاحنة بتسعة مقاعد.
حرَّك يده التي كان يمسك بها السيجارة، فانتشر الدخان في كلّ الاتجاهات. لم يضحك.
- علينا أن نترك رسالة نطلب فيها المساعدة.
انتبِهْ لهذا الأمر، يا ألمودوفار. لحظتها كان بإمكاني أن أنهض وأغادر. لكني بقيت هناك -لأنك، لو كنت مكاني، لبقيت أيضاً- واستمعتُ لفكرة شافيير.
كان يريد أن يفتح حساباً في الموقع، بهوية مزيفة، وبعد ذلك يكتب فيه أنه يطلب مساعدة، أي شيء بسيط، مثل إصلاح نافذة، أو أخذ الكلب إلى البيطري، فقط للتأكد من أن أحدهم قد يُجيب.
- وماذا لو ظهر أحدهم ليعرض المساعدة؟ - سألتُه.
- تتحدث معه وتقبَل عرضه.
- أنا؟
- وهل لا تحتاج أنت لأيّ مساعدة؟
- لا.
- لقد قلت للتو إننا جميعاً بحاجة إلى مساعدة.

- لن يصدق أحد أنني بحاجة إلى مساعدة.

- لو قلتَ الحقيقة، لِمَ لا؟

- لماذا لا تطلب أنت المساعدة؟

- أنا لا أستطيع مغادرة البيت.

- يمكن أن تطلب منهم أن يأتوا لمساعدتك هنا في البيت. تقول إنك لا تستطيع مغادرة البيت، وأنك بحاجة أن يجلبوا لك المشتريات من السوق الممتاز.

- أمي تجلب لي معها المشتريات من السوق الممتاز.

- تطلب أي شيء آخر. دجاج مشوي. جريدة. ببغاء.

ظلّ صامتاً لوقت طويل، يحرّك شفتيه كمَن ينجز عمليات حسابية معقدة في ذهنه. بعد ذلك، قال:

- لو جاء أحدهم لمساعدتي، هل يمكنكَ أن تكون هنا؟

- تباً لك يا شافيير! هذا عبث.

- إنه ليس كذلك.

- انْسَ الموقع، إذاً.

- طيب. سوف أنساه. نقوم بهذا الأمر، فقط لنعرف إن كان هناك أحد يستجيب. وبعد ذلك أنساه.

فكرتُ في الموضوع لبضع ثوان. كانت فكرة غريبة ولم أكُن أرغب في إنجازها. أنت وأنا قضينا ثلثَي عمرنا نُرضي النزوات العبثية لذلك اللعين، فقط خوفاً ممّا يمكن أن يحدث لو رفضنا طلباته. لكن، في الواقع، لقد صار شافيير كبيراً ليسمع كلمة «لا» من حين لآخر.

- حسناً -قلتُ له- سأكون هنا عندما يأتون لمساعدتك.

وأجبرتُ نفسي على تذكّر تلك اللحظة، وأهمية ذلك الوعد.

ثم تنهّد شافيير، كما لو أنني أنقذتُ حياته للتو.

نهضتُ ورأسي مثقل بالحديد. يحدث لي ذلك كلما زرته: أدخل مدفوعاً بحماس ساذج، أعتقد أنه سيكون أمراً جيداً أن أراه، وأننا سنتحدث لساعات وساعات كما كنا نفعل يوم كنا صغاراً، وبعد ذلك، بعد مرور بضع دقائق، أشعر بحزن يخيّم على جوّ الغرفة ممتزجاً بالدخان والظلال فلا أفكر سوى في أن أغادر على أسرع وجه ممكن. لقد تعلم شافيير كيف يحدس تلك الاندفاعات، كما لو أنه، هناك داخل الغرفة، كان يملك القدرة على رؤية ما وراء ما تراه العين. قال:

- يمكنك أن تُشعل الضوء.

لم أجِبْه. مشيتُ حتى بلغت المكتب. كانت الأوراق مرتَّبة في حزمات من خمس أو ست: معادلات كُتبت بخط اليد، رسومات بيانية، أرقام متفرّقة، أشياء معتادة. كانت هناك ورقة بها جدول يشغل الصفحة بكاملها. لم تكن شيئاً غير مألوف داخل تلك الغرفة، لأنه حتى على الجدران كانت هناك جداول ثُبّتت باللصاق. لكن، انتبه، كان عنوان ذلك الجدول: **مؤشّر السعادة**.

- ما هذا؟

اكتفى بالقول:

- إحصائيات.

أخذتُ الورقة وقلَبتها. كانت تتمة الجدول في الصفحة الأخرى. كانت لائحة من البلدان، 149 بلداً، مرتَّبة وفق معدّل مؤشّر السعادة في كلّ بلد. تتصدر كوستاريكا اللائحة، وتتذيّل التوغو الترتيب. كانت السطور 127، 128، 129 و130 من

اللائحة تشير إلى بلغاريا، **بوركينا فاسو، الكونغو، وساحل العاج،** على التوالي. وقد وُضع تحتها خط أخضر.

- ما هو مؤشّر السعادة؟ - سألتُه.

ترك شافيير نفسه ليسقط نحو الخلف ثم استلقى فوق الملاءة، وظلت يده الممسكة بالسيجارة متدلية خارج السرير. ثم أغمض عينيه.

- إنها ليست إحصائيات ذات أهمية كبيرة، ما دامت تفتقد للموضوعية - أجابني - لكنها أحسن ما لدينا. في الحقيقة، إنها تعتمد على استجواب يتضمن سؤالاً واحداً: **في سُلَّم من 0 إلى 10، كم هي نسبة رضاك عن حياتك في مجملها؟**

سحب نفساً من سيجارته، فخرج الدخان متثاقلاً من أنفه. ثم أردف:

- أرجّح أنّ معظم الناس يجيبون عن الاستبْيان باستخفاف، لأنّ معظمهم لا يفهمون شيئاً عن السعادة.

أتعتقد ذلك، يا ألمودوفار؟ هل تعتقد أن شافيير، أتعس شخص في هذه المدينة، الرجل ذو الروح السوداء، ينصّب نفسه مرشداً روحياً للسعادة؟ أنت تعرفني: لحظتها كان بإمكاني أن أنسفه بثلاث أو أربع جُمل حاسمة. لكني، بدل ذلك، سألتُه:

- وما الذي يجري في بلغاريا، وبوركينا فاسو، والكونغو، وساحل العاج؟

- في هذه البلدان، معدّل مؤشّر السعادة يعادل جوابي عن الاستبْيان.

- وهل أجبت عن سؤال الاستبيان؟

- طبعاً.

ظلّ مستلقياً على السرير، جامداً، والسيجارة عمودية بين شفتيه. فتح عينيه، ثم أغمضهما مرة أخرى. وطرحتُ عليه السؤال الوحيد الذي كان في ذهني:

- لماذا؟

- إنك تعرفني. لأنني أحبّ أن أُحدّد مقدار الأشياء في الحياة وفي العالم.

- ولا تخشى ما قد تعنيه تلك الأرقام؟

- أكثر ما أخشاه هو ألّا أعرف الأرقام.

- . . .

- . . .

مكتبة
t.me/t_pdf

- والآن؟

- والآن، ماذا؟

- حسناً. لنقل إن درجة رضاك عن حياتك هي 4,4 على 10. فماذا يعني هذا؟

- حتى أكون دقيقاً، جوابي هو 4,43672. ومن بين ما يعنيه ذلك أنه ينبغي لي أن أرحل إلى بلغاريا أو بوركينا فاسو أو الكونغو أو ساحل العاج.

- لماذا؟

تقلّب شافيير في السرير، ثم تمطّط وأطفأ السيجارة في صحن صغير ممتلئ بأعقاب السجائر قرب منضدة السرير.

- لدي نظرية في هذا الموضوع - قال.

- هيا، أخبرني.

ولقد كان صادقاً، يا ألمودوفار. منذ وقت طويل، لم يحصل

لي ذلك الأمر، لكني، لحْظَتها، كنتُ مهتماً حقيقة بما كان سيقوله شافيير.

- يرحلُ المرء إلى البلد الذي يكون مؤشّر السعادة فيه يعادل مؤشّر سعادته الخاصة - قال في البداية - لأنه حين يجد المرء نفسه محاطاً بأشخاص لهم مؤشّر سعادته نفسه في المتوسط، فإنه يشعر باندماج أحسن داخل المجموعة الجديدة، وأكثر انشراحاً ممّا كان عليه من قبل. سيكون، بعبارة أخرى أكثر سعادة. وهو ما يعني أنّ مؤشّر سعادته يزداد، ويصبح أعلى من المؤشّر المتوسط في ذلك البلد ويساوي مؤشّرات سعادة البلدان التي تتربع على أعلى لائحة الترتيب. يجب على المرء، إذاً، أن يرحل إلى هذا البلد الجديد، دون أن يكون سبب ذلك أنه لا يشعر بالاندماج في البلد الذي يكون فيه. ففي البلد الجديد، سيشعر المرء أنه يندمج من جديد بشكلٍ مطلق، ممّا يرفع مرة أخرى مؤشّر سعادته، ويجبره على الانتقال إلى بلد آخر في درجة أعلى من لائحة الترتيب. وهكذا دواليك. في النهاية، سيستقر المرء في البلد الذي يحتلّ قمة اللائحة وسيكون سعيداً بقدر ما تسمح به الظروف الإنسانية فوق هذا الكوكب.

ثم ران الصمتُ.

- وهل تؤمن بهذا؟ - سألتُه في النهاية.

- إنها مجرد نظرية. وأنا على وعي أن الأمور ليست بهذه البساطة.

- إذاً، لن تذهب لتستقر في بوركينا فاسو؟

- من المحتمل ألّا أقوم بذلك.

- ألا تريد أن تحسّن ترتيبك في اللائحة؟

- طبعاً أرغب في ذلك. أليس هذا ما يتمنّاه كلّ واحد منّا؟ فقط

ينبغي، أولاً، أن أغادر هذه الغرفة. وهذا قد ينتج عنه انخفاض مباشر في مؤشّر سعادتي كإنسان.

لزمَ لحظةَ صمت ثم نظر إليّ. بعد ذلك، أردف قائلاً:

- 4,4 معدّل ضعيف جداً. لو أن هذا المعدّل انخفض أكثر من هذا المستوى، قد يصبح الأمر خطيراً.

قال ذلك بنبرة فيها شيء من السخرية. لكن كلماته رنّت كأنها بديهة من بديهيات الرياضيات. فقلتُ له:

- أريد أن أجيب عن سؤال الاستبيان.

- هل أنت جاد؟ - قال شافيير متحدّياً. ثم أشعل سيجارة أخرى.

- ما هو السؤال؟

- في سُلَّم من 0 إلى 10، كم هي نسبة رضاك عن حياتك في مجملها؟ ثم أضاف:

- لا تكن متسرعاً في الجواب، يا دانييل.

حاولتُ أن أفكر في كلّ شيء: مارتا والطفلَيْن، والعطالة، والمال الذي ينقضي، و«خُطتي» في الحياة، وصورتي المنعكسة في المرآة هذا الصباح. وفي الأخير قلتُ:

- 8.

نظر إليّ شافيير مندهشاً، ثم سألني:

- ما هذا؟

- هذا جوابي 8.

- ألم أطلب منك ألّا تتسرّع؟!

- ولم أتسرّع.

- سكتَّ ثلاث دقائق، وبعد ذلك أطلقْتَ رقماً من المفترض أنه يمثل درجة رضاك عن حياتك.

- إنه رقمي.

- وفي ثلاث دقائق، استعرضتَ شريط حياتك، حصيتَ كلّ شيء وقمتَ بتقييم كلّ المتغيرات؟

- نعم. أظن ذلك. كم استغرقتَ أنت من الوقت للقيام بذلك؟

- تباً لك، يا دانييل! منذ أسبوعين وأنا أحاول ذلك، لكني ما زلت أشعر أنني لا أفكر في كلّ شيء.

- أسبوعان كاملان، يا شافيير؟ إنها ليست مسألة رياضية.

- في الحقيقة، هي كذلك. لكنها، قبل كلّ شيء، حياتك. لا يمكنك أن تقيِّمها في ثلاث دقائق. مرة أخرى: معظم الناس لا يفهمون شيئاً عن السعادة.

- جوابك هو 4,4، أمّا أنا فلا أفهم شيئاً في السعادة.

- إنك تسيء فهمي. أنا لم أقُل إنك لا تشعر بالسعادة. أنتَ تشعر بها. لكنك بالكاد تفهمها.

- وهل تفهمها أنت؟

- أنا أفهم سعادتي. إنها معادلة مثل أيّ معادلة أخرى عليّ أن أملأها بمتغيرات وثوابت وأقيمها بمُعامِلات، ثم، بعد ذلك، أربط كلّ ذلك بالإشارات المناسبة.

- متغيّرات. أي متغيرات؟

- الأصدقاء. الحب. الوقت. الأحلام. العطش. آلام البطن. الأمل. الحسد. مذاق الطعام. مثل هذا الهراء.

ضحكتُ.

- لا يمكنك تحديد مقدار هذه الأمور.

- إذا كُنتَ تستطيع أن تحدد مقدار السعادة، يمكنك بسهولة أن تحدد مقدار الحنين إلى عمرك في سنّ الثامنة أو الخوف من تقبيل أحد ما. طبعاً، بعض المتغيّرات لا يمكن تحديدها إلّا بحلّ معادلات أخرى أولاً. إنها منظومة، في الحقيقة. شيء معقد. لكن الحياة أيضاً معقدة، يا دانييل.

أُقْسمُ لك، يا ألمودوفار، أنّ ذلك الوغد كان يتحدّث بكلّ جدية.

- أهذا ما تقوم به مغلقاً على نفسك في هذه الغرفة طوال اليوم؟ أتجلس في الظلام وتضع تقييماً لكلّ أمر من أمور الحياة؟

لم يُجِبْني. ظلَّ ينظر إليّ لبعض الوقت. بعد ذلك، أجابني مندهشاً:

- إنك غاضب. لماذا أنت غاضب؟

لم أجِبْه. نظرتُ إلى الورقة في يدي. نظرتُ إلى الأسطر باحثاً، فوجدتُ ما كنت أبحث عنه: سويسرا، رابع بلد في اللائحة. كان معدّل مؤشّر السعادة في سويسرا هو 8، كما كان جوابي. **أنا لا أريد أن أعيش في سويسرا**، قلتُ في نفسي. ثم نظرتُ مرة أخرى إلى شافيير وسألتُه:

- وما الذي قمتَ أنت باحتسابه؟ منذ اثني عشر عاماً وأنتَ تُغلق على نفسك في هذا المكان، فما الذي يتبقى لكَ كي تحتسبه؟

قلتُ هذا وأنا أدرك في الوقت ذاته ضعف حجّتي. لديه الكثير ممّا يمكن أن يحتسبه.

جلس شافيير من جديد وقدَماه خارج السرير، ثم نظر إلى الأرضية لمدّة طويلة يبحث عن الكلمات التي تبرِّر وجوده.

- أعرف ذلك - قال أخيراً - ليس لدي الكثير لأحتسبه، لكن،

رغم ذلك، إنها الحياة. ما دام قلبي يخفق، فهناك حياة. حياتي. ويبدو لي من المهم أن أعرف قيمتها بالضبط. على الأقل، لا أعيش في وَهم.

- لماذا؟ هل أنا أعيش في وَهم؟

ارتعش فَمُ شافيير بعض الشيء، وبعد ذلك أجابني:

- نعم.

- تباً لك، أيها اللعين! أنا لستُ ألمودوفار، ولستُ مجبَراً على تحمّل هذيانك.

- إن شئْتَ، ساعدتُك في حلّ معادلتك.

- أيّ معادلة، يا شافيير؟ لا توجد وصفة للسعادة؟

حرّك رأسه لكنه لم يقُلْ شيئاً. وعمّ صمتٌ مضطرب، يصعب تفسيره.

- عليّ أن أذهب - قلتُ له.

ثم غادرتُ.

لم أعُد إلى هناك. اعتدنا أن نتحدّث معه كما لو أنه من زجاج، كما لو أنّ كلماتٍ بها شفرات حادة يمكن أن تفتح شقوقاً في جسده أو ربما تكسره. تخيّلتُهُ مهشّماً شظايا فوق السرير. وتخيلتُ أُمّه تجده مكسراً فوق السرير، تحاول جمع أجزاء ابنها لتُعيد تشكيله، وهي تعلم أنّ الأمر مسألة وقت قبل أن يتهشّم من جديد. لكني لم أذهب إلى هناك، ولم أتصل به هاتفياً. لم يعُد يبعث رسائل نصية إلى هاتفي. وبعد شهر تقريباً، توصَّلتُ منه ببريد إلكتروني، عبارة عن تقرير حول الموقع. كان قد فتح حساباً مُستعْملاً باسم مستعار وترك طلباً بمساعدته على تغيير صمّام في علبة القاطع الكهربائي. لم يُجِبْه أحد. ومرّت الأسابيع. بعض المازحين الذين اعتادوا الولوج إلى

صفحة الموقع كفّوا عن زيارته أو لم يجدوا أي شيء يكتبونه. أما الشخص الذي عرض خدمات شاحنته ذات التسعة مقاعد، فلم يظهر له أثر. ربما لم يعُد مستعداً لتقديم المساعدة، وربما لا يعرف كيف يغير صمّاماً. في نهاية الرسالة الإلكترونية كتب شافيير: «أستسلِم». افترضتُ أنه كان يتحدث عن الموقع، لكنه، في الحقيقة، ربما كان يقصد كلّ شيء. ومع ذلك، لم أذهَب لزيارته.

صحيح أنني مللتُ مشاكل شافيير، لكن ليس لهذا السبب لم أذهب لزيارته. عليكَ أن تفهم شيئاً: كنتُ منشغلاً بإعادة بناء حياتي، رغم أنّ الأمور ما فتئت تسوء. لم يكن ما أربحه من مال من بيع المكانس يكفي لتغطية كلّ المصاريف، حتى بعد أن بدأت أدخّن نصف عدد ما كنت أدخنه من سجائر، ورغم أنني ألغيت الاشتراك في خدمات التلفزيون والهاتف، والتأمين على الصحة، ورغم أنني لم أعُد أتناول الأكل خارج البيت، ولم أعُد أشتري الملابس، ولا أذهب إلى السينما، ولا أخرج ليلاً لشرب كأس جعة، ورغم أنني قلَّصتُ مشترياتي من السوق الممتاز واختزلتها في لائحة من المواد الأساسية. حاولتُ أن أتفاوض مع البنك بخصوص قرض المنزل، لكن من دون جدوى. كان الجميع يقوم بالشيء نفسه، فقراء وأغنياء.

لكن المال لم يكن هو كلّ ما في الأمر. لقد اشتقتُ لمارتا، ولثقلها في الجهة الأخرى من السرير، لعينيْها تستمعان لي بعد أن ينام الطفلان، وإلى يقين كلماتها المُطَمْئنة. عندما كنا نتحدّث في الهاتف، أو نلتقي، كنتُ أجتهد لأُظهر لها أنّ كلّ شيء على ما يرام، أن البُعد لا يؤثر فينا، وأن مشاكلنا المالية ووضعيتي كانت شيئاً عابراً ومؤقتاً. وكانت تقوم بالشيء نفسه، من جهتها، بل إن

الأمور كانت تبدو فعلاً على ما يرام في الشهور الأولى. لكنها ربما لم تكن كذلك. وطفلاي اللذان اشتقتُ إليهما. كان الحنين إليهما مثل حجرٍ جامد يجثم فوق صدري، فلا أستطيع أن أتنفّس فجأة.

كلّ شهر، كنتُ أركب السيارة وأذهب لزيارتهما في فيانا دو كاشتيلو. كان والدَيْ زوجتي يملكان شُقّتَيْن في البناية نفسها، وسط المدينة، يسكنان في الطابق الأول، أما الطابق الثاني، الذي كان معروضاً للكراء منذ سنة، فكانت تعيش فيه مارتا مع الطفلَيْن. كنا نتجول في الشاطئ فتلفح الرياح وجوهنا، نأكل في مطاعم مطلّة على البحر، وفي الليل يأتيان ليناما معنا في السرير، بيني وبين مارتا، لنشكّل نحن الأربعة حيواناً بأربعة رؤوس تحت الملاءة. وبعد ذلك، أعود إلى لشبونة ونتحدّث كل يوم عبر الإنترنت، أحياناً بالصورة والصوت، كأننا جنباً إلى جنب تقريباً. لكن ذلك لم يكُن كافياً، كانت هناك دائماً حاجة ملحة لأشتمّ رائحتهما. وكان هناك خندق يتسع بيني وبينهما، بوضوح مرعب. لم يكونا يقولان أي شيء، كانا يتفهّمان وضعيتي، لكني شعرت أنهما كانا يلومانني على ذلك الفراق. بَيْدَ أنّ شيئاً ما تغيّر. خصوصاً مع فلور التي لم تكن تنظر إلى الكاميرا عندما نتكلم وتستعمل تلك المختصرات المحبَّبة للمراهقين، وكلمات إنجليزية، ودمى وسط الجمل لا أفهم معناها على الإطلاق. حاولتُ أن أتذكّر كيف كنتُ في سنّ الثالثة عشرة. هل كنتُ مثلها؟ لستُ أدري، الذكريات التي أملكها جدّ متضاربة كي أثقَ بها. وكان الأمر أسهل مع ماتيوس. لم نكُن نتحدّث كثيراً، بيد أننا كنا نلعب ألعاباً عبر الإنترنت، ونتبادل الفيديوهات. كان ذلك شكلاً من أشكال التواصل بيننا. ورغم قصرها، كانت الأحاديث بيننا صريحة بشكلٍ يبدو مستحيلاً في ذلك الوضع. كانت كلمات

ابني ذي التسع سنوات حقيقية وتعجّ بالمعاني، وأحياناً مناسبة أكثر من اللازم.

ذات مرة، أوقفتُ اللعب مع ماتيوس (كنا نقذف مادونا بالفطائر) وكتبتُ:

- في سُلَّم من 0 إلى 10، كم هي نسبة رضاك عن حياتك في مجملها؟

ظلّ صامتاً لوقتٍ طويل، فظننتُ أنه كان يرقن نصاً طويلاً. وفي الأخير، كتب:

- سؤالٌ صعب، غداً أجيبك.

لكنه لم يجِبْني إلّا بعد مرور أربعة أيام: 6,8 ☺.

وهو ما يعني أنني أنا العاطلُ، المنفصل عن أسرتي، ولديّ صديق في السجن، وآخر على وشك أن يضع حداً لحياته، كنتُ أكثر سعادة من ابني. ومع ذلك، كان سعيداً برقمه، لأنه لم يكُن يستعمل رسوم الوجوه المبتسمة اعتباطاً مثل أخته. هذه الفكرة جعلت نقطتي 10/8 ترتعشُ. انتبهتُ إلى أنني حين قمتُ بتقييم سعادتي لم آخذ في الحسبان سعادة طفليّ. للحظة، حاولتُ أن أتذكر أشياء أخرى ربما تركتها خارج المعادلة، بحسب تعبير شافيير. قلتُ في نفسي: **الأرق، لو احتسبت نوبات الأرق، قد ينخفض رقمي بجزأين أو ثلاثة أجزاء من العشرة**. أجهدت نفسي لأجد شيئاً يرفع من جديد مؤشّر سعادتي. قلتُ في نفسي: **حالة قلبي**. كشفَ الفحصُ الأخير أنني أملك قلب رجل يصغرني بستّ سنوات. بدا لي ذلك كافياً.

بعد ذلك، وأنا أفكر في الأمر ملياً، تساءلتُ ما الذي يمكن أن تُحدثه تلك الأمور التي تطرقنا إليها مع شافيير في ذلك الصباح. ألمودوفار، إن كان شافيير يريد أن ينتحر فلن أمنعه من ذلك. لكني

أيضاً لا أريد أن أكون مسؤولاً عن هذا الأمر. لذلك عدتُ أدراجي، ورجعت إلى لشبونة.

دانييل، إنني أسحبُ ما قلته لك. أنت لستَ أنانياً فظيعاً. أنت أناني لعين.

حسناً، لنعد إلى اليوم الذي غادر فيه شافيير البيت. وصلتُ من جديد إلى الحي حوالي الساعة التاسعة والنصف. ركنتُ السيارة. اتصلت به على هاتفه الخلوي. أجابتني أمُّه. كانت في بيته. أخبَرها أحدهم أنّ الابن قد خرج فهرَعت إلى هناك. لم يظهر له أثر بعد. ولا أحد يعرف أين هو، بعد أن خرج من دون هاتفه. كانت تبكي. لم أسألها عن سبب البكاء. فقط قلت لها:

- هدّئي من روعك، سوف أجده.

حاولتُ أن أضع نفسي مكان شافيير، وأتخيّل ما يمكن أن يمرّ بخلده لو استيقظ يوماً على أفكاره السوداء. حاولتُ أن أشعر بقلبي يخفق عند أدنى إزعاج من حولي. تخيّلْتُني أعيش حبيساً لمدة اثنتي عشرة سنة في البيت، إمّا بسبب الخوف أو الغم، أو انعدام الاهتمام بكلّ بساطة. فنحن لا نعرف بالضبط، أليس كذلك؟ تخيّلْتُني أخرج إلى الشارع بعد كلّ ذلك الانزواء، والخوف، لأشعر بكلّ قوة العالم في عينيّ، وفي قلبي.

فتساءلتُ: **أين يمكن أن أذهب؟**

لكن، لم يكُن هذا هو السؤال الصائب، لأنّ السؤال الحقيقي هو: **أين يمكن أن أذهب لو كنت أرغب في الانتحار؟**

لم أضطر للتفكير طويلاً في الجواب، الذي تبادر إلى ذهني ما إن طرحتُ السؤال. خط سكة الحديد.

أَتذْكُرُ يا ألمودوفار؟ كلّ تلك العمليات الانتحارية عندما كنا شباباً. أنا أذكر ذلك. ولا تزعجني ليلاً. لكني أذْكرها. إن كنت أذْكرها، فإنّ شافيير لا بد أنه يَذْكرها بدوره.

شغَّلتُ السيارة مرة أخرى، وذهبتُ على وجه السرعة.

كيف أننا لم نفكر قط في ذلك؟ خط سكة الحديد. ونحن نحتفظ بالدرس في ركنٍ ما من لاوعينا. حالات ملموسة. وكلّ النظرية معروضة في الجرائد التي كنّا نشتريها. كنا نعرف أحسن الأماكن، وأنجعها. أتَذْكُرُ ذلك؟ كان ذلك لعباً وتزجية للوقت. كنا مراهقين وكان أولئك الأشخاص جدّ بعيدين عنا، كأنهم في فيلم من الأفلام. هل تظنّ أنّ شافيير كان ينظر إلى تلك الأخبار ويخطّط للقيام بالشيء نفسه؟ أعرف أنه لم يصبح على ما هو عليه، بأفكاره السوداء إلّا لاحقاً. في تلك الفترة، كان سعيداً.

بدأتُ البحث في محطة القطار. كان هناك حشد من الناس واقفين، كما لو أنهم يخشون أن تختفي الأرض من تحت أقدامهم. ترجّلتُ من السيارة ونظرت إلى خطوط السكة عبر القضبان. لم أرَ أيّ جثة. بعد ذلك انتبهتُ إلى أنه لو أن شخصاً ألقى بنفسه على السكة لحظةَ مرور القطار فإنّ كلّ الناس سيهرعون لمشاهدة ذلك، وسيرتفع الصياح، وسيطلب أحدهم سيارة الإسعاف.

صعدتُ إلى السيارة من جديد. سرتُ إلى جانب الخط السككي، أبحث عن سيارة إسعاف، عن أشخاص محتشدين. وكلما وجدتُ وسعة، ألقيت نظرة على السكة. ربما لم يرَ أحدهم شيئاً.

ربما حتى سائق القطار لم يشعر سوى بارتجاف خفيف لحظة اصطدام القاطرة بجسد شافيير.

حاولتُ أن أحسب كم جزء من العشرة يمكن أن يكون مؤشّر سعادة شافيير قد نزل بعد حديثنا. جزأين من العشرة؟ خمسة؟ نقطة كاملة؟ ربما لم أكن مهماً بكلّ هذا القدر. ربما لم يكُن لذلك أيّ علاقة بي. ربما فقط حان اليوم الذي يخرج فيه من البيت ليلقي بنفسه في السكة. آلَمَني هذا الاحتمال. مهما يكُن، فأنا أريد أن أكون مهماً بالنسبة إلى شافيير.

إنك مجرد. . .

أعرف ذلك. أنا أناني لعين. ولتذهب أنتَ إلى الجحيم، يا ألمودوفار.

سرتُ بالسيارة اثني عشر كيلومتراً إلى جانب السكة. لم أرَ شيئاً. أوقفتُ السيارة مرة أخرى. بحثتُ عمّا تلقيته من رسائل نصية في هاتفي الخلوي حول شافيير. بالإضافة إلى توغا، كانت هناك رسائل كابرال وروزاش الذين يؤكّدون أنهم رأوه قرب وسط المدينة، فعدتُ أدراجي.

في تلك الساعة من الصباح، كانت شوارع وسط المدينة هادئة. لو أنّ شافيير مرّ من هنا لكان من السهل رؤيته. قمتُ بعدة دورات في وسط المدينة، ومررتُ بالشوراع نفسها عدة مرات، في كلا الاتجاهين. في لحظة ما، ظهرت مجموعة من الأطفال في سنّ الخامسة عشرة، بعضهم في سن الثامنة أو العاشرة، ومرّوا مهرولين كأنهم يهربون من أحدٍ ما. أوقفتُ السيارة هنالك. نظرتُ لأرى ما

يجري. لم أرَ شيئاً. لم يتحرّك أحد وكان الشارع يبدو كأنه مجرد ديكور مسرحية. ثم اختفى الأطفال عند المنحدر الذي يؤدّي إلى موقف السيارات في المركز التجاري. هناك، صعدت من جديد إلى السيارة. انطلقتُ من جديد ثم توقفت على بُعد مئة متر.

اتصلتُ مرة أخرى ببيت شافيير. ردّت علي أمّه. لم تعُد تبكي. لكن ابنها لم يظهر بعد. قطعتُ المكالمة ودخلتُ إلى المركز التجاري. عبرتُ كلّ الرفوف. صعدت عبر السلالم المتحركة. نظرتُ داخل المحلات التجارية من وراء الواجهات. كان كلّ شيء يبدو عادياً، كلّ شيء في مكانه ومرتب أحسن ترتيب؛ وكل الوجوه وراء صناديق الأداء مبتسمة لا يعلوها أيّ كدر. ربما خرج شافيير من البيت بحثاً عن هذا الأمر بالضبط. ربما لا داعي للهلع. بحثتُ عن تصميم للمركز حتى لا أتيه في جنباته. لقد فتشتُ كلّ الأماكن باستثناء المراحيض. لكني لم أغادر المركز التجاري، يا ألمودوفار. عدتُ لأمرّ عبر الرفوف، وانتقلت من طابق إلى آخر، ودخلت إلى كلّ المراحيض، بما فيها مراحيض النساء. لم يكن شافيير في أي مكان.

عندما غادرتُ المركز التجاري، كان المطر ينزل والريحُ تهبّ من دون اتجاه فيظلّ المطر يدور في دوامة دون أن يلمس الأرض أبداً. جريتُ نحو السيارة. أشعلتُ المحرك لكني لم أنطلق في الحين. فكّرت لمدة دقيقة في كلّ الأماكن التي يمكن أن يكون شافيير قد ذهب إليها بعد اثنتي عشرة سنة من الانزواء في البيت. كلّ أماكن العالم بدَت لي ممكنة. فكرتُ في تلك البلدان الأربعة: بوركينا فاسو، بلغاريا، ساحل العاج، والكونغو. ربما تكون هذه الأماكن. ربما لن نراه مرة أخرى. قد يكون فقط بين أقرانه في مؤشّر

السعادة. وما علينا سوى أن نجد صيغة ما لنكون راضين عن مصيره.

نظرتُ إلى الساعة: 12:08. مرت ستّ ساعات منذ أن غادر المنزل. كان وقتاً كافياً لينتحر بعشرين طريقة مختلفة. كان وقتاً كافياً للقيام بأيّ شيء. فكرت أنه لو حدث شيء جسيم، لكنّا علمنا به، لأنّ الأخبار السيئة تنتشر بسرعة كبيرة، والكائن البشري لا يرتاح له بال ما لم يتقاسم مع الآخرين خبر مأساة من المآسي. لكن ذلك لم يكُن أمراً مؤكّداً. قد تمرّ عدة أيام، بل ربما عدة أسابيع، قبل أن يعثر أحدهم على الجثة ملقاة في بقعة أرض خالية. لو أنه ألقى بنفسه في النهر، فكرتُ، قد يجرفه التيار، ويرميه في المحيط، ثم سيطوف حول الكوكب عبر المحيطات قبل أن يستقرّ في شاطئ من الشواطئ، وقد تحلّلَت جثته لدرجة أصبح يستحيلُ معها التعرّف على الإنسان الذي كان يسكنها.

بعد ذلك، فُتح الباب الجانبي الأمامي لسيارتي، فدخل شافيير ثم أغلقَ الباب بقوة. هكذا، بكلّ برودة، من دون تكلّف، كما لو أننا قد اتفقنا مسبقاً أن نلتقي هناك في تلك الساعة. كان مبلّلاً ومرَّر يديْه على وجهه ثم على شعره. في الأخير، نظر إليّ وارتياحٌ عميق يعلو وجهه. كان واضحاً أنّ الساعات الأخيرة مرّت عصيبة عليه. لم يقُلْ شيئاً ثم استدار نحو الشارع، فمُه منقبض، عيناه مضطربتان، كأنه لا يصدق الواقع من حولنا.

- أين كنتَ يا شافيير؟ - سألتُه.

لم يُجِبْني.

- شافيير. . .

نظر إليّ مرة أخرى. ابتسم. وفي اللحظة نفسها نزلت بعض الدموع على خديه. قال.

- ما الذي تفعله هنا؟

- كنت منشغلاً بأمرك. الجميع قلقون بشأنك. خرجتَ دون أن تُخبر أحداً.

- نعم.

كان على وشك أن يقول شيئاً آخر، لكنه ظلّ صامتاً. نظر إلى يديه فوق ركبتيه، وأصابعه متشابكة كأنها تتصارع.

- هل كنتَ تنوي ارتكاب حماقة، يا شافيير؟

- ماذا؟

- هل فكّرتَ في ارتكاب حماقة؟

- أيّ حماقة، يا دانييل؟

لم أكُن أرغب في ذلك الحديث. لذلك خبطتُ بيدي على المقود وصحتُ في وجهه غاضباً:

- منذ ساعات وأنا أبحث عنك في كلّ مكان. تباً لك، يا شافيير!

ظلّ صامتاً لبضع ثوان، صدرُه يعلو وينزل. بعد ذلك، تحدّث بصوتٍ هادئ، وقال:

- ليس من السهل في شيء المكوث هنا داخل هذه السيارة وتحت هذا المطر. صياحُك لن يُساعد في إصلاح الأمور.

لا أصدِّق. كان ذلك الوغد يلعب دور الضحية. فجأة، فكرتُ في المكانس الكهربائية التي كنت أحملها في المقعد الخلفي للسيارة. كان بإمكاني أن أتركه في البيت وأواصل رحلتي إلى

كاسكايش. وقد أجد أيّ تبرير لعدم حضوري في الصباح. فالعالم كان يسير كعادته، وكلّ دقيقة تمرّ كانت دقيقة ضائعة.

- ما الذي تفعله هنا، يا شافيير؟

- هل ظننت أنني سأنتحر؟

توقف قلبي لمدة ثانيتيْن.

- لا تقل حماقات، يا شافيير.

- لقد ظننتَ أنّ السبب الوحيد الذي جعلني أخرجُ من البيت هو أن أجد قنطرة لأرمي نفسي من فوقها؟

قال ذلك ورسم نصف ابتسامة على وجهه. لاحِظْ، يا ألمودوفار، أنه لم يكن غاضباً، بل، على العكس من ذلك، استقام فمُه مرة أخرى ثم أردف:

- لا بأس. كنت سأظنّ الشيء نفسه. انظر إليّ. إنّ استمراري في التنفّس يُعتبر تحدّياً لنظرية الاحتمالات. يمكن أن أربح اليانصيب الأوروبي، وبدل ذلك ها أنا ذا لا أزال حياً.

ضحكتُ لذلك.

لكنه لم يضحك، اكتفى بأن أسنَدَ رقبته إلى الكرسي وأغمَض عينيه.

نظرتُ مرة أخرى أمامي. كان المطر لا يزال يهطل، لكن الشارع بكامله اختفى وراء الزجاج المغطّى بالبخار.

بقينا كذلك لوقت طويل. بعد ذلك، استدار نحو المقعد الخلفي، وسألني:

- ماذا هناك في العلب؟

- مكانس كهربائية. عليّ أن أبيعها.

أومأ بحركة من رأسه.

- هل تريد أن تعرف لماذا غادرتُ البيت؟ - سألني.

- لماذا؟

- إنني أبحث عن آفيلا.

- مَن يكون آفيلا هذا؟

- إنه فرناندو آفيلا.

- أستاذنا؟ أستاذ الرياضيات الذي درّسَنا في الصف السابع؟

- هو ذاك.

- ماذا حدث له؟

- اتّصل بي هذه الليلة. كانت الساعة تشير إلى حوالي الخامسة صباحاً. قال لي إن هناك مجموعة من المراهقين يلاحقونه، ويريدون أن يوسعوه ضرباً.

- واتّصلَ بكَ أنت؟

- نعم. نحن صديقان.

- فعلاً؟

- إنه يزورني بين الفينة والأخرى. نتحدث عن الرياضيات، ويعيرني كتباً في الفيزياء، وكلّ هذه الأمور.

- حسناً. منذ متى؟

- لست متأكداً. علم أنني لا أخرج إلى الشارع فقرَّر أن يزورني، ويرى إن كنت بحاجة إلى أيّ شيء. كان ذلك في السنة الثالثة أو الرابعة من انزوائي في البيت.

هل كنتَ على علم بذلك، يا ألمودوفار؟ كان آفيلا يزور شافيير. وكان ذلك مهماً، مهماً جداً لدرجة أنّ شافيير غادر البيت بسببه. كيف أنني لم أكن أعلم بذلك؟ هل كان يزوره أشخاص آخرون غيرنا ونحن لا نعلم بذلك؟

- هل ما زال يعطي دروساً؟ - سألتُه.

حرّك شافيير رأسه.

- قبل حوالي خمس سنوات طردوه من المدرسة. اتهمه والد أحد التلاميذ بالاعتداء جنسياً على ابنه، رغم أن المراهق لم يشرَح جيداً ما وقع. وانضمّ إلى الاحتجاج أولياء تلاميذ آخرين، وبعض المدرِّسين أيضاً، وتابعوه بتهمة التحرُّش بالأطفال. لم تمنحه المدرسة أبداً فرصة للدفاع عن نفسه. طلبوا منه أن يستقيل ويغادر المؤسسة. بعد ذلك، لم يتمكّن من الحصول على عمل في مؤسسة أخرى، لأنّ الإشاعة تعدَّت أسوار المدرسة. بدأ يشرب الكحول. ربما كان يشربها من قبل، لكنه أصبح يبالغ بعد ذلك الحادث. كان يقضي سحابة يومه بين الحانات. من حين لآخر، كان يستيقظ تحت مقعد في الحديقة أو عند أسفل أيّ تمثال من التماثيل. عندما نفد ماله، بدأ يتسوّل، فساعدتُه عدة مرات. أعرف أنه في السنة الأخيرة كان يتردّد على مراحيض الرجال، مقابل «خدمات» بعشرة أو عشرين يورو.

- عجباً! لم أكُن أعرف أنّ آفيلا كان مثليّاً.

- هل يزعجكَ هذا الأمر؟

- أظنّ أنه لا يزعجني. طبعاً، لا. لكن، هل كان يزورك؟

- تباً لك، يا دانييل! ليس ما تظن.

- حسناً. إنني أسألك فقط.

أمسكَتْ يدُ شافيير بقوة على مقبَض باب السيارة، كما لو أنها ستفتحه. لكنها ظلّت معلّقة في حركة ناقصة. لم يكُن يملك الشجاعة ليُغادر السيارة؛ فسألتُه:

- غادرْتَ البيت بعد اثنتي عشرة سنة فقط لتبحث عن آفيلا؟

- كانوا يريدون أن يُشبِعوه ضرباً. لم يكن له أحد، المسكين.
- كان بإمكانكَ أن تتّصل بي.
- اتصلتُ بك، لكنك لم تجِبْ.
- إنني عادة ما أكتم صوت الهاتف ليلاً. ولم يكن ذلك بسببكَ أنت...
- ...
- وماذا حصل؟
- ماذا؟
- هل وجدته؟ أين هو آفيلا الآن؟
- لا أعرف. بحثتُ عنه في كلّ مكان.
- مَن كان يريد أن يضربه؟
- مجموعة من المراهقين، من أولئك الحقراء الذي يكرهون المثليين، ولم يكونوا أبداً من تلامذته. على ما يبدو، حكايته تتردّد في ردهات المدرسة على كلّ لسان. الأطفال يلاحقونه في الشارع، يصيحون في وجهه، ينعتونه بالمثليّ العجوز ويبصقون عليه. في أغلب الأحيان، يكون مغرقاً في السُّكْر فلا يلتفت إليهم.
- مجموعة من المراهقين؟
- نعم. مراهقون.
حينئذٍ، تذكرتُ شيئاً، يا ألمودوفار.
- أنا أعرف أين هو.
أطلقَتْ يدُ شافيير مقبض باب السيارة.
- هل تعرف أين هو؟
شغلتُ السيارة. بدأت المَسّاحات ترقص أمامنا. ثم قمتُ بتغيير

اتجاه السيارة. لم يقل شافيير شيئاً، وحاول أن يفهم ما كنتُ أقوم به. عندما رآني أدخل إلى موقف سيارات تحت أرضي في المركز التجاري، قال:

- لقد كنتُ هنا. وكان الوقت لا يزال ليلاً. إنّ آفيلا ليس هنا.

بالكاد قلت مُتمتماً:

- أنا أظنّ أنه هنا.

تقدمتُ بالسيارة عبر الممرّات شبه المظلمة في الطابق الأول تحت الأرض. صفوفٌ من السيارات من هذه الجهة وتلك، تتخلّلها بعض الأماكن الفارغة، والهواء يعجّ بالصمت وهدير المحركات بين الفينة والأخرى. من حين إلى آخر، كان شخص ما يعبُر الموقف ويختفي في إحدى السيارات. كنتُ أقود على مهل حتى نتمكّن من مراقبة الفضاءات الفاصلة بين السيارات. تخيّلتُ ساقَيْ الأستاذ آفيلا وهما تخرجان من إحدى الشاحنات. توقفنا لحظة أمام المصاعد المؤدية إلى المركز التجاري. عندما خرج رجل، ضغط شافيير بقوة على ساعدي. راقبناه وهو يدفع ثمن رَكْن السيارة في الآلة ثم تابعناه بأعيننا، أكياس ثقيلة في يديه، ورأسه يدور بحثاً عن السيارة. بطريقة ما، كان شافيير يريد أن يعتقد بأنّ الحلّ يكمن في ذلك الرجل، هكذا نحلّ المشلكة ونخرج من هناك بسرعة. إلّا أنني رأيتُ أولئك الأطفال. فبقينا هناك.

نزلنا إلى الطابق الثاني تحت الأرض حيث كانت تقف سيارات قليلة. كان الإسمنت يمتص الضوء الأبيض المنبعث من المصابيح. لم يكُن أيّ شيء يتحرك، وكانت ثمة عدة أماكن يمكن للمراهقين أن يختبئوا فيها. تقدمتُ بين الدعامات من دون احترام الحدود المرسومة على الأرضية. وبتثاقل رسمتُ بحركة السيارة ما يشبه رقم

8 ثم بقينا هناك أمام المنحدر المؤدي إلى الطابق الأول تحت الأرض. حينئذٍ قال شافير:

- ما هذا الشيء، هناك؟

نظرتُ إلى المكان الذي كان ينظر إليه. هناك في الخلف، قرب الجدار، كانت هناك شاحنتان صغيرتان. كان كلّ شيء هادئاً. فركتُ عينيّ لأرى جيداً. لم يكُن يبدو أنّ هناك من أحدٍ داخل الشاحنتين. بعد ذلك، رأيتُ أنه فوق إحدى الشاحنتين كان هناك شخصان جنباً إلى جنب، ينظران نحو الجدار. من زاوية النظر حيث كنا، لم نكُن نرى رأسيْهما، ولا نلمح غير رجليهما يتحركان من حين لآخر.

غيرتُ السرعة وتحاشيتُ إحدى الدعامات. بعد ذلك، تابعت نحو الشاحنتين.

- أَطْفِئ الأضواء - قال شافير.

أطفأتُ الأضواء وقدتُ السيارة على مهل حتى أنه كاد أن يختنق المحرك وتتوقف السيارة.

- أتظنّ أنهم المراهقون؟ - سألني شافير.

- أظنّ ذلك.

عليك أن تفهم، يا ألمودوفار، أنني لم أكُن أعرف شيئاً، وكنت أتصرّف وفق ما يمليه عليّ حدسي. كان شيء ما، يشبه اندفاعاً آلياً، يحرّكني. كنت أحاول ألّا أفكر. لو فكرت، لعدتُ أدراجي وخرجت من هناك. مع كلّ ما أعيشه من مشاكل، لماذا سأصنع من نفسي بطلاً وأنقذ أستاذ الرياضيات الذي درستُ على يديه في القسم السابع؟

- ماذا يفعلون؟ - سألني شافير.

لم أجِبْه. غيّرت الاتجاه نحو يسار الموقف. أصبَحَ جسدا

الشخصيْن فوق الشاحنة الصغيرة كاملَيْن وطويلَيْن. لم يتوقفا عن التحرك. بعد ذلك سألني شافيير:

- ما الذي يحملانه في يديهما؟

كان على حقّ. كان الشخصان منحنيين ويمسكان بشيء ما في يديهما، شيء ما يصدر منه ضوء.

- إنهما يحملان هاتفين - أجبته.

- انظر إلى هذَين المراهقين - قال شافيير هامساً.

في فضاء فارغ من بضعة أمتار، بين الشاحنة الصغيرة والجدار، كان هناك أشخاص آخرون، خمسة أو ستة، ربما أكثر من ذلك، واقفين ينظرون إلى الجدار، كما لو أن هناك شاشة تلفاز. كانوا مراهقين، تترواح أعمارهم بين خمس عشرة وست عشرة سنة، يرتدون سترات وسراويل ضيقة، ينتعلون أحذية رياضية، ويحملون حقائب صغيرة فوق ظهورهم: كل ما يلزم. هل كنا مثلهم؟ لا أذكر. وعلاوة على ذلك، كانت وجوههم شبه مُقنّعة، ويغطون أنوفهم وأفواههم بمناديل.

كانت قدمي لا تزال تضغط بشكلٍ خفيف على دوّاسة السرعة دون أن ترتعش، والسيارة تتقدم بالوتيرة نفسها، وقد تقلّص صوت المحرّك إلى هدير خفيف. يبدو أنّ المراهقين لم ينتبهوا إلى أننا كنا نقترب منهم. كان ثمة شيء ما يلهيهم ويصرفهم عنا.

- إنني لا أرى آفيلا - قال شافيير متنهّداً.

بحسب ما أذكُر، كان ذلك آخر شيء قاله. بعد ذلك، صمت. ذلك أنه ظلّ هناك جالساً، ينظر إلى كلّ شيء، لكنه لم يعُد لينبس بكلمة أخرى. لم يتحرّك، ولم يكشف عن أيّ حركة ردّ فعل تجاه ما حدث. ما كان ينبغي له أن يكون هناك. تصوّر، يا ألمودوفار، أنك

بعد اثنتي عشرة سنة من الانزواء في البيت، تخرج إلى الشارع، وبعد ساعات قليلة، تجد نفسك في موقف سيارات تحت أرضي وأمامك جماعة من المراهقين لا يقومون بشيء جيد. تصوّر أننا كنا قريبَيْن جداً من المجموعة، على بُعد خمسة عشر متراً، ربما أقل من ذلك، حين لمحنا أحد المراهقين كان فوق الشاحنة الصغيرة وأطلق صيحة. التفتَ الآخرون، في حركة متزامنة تقريباً، كأنهم يؤدّون مشهداً. انفرج فضاء ضيق بين اثنين من المراهقين، فأصبح من الممكن رؤية ما كان خلفهما. كان آفيلا ممدّداً على الأرض، ومنكمشاً قرب الجدار، بقميص متّسخ، وشعرٍ لزج، من دون سروال ولا ملابس داخلية، وقربه مراهق، يدير لنا ظهره، يتبوّلُ عليه، يتجوّل بسائله المتدفق عبر أرجاء جسد أستاذنا، بينما المراهقون الآخرون ينظرون إلى السيارة، وينظرون إلينا كما لو كنا ثورَيْن هائجين.

مرّت الثواني. التفتُّ نحو شافيير. كان ينظرُ إلى المراهقين، لكنه لا يبدو خائفاً، بل هادئاً تماماً، كما لو أنه كان يعرف منذ مدة طويلة أن تلك اللحظة ستأتي. كنتُ أمسك المقود بيديّ، ورجلي على الدواسة، جسدي متوتر، ولكني عاجز عن أن أقرِّر ما أفعل في الحين. بعد ذلك، تقدّم أحد المراهقين خطوة إلى الأمام. كان يحمل في يده قنينة مشروب بارد. عبَّ جرعة من تحت المنديل الذي يغطي فمه ثم رمى بالقنينة في اتجاهنا، من دون قوة، كأنه فتاة، فرسمت القنينة قوساً قصيراً في الهواء قبل أن ترتطم بغطاء محرك السيارة محدِثة دوياً تردّد صداهُ في الإسمنت.

ضحك المراهقون.

ضغطتُ بقدمي على الدوّاسة دون أن أرفع القدم الأخرى عن القابض. قلتُ في نفسي: **كيف حدث هذا الأمر؟** كنت فقط أريد أن

أجد شافيير، وأتأكد من أنه لم يُلقِ بنفسه في سكة القطار ثم أتابع رحلتي نحو كاسكايش لأبيع المكانس الكهربائية.

- هيا، انهض وامشِ، أيها اللعين - صاح أحد المراهقين.

رفعتُ قدمي عن القابض، فتحرّكت السيارة، التي انطلقت بسرعة في اتجاههم. تردّدوا لمدة ثانية طويلة وظنوا أنه لن يحدث أيّ شيء. بعد ذلك، فجأة، أخذوا يركضون وهم يبتعدون عن مسار السيارة. لحظتها فقط، ضغطتُ بقوة على المكبح. لم تتوقف السيارة على الفور، بل انزلقت العجلات بضعة أمتار أخرى فوق الإسمنت. قفز أحد المراهقين فوق غطاء المحرك ثم سقط على الجانب قرب النافذة من جهة شافيير. ولم نتوقف بالفعل إلّا عندما اصطدمنا بخلفية الشاحنة الصغيرة.

رفعتُ عينيّ. كان المراهق الذي تبوّل على آفيلا واقفاً أمامنا، يحدِّق فينا. وظلّ آفيلا منكمشاً في مكانه، لا يتحرك، كما لو أنه ينتظرنا أن نغادر المكان ونذهب إلى حال سبيلنا لينام هادئاً. ألقيتُ نظرة على المرآة العاكسة. بدأ المراهقون ينهضون. بدأتُ السير نحو الخلف فتراجعت السيارة بسرعة، ثم أدرتُ المقود كي ألاحقهم. هرب المراهقون بعيداً. فرملْتُ وعُدتُ لأتقدم نحو الشاحنة الصغيرة.

- شافيير! شافيير! - صحتُ.

لم يحرّك شافيير ساكناً.

فتحتُ الباب وخرجتُ. الشاب الذي كان قرب آفيلا ابتعدَ بضع خطوات لكنه لم يبرح المكان. كان قصير القامة، ويبدو أنه لا يتجاوز اثنتي عشرة أو ثلاث عشرة سنة. كان يغطي وجهه بعَلم برتغالي، رأسهُ حليق وحَلَقةٌ غليظة مذهّبة تتدلى من أذنه، كأنه

قرصان. أغلق سحّاب سرواله دون أن يتوقف عن النظر إليّ. لم يتحرك حين دنوتُ من آفيلا، فقط أشعلَ سيجارة وظلَّ يرقبني. أمسكتُ آفيلا من تحت ذراعيه. كانت ملابسه مبللة، والدم في جبينه. زكمَت رائحةُ البول أنفي، وفي اللحظة الموالية، وصلَتْ إلى معدتي. أنْهضْتُه. أنَّ من الألم. التفتَ نحوي برأسه، فالتقت عيناه بعينيّ؛ ومع ذلك، لا أظن أنه قد رآني. سحبتُه حتى السيارة. سألني المراهق:

- أتريد مساعدة؟

نظرتُ إليه. كان يضحك وكتفاه تهتزان. أطلقتُ أحدَ ذراعَيْ آفيلا فخارَتْ ساقاه وسقط جاثياً على ركبتيه. فتحتُ الباب الخلفي للسيارة فرأيتُ العلب الثلاثة حيث المكانس الكهربائية. رفعتُ رأسي فوجدت شافيير ينظر إليّ وهو ينتظر مني أن أحلّ ذلك المشكل.

عليك أن تعرف، يا ألمودوفار، أنه لم يكن هناك حيّز في المقعد يتّسع للمكانس ولآفيلا معاً. كان عليّ أن أتخلى عن واحد منهما. وأراهن، على أنه من هناك، من داخل تلك الزنزانة المريحة، يبدو القرار بسيطاً. لأنّ هناك كلّ شيء يبدو بسيطاً. لا أشعر بالخجل وأنا أقول إنني فعلاً ترددتُ. أن أتخلى عن واحدة من تلك العلب يعني أنه يتعين عليّ أن أؤدي لشركة .W.R.U ثمن الآلة كاملاً، وهو مالٌ كثير لم يكُن في حوزتي. لكن المراهق كان هناك خلفنا، يكمل تدخين سيجارته في هدوء، ينتظرنا. أن أترك آفيلا وأذهب لطلب المساعدة قد يعادل الحكم عليه. كان بإمكاني أن أتصل بالشرطة، لكن المراهقين كانوا في الجهة الأخرى من موقف السيارات وبدأوا يقتربون، وأنا لا أستطيع مقاومتهم لوحدي لوقت طويل. صحتُ «**أنقذوني**» ست مرات تقريباً، بصوتٍ عال، وصوتي

يصدح بين الأرضية والسقف. بعد ذلك، دفعتُ إحدى العلب بقوة وتركتها تسقط خارج السيارة. ومكانَها وضعتُ آفيلا، وهو يئنُّ من تشنّجات الألم كلما تحرّك.

كنتُ ألتفُّ حول سيارتي عندما لاحظت أن أحدهم كان هناك قرب السقف. كان هناك مراهق فوق سطح الشاحنة الصغيرة، يحمل هاتفاً يصوّبه نحوي ويسجّل كلّ شيء. أما المراهق الآخر، فيبدو أنه قد اختفى. دخلتُ إلى السيارة. رجعتُ إلى الخلف، وبسرعة أدرتُ المقود حتى أصبحنا أمام باب الخروج. لحْظتَها رأيتُ المراهق الثاني، وهو لا يزال فوق الشاحنة الصغيرة، مستلقياً على بطنه ووجهه على الصفيحة. وحين رأيتُه، رفع رأسه لينظر. لم يكُن وجهه ملثّماً فكانت تلك اللحظة القصيرة كافية لأتعرّفه. وكان أول شيء خطر على ذهني هو: **عجباً! ما الذي يفعله هو هناك؟**

الذّنْبُ ذنبُك، يا ألمودوفار. أنت من ذهبْتَ وتركْتَنا. كان هناك عدة أشخاص بحاجة إليك عندما ذهبتَ وسطوتَ على محطّة وقود، كما لو أنك تنعم بامتيازات أكثر من بقيتنا نحن. لذلك، عليكَ أن تخبرني، ما الذي كان يفعله فاسكو فوق سطح تلك الشاحنة الصغيرة وهو يصوّر جماعة من المراهقين يتبوّلون على رجل سكران. ذهبْتَ وتركْتَ الابن وراءك. كان من الممكن ألّا يحدث أي شيء، ولكن شيئاً ما حدث.

استمر ذلك لمدة ثانيتين. لم تتوقف السيارة. لم أخرج لأتحدث مع ابنك. تخليتُ عنه كما تخليتُ عن المكنسة الكهربائية. لحظتها، لم يكن هو من أولوياتي. لن أطلب منك العفو لهذا السبب

لأنّ الذنب لم يكن ذنبي. أقلعتُ. عندما مررنا قرب المراهقين، ألقوا بحقائبهم الظهرية على السيارة، كأنهم يقصفونها بالقنابل. تهشّم زجاج النافذة من جهة شافيير، وفجأة، كما لو بقدرة ساحر، تحول الزجاج إلى حبات بَرَد ملأت حِجْره. صاح، رفع يديه، ولمعت أصابعه مع غبار الزجاج الذي كانت قطعه تقطر من ثيابه، ثم لفّ ذراعه حول وجهه. ثم أخذنا نصعد عبر درابزين الأدراج المؤدية إلى الطابق الأول تحت الأرض.

- هل أنت بخير؟ هل أصابك الزجاج بجرح؟ - صحتُ.

كان جامداً، ويداهُ فوق لوحة القيادة. لم أرَ دماً. لم يُجبني. ولم يتكلم إلّا عندما بلغنا باب الخروج.

- علينا أن نؤدّي ثمن الموقف - قال بنبرة تنمّ عن هدوء غريب.

ألمودوفار، كنّا نريد أن نخرج من هناك بسرعة لكنه كان هناك حاجز أحمر وأبيض يمنعنا من المرور. ومع ذلك فكرتُ: **أتقدّم، أكسر هذا الحاجز اللعين، نغادر ولا أحد يقبض علينا**. بَيد أنّ هذا لا يحدث سوى في الأفلام، لأنّ هذا النوع من الاندفاعات لا وجود له في الحياة الواقعية. عُدنا إلى الوراء بحثاً عن آلة للأداء. كان لديّ حدس بأنّ ذلك الإهمال قد يكلّفنا كثيراً، لأنّ المراهقين ربما يكونون منظّمين ومختبئين بين السيارات، يتربّصون خروجنا، وأننا لن نغادر ذلك المكان سالِمين.

وجدنا آلة أداء قرب أحد المصاعد، فهمس لي شافيير وهو لا يزال في الوضع نفسه:

- ليس معي فكّة.

- هل أنت جاد، يا شافيير؟

نظر إليّ، مرتبكاً. بعد ذلك، حرّك رأسه سنتيمتراً باتجاه المقعد الخلفي وقال بصوتٍ خفيض:

- علينا أن نأخذه في أقرب وقتٍ ممكن إلى المستشفى.

- تباً لك، يا شافيير! كفّ عن الكلام.

خرجتُ لأؤدي ثمن الموقف. لحْظتها، كان بإمكاني أن أبحث عن رجل أمن، وأطلب منه المساعدة، وأقدّم شكاية. لكننا كنّا نريد فقط مغادرة ذلك المكان.

عدتُ إلى السيارة. أصبحت رائحة البول لا تُطاق. بعد نصف دقيقة، كنا في الشارع. كفّ المطر عن الهطول. وصار العالم للتو أكثر تعقيداً.

تركنا آفيلا في المستشفى. ملأنا كلّ الوثائق، وأدلينا بأقوالنا للشرطة الذين جاؤوا ليتكفّلوا بالحادث، وقدمنا لهم عناويننا وأرقام هواتفنا، ووعدناهم بأن نتعاون معهم. لم أخبرهم أنّ ابنك كان من بين المراهقين، ولم أقُل لهم كذلك أنه كان هناك مراهقَيْن آخرَيْن يصوران كل شيء. كان شافيير متوتراً. نفضتُ عن معطفه وشعره الزجاج الذي تناثر كأنه قطرات مطر من الماس تقفز فوق الزفت عند باب المستشفى. دخّن علبة كاملة من السجائر في أقل من ساعة. حوالي الساعة الثالثة زوالاً، أغلق على نفسه في المرحاض وظلّ هناك حتى غادرنا. اتصلتُ بالفندق في كاسكايش، وشرحتُ لهم ما حصل، ففهمت المرأة التي تحدثتُ معها الأمر، ثم تكلّمنا لبضع دقائق، وفي الأخير قالت لي إنها سوف تتصل بي كي نتفق على موعد آخر لتقديم عرض البيع، لكن الأمر لن يكون ممكناً خلال ذلك الأسبوع. قمت بعملية حسابية: كراء خمس مكنسات كهربائية

+ المكنسة التي تركتها في موقف السيارات + زجاج السيارة = 900 يورو. وأنا لا أتوفر على 900 يورو.

أدخلوا آفيلا للعلاج في المستشفى. كان يعاني من إصابة في الرأس. عندما ذهبنا لنودّعه، كان مستيقظاً. سمعَنا نتحدّثُ، وحرك يده حركةً خفيفة ثم أطلق أصواتاً لا معنى لها، فأحسستُ أنه لم يعرف مَن نحن. كانوا قد نظّفوه، فأصبح من جديد أستاذنا الذي تلقينا على يديه دروساً في الرياضيات قبل عشرين سنة، ولم يكُن يبدو عجوزاً أيضاً. سأله شافيير عمّا حدث فاكتفى برمشة من عينيه دون أن يجيب.

عندما غادرنا المستشفى، قال شافيير:

- أريد أن أذهب إلى البيت.

كأنه طفل صغير.

- تبّاً لك يا شافيير! -قلتُ له- سوف نعود إلى موقف السيارات لنرى إن كانت المكنسة لا تزال هناك.

- أفضّل أن توصلني إلى البيت أولاً.

- وأنا أفضّل ألّا تكون جباناً رعديداً.

نظر إليّ وعلامةُ غضب تعلو محياه. كانت تهمتي له ظالمة، لأنه، في نهاية الأمر، خرج لوحده من البيت بحثاً عن آفيلا. لكني لم أصحّح ما قلتُ من إهانة في حقه.

عُدنا إلى المركز التجاري، وجلس شافيير في المقعد الخلفي حتى لا يبلّله المطر المتهاطل عبر نافذة الباب الأمامي. دخلنا إلى الموقف، وحين وجدنا شرطياً، شرحنا له ما حدث، وطلبنا منه أن يرافقنا إلى الطابق الثاني تحت الأرض. صعد الشرطي إلى السيارة. في تلك الساعة، كان طابقَيْ الموقف يعُجّان بالسيارات. كان يبدو

أنه ليس هو المكان نفسه فوجدنا صعوبة كبيرة في التعرّف على المكان الذي كنّا قد صادفنا فيه المراهقين قبل ساعات. بعد ذلك، أشار شافيير إلى مكانٍ معين، وقال:

- هنالك.

لم تعُد الشاحنات في مكانها.

ولم تكُن المكنسة في مكانها أيضاً.

لم يتبقَّ غير بِركة بَوْل قرب الجدار.

.7,1

قبرص، ألمانيا، مالطة، نيكاراغوا، المملكة المتحدة.

مكتبة
t.me/t_pdf

ألمودوفار، إنك لا تعرف هذا الأمر، لكني كنت أملك **خطة حياة**. كانت وثيقة مكتوبة، خطوة خطوة، على امتداد مئة وعشرين صفحة دوّنتُها في دفتر ذي غلاف أسود، كما لو أنها يوميات مستقبلي. من حين إلى آخر، كنتُ أرجع إليها لأقرأ مقطعاً لا أتذكره جيداً. ومن حين لآخر، أضيف نقطة، أو أغير أخرى، أو أمزق صفحة بكاملها. وخلافاً لكلّ اليوميات، لم تكن **الخطة** نهائية، لأنني لم أكن على قدر كبير من السذاجة لأتوقّع كلّ شيء. مثلاً، في الصفحة 12، في الجملة التي تقول «**لن يتعدى وزني 78 كيلو**» شطبتُ رقم 78 وعوّضته برقم 82. وفي الصفحة 37، تحت عنوان «**عندما سأتزوج**» وتحت فقرة طويلة وضعتُ خطاً أسود وأمام العنوان كتبتُ، بالقلم نفسه، «**ينبغي إعادة التفكير في هذا الأمر**». وتشكّل الصفحة 61 تتمة لمسألة تربية الطفلَيْن التي بدأتها في الصفحة 6، التي كُتبت قبل تسع سنوات. كما أنني مزّقت الصفحتَيْن 23 و24.

إنّ الصيغة الأولى **للخطة** قد وضعتُها بطريقة رصينة، ولم أضمّنها أي شطط، ولم أتوقّع أيّ شيء يفوق ما كنت أعتبره في

وسعي. أتذكَّرُ أنني كنت أكتب ذلك الدفتر، وأنا أقول في نفسي أكثر من مرّة: **هذا ممكن، لو قمت بكلّ شيء كما ينبغي. لو بقيت مركّزاً على كلّ نقطة من نقط الخطة**، سوف يتحقّق ذلك. وهذا ما قمتُ به لمدّة عقد من الزمن تقريباً: كافحتُ حتى تصبح تلك الكلمات حقيقةً. كنتُ أؤمن بالعمل، وبما يمكن أن تُدركه عضلاتي وأفكاري. وما أدخلتُه من تعديلات على **الخطة** كان بسبب ما طرأ عليّ شخصياً من تغيرات، لأنّ أفكاري وطموحاتي تغيّرت، أو، على الأقل، تأقلمَتْ مع ما عرفه العالم من تغيرات. كلّ ما أعرف أنّ **الخطة** لا تضمّ ولو سطراً واحداً حول المكانس الكهربائية، والأسفار الشهرية لأرى طفليّ أو أيام بها ساعات طِوال من الفراغ. والسؤال الذي يطرح نفسه هو: متى تَغيّر العالم لدرجة فقدتُ معها قدرتي على التأقلم ولم يعُد **للخطّة** أيّ معنى؟

فكّرتُ ملياً في هذا الأمر. وكانت الخلاصة الوحيدة أنني لم أكُن أستطيع التنبؤ بهذا الوضع. لم أكُن أستطيع أن أتصوّر أنّ وكالة الأسفار سوف تسرّحني من العمل بتلك الطريقة. بدأتُ العمل مبكراً، وأنا بالكاد في سنّ التاسعة عشرة، فتعلّمت بسرعة كلّ لوجيستيات الرحلات السياحية، وجغرافيات البلدان، والإجراءات الإدارية لكلّ وجهة. كنتُ قادراً على خلق مسار سياحي من ثماني ليالي مَبيت لأيّ شخص كان في أيّ مكان من الكرة الأرضية في أثناء حوار لا يتجاوز عشر دقائق. بعد خمس سنوات، نقلوني من قسم المبيعات ووضعوني في مكتب، فأصبحتُ مدير مشاريع، في مكتب خاص بي يطلّ على الشارع، وميزانية سنوية تبلغ حوالي مليون يورو عليّ أن أدبّرها. كنتُ أحظى بثقة المدير، وهو شاب يولي اهتماماً خاصّاً بالتكنولوجيات الحديثة من أجل مواجهة الإقبال

المتزايد على اقتناء الأسفار عبر الإنترنت. حتى أكثر صفحات **خُطّتي** تفاؤلاً حول مساري المهني لم تكُن تتوقع أنني سأحقق كلّ ذلك النجاح. قدمتُ أقصى ما في وسعي. كنت أملك مفاتيح المكتب، وكنت أوّل مَن يصل وآخر مَن يغادر: التفاني المطلق في العمل.

لكني لم أكُن محظوظاً. إنّ الإنترنت تسونامي يستحيل الوقوف في وجهه. وكلّ ما في وسعنا القيام به هو أن نركَب الموجة ونتركها لتحملنا، على أمل أن نصل يوماً إلى مكانٍ ما دون أن نغرق في الطريق. حدث كلّ شيء بسرعة كبيرة. في شهر أبريل من سنة 2010، سرّحوا أوّل الأشخاص. وبعد ثلاثة أشهر، أغلقوا وكالة مدينة بورتو. وتمّ تجميد الميزانية التي كنتُ أديرها لأجلٍ غير محدود، كما عُلّقت كلّ المشاريع التي كانت جاهزة لتنطلق في انتظار قرار من القرارات. ثم سرّحوا أشخاصاً آخرين. عند نهاية السنة، توصّلنا من المدير برسالة إلكترونية يخبرنا فيها بتقليص عامّ في الأجور، ويطلب منّا جميعاً مجهوداً إضافياً في فترة عصيبة، مجدِّداً فينا ثقته وهو يردّد عبارة: «**نحن فريق واحد**» ثلاث مرات في عشرة أسطر. في الشهر الموالي، لم نستلم أجورنا. وفي شهر مارس، أغلقَتْ وكالةُ لشبونة أبوابها.

كنتُ محظوظاً. بقيت حتى النهاية، وعاينتُ كلّ ما حدث. خلال الشهر الأخير، كنّا ثلاثة في فضاء كان يشتغل داخله أربعة عشر شخصاً قبل سنة. ذات ظهيرة، جاء المدير، ومن دون مقدمات، أخبرنا أنه ينبغي أن نمكث في بيوتنا في اليوم الموالي لأنّ الشركة أعلنت إفلاسها. لم يقدِّم لنا اعتذاراً، ولم يكن هو بدوره يفهم ما يجري. كانت يداه ترتعشان، وعيناه لا تستقران على أيّ شخص. جمعنا كلّ الأشياء في علبٍ من الكارتون. وأخبرنا أن

المحل سيفرغ في اليوم الموالي، لأنه يريد أن يعرضه للكراء في أقرب وقت ممكن. ووعدونا بتعويضات لم يؤدّوها لنا قط. وهناك أمام المحاكم قضية لم تحلّ بعد بخصوص هذا الموضوع.

لم أكن قلقاً. أذكر ذلك. لا تنسَ، يا ألمودوفار، أن مستقبلي كان مكتوباً في دفتر. قرأتُه عشرات المرات، ودرسته، وفكرتُ فيه ملياً، فاكتسبت الكلمات قوة داخل نفسي، وصارت شيئاً غريزياً، كما أصبحت ثقتي راسخة تجاه ما يقع. لم يكُن إغلاق الوكالة إلّا انتكاسة، وأنا تركت في **الخطة** فراغات خاصة بالانتكاسات. كنتُ واثقاً من أنني سوف أشتغل في وكالة أسفار أخرى، وأشغل منصباً مماثلاً، في أقلّ من شهر. قلت في نفسي: قد يكون هذا أمراً حسناً. لقد بقيت وقتاً طويلاً جداً في الشركة نفسها. كان عمري 37 سنة، ووظيفة جديدة يمكن أن تكون أمراً مهماً بالنسبة إلى مساري المهني. مشاريع جديدة، زملاء جدد، وآفاق جديدة. نظمتُ نفسي: أعدتُ كتابة سيرتي، وأرسلتها إلى عشرات وكالات الأسفار، ليس فقط في لشبونة، بل قدّمت ترشيحي لمناصب في بورتو، ومنطقة الغرب، ومدريد، وإشبيلية، وبروكسل. وكانت أيامي مليئة بالعمل كما في السابق: أكتب رسائل بريدية، أزور مواقع التشغيل، أملأ الاستمارات، وبيانات الترشح للعمل، أحضر لقاءات في وكالات التشغيل، أذهب إلى مقابلات، أصافح الناس، أبتسم، أقطّب شيئاً ما حاجبيّ كلما تحدثتُ، وأتلفظ الجمل بنبرة حازمة. كما لو أنّ البحث عن وظيفة عملٌ في حدّ ذاته تقريباً.

بيد أنه وقتئذٍ لم يعُد هناك من عمل متوفّر، يا ألمودوفار. خلال تلك السنة، تحدثت مرات كثيرة في الهاتف مع المدير السابق الذي كان يتصل بي من دون سبب حقيقي، فقط ليتحدث معي، ويحكي لي

عن الأسفار التي يقوم بها رفقة زوجته، وهي أسفار كانا قد أجّلاها طوال حياتهما، رغم أن عمله كان هو تنظيم الأسفار، ثم يضحك مقهقهاً وهو يقول، في الوقت ذاته، إنه لا يشعر بأدنى حنين إلى مكتبنا القديم الذي، بحسب قوله، ما زال لم يجد مَن يكتريه، فظلّ مهجوراً. كان عمره 53 سنة، وقد كان ذلك التقاعد الإجباري أحسن شيء حدث في حياته، كما كان يقول. وفي الأخير، يسألني إن كنت حصلت على عمل، وقبل أن ينهي المكالمة، يضيف:

- إذا سمعت عن وظيفة تناسبني، فلا تتردّد في الاتصال بي، من فضلك.

ألمودوفار، يجب أن تعلَم أنّ ما كان يقوله يعني عكس ذلك: لم يكن مديري السابق يرغب في أن يكون عاطلاً، وكان يعوّل عليّ لأساعده، بطريقة ما، كي يجد وظيفة.

كلّ هذا لأقول لك إن العالم لم يعد يتحرك بالنسبة لي. لم أكن قد بلغت الأربعين بعدُ وقدْ توقف عالمي عن الحركة. ولم يسبق لي أن كتبتُ شيئاً عن هذا الأمر في **خطتي**. لم أكُن لأتصور أنّ العالم سوف يتوقف. كما لم أكُن لأتصور أنّ مارتا سوف تذهب مع الطفلَيْن. ومع ذلك، لم أكن خائفاً. قضيتُ عدة ليال منكباً على ذلك الدفتر، أتساءل: **ما هو الأمر الذي لم يعمل بشكلٍ جيد؟ في أي موقع لم تكن الخيوط مشدودة بما يكفي؟** لم أجد أي شيء خاطئ. كانت **الخطة** جيدة. كانت حياة ممكنة. لكني حاولت أن أعيد كتابة كلّ شيء، وأكيّف تطلعاتي المستقبلية مع الحدود الجديدة للواقع. أعدتُ النظر في الخيارات:

أحذفُ الزواج؟

أحذفُ الأطفال؟

أقتني بيتاً من غرفتين بدل ثلاث غرف؟

بيت يبعدُ بساعتين عن مقرّ العمل بدل نصف ساعة؟

عمل كيف ما كانت طبيعته بدل عمل مضمون؟

حياة عادية بدل حياة حقيقية؟

لم أجِد صيغة أحسن من الصيغة الأولى. كان أيّ تصوّر آخر يبدو لي خاطئاً. لم أكُن أعرف كيف أعيش في هذا المستقبل. لأنه، لاحِظْ معي، كانت حياتي على سكّتها، ولم يكُن من الممكن أن أعود إلى الوراء. كلّ ما كان في وسعي القيام به هو أن أكافح.

خلال سنة كاملة، ثابرتُ على النهوض باكراً. كنت أجلس أمام الحاسوب وأبحث عن عمل، أيّ عمل. عندما حصلتُ على عمل في بيع المكانس الكهربائية، قدّمتُ أحسن ما عندي. كان ذلك يبدو لي مَخرجاً، وإمكانية في المستقبل. لكن، بعد أن غادر شافيير البيت وفقدتُ تلك المكنسة، أصبحتُ أدين بمالٍ كثير لشركة W.R.U. التي علقت عقدة عملي إلى أن أؤدّي لهم كلّ ما في ذمّتي. ولم أكُن أستطيع أن أؤدي لهم كلّ شيء. فبقيت من دون عمل مرة أخرى، هذا، طبعاً، مع العلم أنّ إطلاق كلمة «عمل» على بيع المكانس الكهربائية كانت شيئاً ساذجاً من جانبي.

حدث ذلك في شهر نوفمبر. عدتُ لأبحث من جديد عن عمل. لم أجد شيئاً يُذكر. قمتُ بعملية حسابية: من جهة، هناك ما تبقّى لديّ من مال في البنك، وقرض المنزل، والمصاريف الشهرية العادية؛ ومن جهة أخرى، إن لم يتغيّر أي شيء، في شهر فبراير، لن يكون لدي ما يكفي من المال لأسدّد أقساط قرض المنزل. فكرتُ في فرضية بيع الشقة، الواسعة أكثر من اللازم بالنسبة إلى رجل يعيش لوحده، واقتناء شقة أخرى أصغر منها. لكن ذلك ربما

يكون استسلاماً أمام وضعية قد تكون مؤقتة فقط، وأنه عاجلاً أم آجلاً سوف تعود مارتا مع الطفلَيْن ليشغلوا أماكنهم.

من جهة أخرى، تمددّ الزمن وصار طويلاً لا ينتهي، فلم أجد كيف أملأ ساعات وساعات من الفراغ ليتركني غارقاً في مستنقعِ من الملل. اختلط عليّ الليل بالنهار، ولم يعُد التمييز بينهما أمراً ذا أهمية. لم يعُد الأرق يزعجني، وكنت أنام لفترات تمتدّ من ساعتين إلى ثلاث ساعات، في ضوء النهار أو ظلام الليل. ربما يكون البطء نفسه الذي يخيّم على تلك الزنزانة التي تقبعُ فيها. أتصوّر أنك تعلّمتَ كيف تدمج هذا البطء في نظام حياتك. لكنني أنا لم أكُن أرغب في ذلك، أفهمت؟ لم أكُن مستعداً لأخفّف من سرعتي.

وفوق هذا كله، كان هناك ابنُك.

بعد ما حدث في ذلك اليوم في موقف السيارات لم أجد مناصاً من التفكير في ابنك. لم أصدّق أنه كان يستطيع القيام بذلك. كيف أصبح شخصاً من ذلك النوع؟ منذ متى لم يعُد ذلك الطفل الذي رأيتُه يكبر، يركب دراجة هوائية ويأتي معنا أيام الأحد صباحاً، فأحمله على كتفيّ عندما كنا نذهب لمتابعة مباريات كرة القدم؟ ما الذي حدث في ذهنه وفي حياته ليصل إلى ما وصل إليه؟ بعد ذلك، فكرتُ: **ربما ليس للأمر أهمية، فالمراهقون يرتكبون حماقات كلّ يوم ليجرّبوا حدود الممكن؛ نحن أيضاً كنّا نرتكب حماقات.** ذات مرة، في الساعة الثانية فجراً، في شاطئ سيسيمبرا، هَدَمنا كشكاً لبيع البوظة، ثم أخذنا خمس أو ست علب ملأنا بها ثلاثة مبردات كاملة وتناولنا المثلجات لعدة أسابيع.

أليس ذلك الأمر نفسه، يا ألمودوفار؟ صحيح أنه لم يتبوّل على

آفيلا، كما فعل المراهقون الآخرون، وهذه نقطة تُحسَب لصالحه، لكن ربما فقط لأنه لم يكُن يرغب في ذلك. أو ربما كان ينتظر دوره، وإن لم نظهر هناك أنا وشافيير، لربما فعل ذلك، في نهاية الأمر. لا يهم ذلك، المهم أنه كان هناك، هو ينتمي إلى تلك المجموعة، ولم يحرّك ساكناً ليمنع حدوث أي شيء، بل إنه عاين كلّ ما حدث والهاتف في يده يصوّر به كلّ ذلك. اللعنة! هذا ليس أمراً جيداً. هذا ما لا يُنتظرُ من كائن بشري جدير بهذا الاسم.

ذات ليلة، نمتُ لفترة لم تَزد عن عشر دقائق ورأيتُ حلماً كنّا فيه أنا وأنت داخل زنزانتك، نجلس معاً على الأرض، أرجلنا منكمشة، ورُكبنا تكاد تلمس ذقنَيْنا. كان الوقت يمضي بسرعة، أشهراً، ربما سنوات، ونحن بالكاد نتحدث عن النساء، والكرة، وشافيير، والذكريات، والحماقات. كان حلماً جميلاً: سنوات عديدة اختُزلت في دقيقة واحدة. حين استيقظتُ، قلت في نفسي: **سوف أتحدّث مع فاسكو**. وفور ذلك، قررت ألّا أتحدث معه، وألّا أقوم بذلك.

كان بإمكانك أن تتصل بكلارا.

ألمودوفار، لقد اتصلتُ بكلارا، لأنه ابنُها، بطبيعة الحال. وهو ابنُك أيضاً، لكنك مجرد رجل سافل قرّر أن ينسى كلّ ذلك.

طلبَتْ مني كلارا أن ألتقي بها في العيادة. تحدَّثنا في المقهى قرب قاعة الانتظار. ورغم بزّتها البيضاء، والشارة التي تحمل اسمها، لم تكُن كلارا تبدو ممرّضة. جالسةً هناك، قرب أولئك الناس وهم يتلوّون ألماً في صمت، كانت تبدو مريضة أخرى من بين

المرضى. تقطّب حاجبيها، كما لو أنّ ما تبذله من مجهود لتحتفظ بجسدها مستقيماً أصبح أمراً لا يُطاق. حين سألتُها إن كانت بخير، أجابتني:

- إنه التعب، لا غير.

ألمودوفار، المسألة أنه حين ألقِيَ عليك القبض، اضطرّ أهل زوجتك لمساعدتها لسدّ ما تركْتَه من فراغ في ميزانية الأسرة. وأمك أيضاً بعثت لها بمال لمدة ثلاثة أو أربعة أشهر لكنها توقفت عن ذلك عندما رفَعوا سومة كراء الشقة التي تسكن فيها. وتدبّرت كلارا أمورها المالية بهذا الشكل لمدّة سنة تقريباً، في تمرين معقّد، لكنه ممكن، من الموازنات المالية. إلى أن سقطت حماك في حوض الحمام وتعرّضت لكسرٍ ثُلاثي في رجلها. ظلّت عاجزة عن المشي لثلاثة أشهر، ورغم مدة طويلة من الترويض لم تسترجع قط عافيتها بشكلٍ تام. في البداية، تدبّر صهرك أموره كما استطاع للقيام بأشغال المطبخ، والبيت، وغسل الملابس، ومساعدة زوجته التي كانت تتعافى. لكنه، ذات يوم، انتبه إلى أنه هو أيضاً بحاجة إلى عناية واهتمام فاستأجر خادمة. لم يكُن ذلك نزوة، بل حاجة يمليها التقدّم في السن. على أي حال، بين مصاريف الترويض، والأدوية، وأَجْر الخادمة، توقفا عن مساعدة كلارا، التي لم تجد أمامها من حلٍّ سوى أن تعمل لساعات إضافية في العيادة.

يبدو هذا الشّرحُ غاية في البساطة، ويفيض منطقاً ومعنى. ومشكلة كهذه، بكلّ بساطتها، ينبغي أن تجد طريقها إلى الحلّ بكلّ سهولة. بَيْدَ أنّ الحل هو أنت. وأنت لست هنا.

ابتسمت كلارا، تجاوزت مستنقع التعب الذي يتخبّط فيه جسدُها وابتسمت. قالت لي إنها سعيدة لرؤيتي، وأنها اشتاقت إلى

الأصدقاء، وتحنّ بقوة إلى الضحك. سألتني عن أحوالي فأجبتُها بسلسلة من الأكاذيب، وعرضتُ عليها حياة كاملة من الكلمات كانت تتقافز نحو فمي من دون أيّ مجهود. وفجأة كنا نبدو مثل شخصين عاديين، مثل صديقين يلتقيان ليستأنفا الحديث ويتبادلا الأخبار. فانفزعتُ لقوة ذلك الوهم.

- رأيتُ فاسكو قبل أسبوعين - قلتُ لها.

طأطأت كلارا رأسها قليلاً، لكن الابتسامة لم تبرح وجهها.

- كان رفقة شبّان آخرين - أردفتُ - كانوا يقومون ببعض الحماقات.

- أية حماقات؟

- كان هناك شخص من دون مأوى... كانوا يضايقونه ويزعجونه. كانوا كثراً. والرجل أعزل.

- أية مضايقات؟

- نعم مضايقات. اسألي ابنك، يا كلارا.

تشنّج وجهها وتصلّبت ملامحها، ثم قالت:

- إنه شاب طيب - قالت بصوت شبه منطفئ.

- أعرف ذلك. لكن حتى الشباب الطيبون يقومون بحماقات من حين لآخر. تحدّثي معه.

- ليس من السهل الحديث مع فاسكو.

- لكنه سيستمع إليكِ. أنت أمه.

- صحيح، يا دانييل. هذا يكفي ليكون نوعاً من الجاذبية التي تشدّ كلماتي إلى قلبه، لكن هذه الليلة، بطريقة ما، لم تعُد تشتغل، وتوقّفت عن العمل منذ أن دخل ألمودوفار إلى السجن. لا أعرف ما أقول له. لقد اعتدنا أن نتصرف معه بطريقة معينة، فأصبحنا نثق

بحدسنا وغرائزنا؛ وبعد عشرين عاماً وجدنا أنفسنا معتادين على رؤيةٍ للعالم بَنَيْناها شيئاً فشيئاً. وفي يوم من الأيام، يتغيّر شيء ما فجأة فيصبح كلّ ما كنّا نحسن فعله، ونقوم به بكلّ سهولة، لحلّ أبسط المشاكل، شيئاً عقيماً. فكيف تغيَّر العالم بكلّ هذا الحجم؟

هي لم تقُلْ هذا.

وماذا تعرف أنت؟ أنت لم تكن هناك.

كلارا لا تعبِّر عن شكواها بصوتٍ مرتفع. وخطاب ذلك الشخص الذي لم تكن مآسي الحياة رحيمة به هو أنت.

كما تشاء، يا ألمودوفار. ظلّت كلارا صامتة، تنقر بأصابعها المائدة التي تفصلنا، عيناها مغمضتان، كما لو أنها ألصقتْهُما. قلتُ لها:

- أعرف أنها ليست مهمة سهلة. لكن، إن لم تقومي بذلك الآن، قد يفوت الأوان لاحقاً.

فتحت كلارا عينيها وأومأت موافقة بحركة من رأسها.

- إنكَ على حقّ - همست لي - سوف أتحدث معه.

ثم انشرحت عضلات فمها، وبالكاد ارتسمت ملامح ابتسامة على شفتيها.

بعد ذلك، نهضت. طبعت قبلة على وجهي وانصرفت، بذراعين مشبكين، وكتفين خائرَيْن. كنت موقناً أنها لن تتحدث أبداً مع فاسكو. كانت تعوزها القوة للقيام بذلك.

خلال أعياد الميلاد جاء ماتيوس وفلور ليقضيا أسبوعاً برفقتي. جلَبَتهما مارتا ومكثت معنا ليلة واحدة. تناولنا العشاء نحن الأربعة على المائدة، كما كنّا نفعل سابقاً، كما لو أنّ الأمر لا يتعلق بمناسبة خاصة، ولم يتقبّل أيّ واحد منّا أنه قد مرَّ عام كامل تقريباً. حكى ماتيوس بعض الأخبار ومنها انتقل للحديث عمّا كان يقع بيننا عندما كنا نتحدث عبر الإنترنت:

- أتذكُر يا أبي يوم لعبنا الداما مع شخص من أستراليا؟ وهل تذكر يوم لعبنا لعبة كتابة كلمات من دون صوائت؟

ثم انفجر ضاحكاً بضحكته العجيبة لطفلٍ في سنه التاسعة. بعد ذلك، ضحكنا معه كلما ران الصمت وشعرنا بالحرج، لأن أيّ فعل مشترك، وأيّ لحظة يمكن أن تكون بداية لشيء ما.

أنَمْنا الطفليْن، وكلّ حركاتي غير متزامنة قليلاً مع حركات مارتا. كانا سعيدَيْن لأنهما هناك، في ذينك السريرين، مرة أخرى. لم يعبّرا عن ذلك بالكلمات، بيد أنه كانت ثمة طمأنينة تفيض من عيونهما، وفي طريقة معانقتهما للملاءات. كان ذلك شيئاً محزناً للغاية، يا ألمودوفار. لا بدّ أنّ مارتا شعرت بالشيء نفسه، لأنه حين عدنا إلى الصالة وجلسنا فوق الأريكة، كان أول ما قالته:

- يمكنك أن تأتي معنا إلى فيانا دو كاشتيلو.

لقد قالت لي الشيء نفسه قبل ستة أشهر، يوم أدركت أنها لن تجد من عملٍ في لشبونة فقرّرت أن ترحل. فأجبتها بالشيء نفسه:

- لو تعقّدت الأمور أكثر من اللازم، ولم أعُد أؤمن بأيّ إمكانية للمستقبل هنا، سأذهب معكم.

ابتسمَتْ كما لو أن كلماتي كانت حلاً لكلّ شيء. ثم قالت:

- على الأقل، قُم بعرض هذه الشقة للبيع. ربما تجد مَن يشتريها. الظروف صعبة، لكن الحظ لم يختفِ تماماً من هذا العالم.

- لكن هذه الشقة بيتُنا.

- إنها مجرد منزل، يا دانييل، ليست رئتنا أو عيوننا.

بعد ذلك، انزلقت في الأريكة وتمدّدت فوقها، تضع قدميها فوق حجري. تلك الطريقة العملية جداً في حلّ مشاكل الحياة أضرمت ناراً في صدري. ومع ذلك، وافقتُ على القيام بما تقترحه.

ثم تحدّثنا عن أمور تافهة، ويديّ تمسكان بقدميها، ولم نعُد لنترك الحديث يأخذنا نحو أمور غارقة في الجدية. كنتُ بحاجة ذلك وأظنّ أنّ مارتا بدورها كانت في أمسّ الحاجة إليه. وحين ذهبنا لننام، في النهاية، بدا لي السريرُ لِلَحْظة مفرطاً في الكبر، كما لو أن جسَدَيْنا انكمشا. حضنتني بذراعيها، فعانقتُها. وبقينا هادئين. كان بإمكاننا أن نمارس الحب -لأننا لم نفعل ذلك منذ شهور وتلك كانت هي المناسبة المؤاتية- لكن ذلك، بطريقة ما، صار شيئاً مخيفاً أكثر من اللازم. نامت مارتا بسرعة، وبقيتُ مستيقظاً نصف ساعة تقريباً أُحملقُ في الظلام قبل أن يغلبني النوم.

في تلك الفترة، لم تعُد نوبات الأرق تزعجني، وتعلَّمتُ كيف أتحمّل التعب المستمر وبدأت أتعوّد على أن أعيش الليل كما لو كان نهاراً. لم أكُن أقبع في السرير في انتظار أن يعود النوم، كنتُ أشعل الأضواء، أشغل التلفاز، آكل، أستحمُّ، أقرأ الجريدة، أرتب البيت، وأحياناً أقوم بجولة خارج المنزل. وحين أشعر مرة أخرى بالنوم، أضطجع. كان لدي هذا الخيار أو أن أجنّ ممدّداً فوق السرير، هادئاً، أستشعر الساعات وهي تنشطرُ إلى ما لا نهاية.

نمتُ لبضع ساعات واستيقظت بُعيْد الثالثة فجراً. لم أتحرّك لوقت طويل، خشية أن أحدثَ ضجيجاً فأوقظ مارتا والطفلَيْن. لكن لم يكن ذلك هو السبب الوحيد. كنت أخجل ممّا يمكن أن يفكّروا فيه إن استيقظوا عند الساعة الرابعة صباحاً ووجدوني أحلق ذقني، أغسل الأواني، وأتناول بيضاً مقلياً. فالرجل الذي يعرفونه لا يقوم بمثل هذه الأمور، على الأقل في عزّ الفجر. وأنا كنت أريد أن أكون ذلك الرجل الذي يعرفون. لم يكُن ذلك الخوف جديداً، لكنه كان يشلّ حركاتي لأول مرة. بطريقة ما، كان ذلك الإحساس يلخّص كلّ شيء: أن أفقد القدرة على الحفاظ على الرجل الذي كنتُه قد يكون بمثابة أن أكون عاجزاً عن العدّ من واحد إلى عشرة أو ألّا أكون قادراً على التعرف على وجهَيْ طفلَيّ وسط حشد من الناس.

انسللتُ من السرير بهدوء، كما لو أنّ الأرضية تعجُ بالأفاعي النائمة. لم تتحرك مارتا، واستمرّت تتنفس بعمق. ذهبتُ إلى الصالة، وشغّلتُ التلفاز من دون صوت. انتقلت من قناة إلى أخرى حتى وجدت رسوماً متحركة. لم يكُن ساعتها من أطفال يشاهدون تلك الرسوم التي كانت تُعرض فقط لتسلية الكبار المستيقظين. بعد عشرين دقيقة، ظهرت مارتا. ظلّت واقفة لنصف دقيقة وهي تنظر إلى التلفاز، كأنها لا تفهم ما هي تلك الصور، كأنها لم ترَ في حياتها رسوماً متحركة. بعد ذلك، استلقَت على الأريكة بجانبي، ثم وضعت ظهرها بين الوسادات التي خرج ما بأحشائها، وبيديها فركت بقوة وجهها كأنها تحاول أن تخفي ذلك الوجه كي تُظهر وجهاً آخر تحته.

- ما الذي يحدث؟ ألا تنامين أنت أيضاً؟

- أرقٌ أصابني - قالت ولم تُضِف شيئاً آخر.

لكن ردّها شجعني. نظرتُ إليها في صمت وفكّرت لأول مرة منذ أن انفصلنا: كم أنا مشتاق إليها! لماذا رحلت؟

قبل ستة أشهر، قالت لي إنها ملّت من البقاء في البيت، وتشعر بالفراغ، كأنها تغرق في قمامة غير مرئية (استعملَتْ هذا التعبير)، تريد أن تربح مالاً، من جديد، تريد عملاً ووالدها كان لديه عمل يناسبها في فيانا دو كاشتيلو، ثم ختمت كلامها قائلة: «هنا، في هذه اللحظة، كأنني أختفي شيئاً فشيئاً». كانت تبالغ، لأنه حتى بعد أن صارت عاطلة كانت قوة وجودها عظيمة. لقد اعتدنا أن نعرف أيّ شخص بالمهنة التي يزاولها، وحين يفقد وظيفته، يصبح كأنه لم يكُن شخصاً. وهذا غير صحيح. فمارتا دائماً شخص كامل، والعمل ليس أكثر من حلية تزينها، كأنه دملج، طريقة لتزيين الشعر أو عادة من عادات الكلام. على أي حال، وافقتها الرأي، لكني منحتُها القوة أيضاً. ولم نتحدّث عن أنفسنا، عن زواجنا، لأنّ ذلك الانفصال القسري، تلك المسافة التي تفرّقنا كانت تُعقّد كل الأمور كلّ يوم وليلة. لأننا كنا نؤمن بأنفسنا، يا ألمودوفار. فقد كنّا معاً منذ أكثر من أربع عشرة سنة وما زلنا نحب بعضنا. فلماذا لا نؤمن بأنفسنا؟ ستة أشهر بعد ذلك، وأنا جالس إلى جانبها أشاهد رسوماً متحركة عند الساعة الرابعة فجراً، كان انفصالنا يبدو مغرقاً في العبثية ولم أكُن قادراً على تفسيره بحججٍ منطقية.

انكمشَتْ مارتا على نفسها في الأريكة ووضعَت رأسها على ساعدي. بقينا ننظر إلى التلفاز، والرسوم المتحركة تقذف أضواء وألواناً في أرجاء الصالة. من حين لآخر، كنا نضحك في الوقت نفسه. حاولت أن أتخيّل حياتها وما حدثَ لها منذ أن لم نعُد نعيش معاً، والأشخاص الذين التقت بهم وسبب كلّ ابتسامة ارتسمت على

محياها، وكلّ لحظة قلق في حياتها. كانت تبدو هي نفسها. ربما لم يحدث أيّ شيء في حياتها، ولم تجر أيّ حديث أثّر فيها. لا ضوء ولا عتمة. ربما توقّف قلبها عن الإحساس منذ شهور خَلَت. لكن هذا يبدو أمراً مستحيلاً. صحيح أننا كنا نتحدث في الهاتف كل يوم تقريباً، وهي تحكي لي أشياء عن حياتها في فيانا دو كاشتيلو. ولكن ما كانت تقوله كان يخلو من أيّ معنى، كما لو أنّ ما يحدث لها لم يكن شيئاً ذا أهمية حقاً.

ومن جانبي أيضاً، لم أحكِ لها أن شافيير غادر المنزل، ولم أحدّثها عمّا وقع في موقف السيارات، وعن قراري بترك المكنسة الكهربائية لآخذ آفيلا مكانها، وعن المال الذي صار في ذمّتي، وعن العمل الذي لم أعُد أزاوله. ولم تكُن تعلم أنّ الأمور أضحَت أكثر تعقيداً. لم تكُن تعلم أننا على وشك أن نفقد البيت. لم تكن تعرف التعديلات التي كنتُ أدخلها على **الخطة**. كان بإمكاني أن أحكي لها كلّ ذلك في تلك اللحظة؛ أطفئ التلفاز، أضع يدي في يدها وأبدأ بالحديث. هي قد تفهمني، قد تعانقني، معاً قد نتجاوز تلك الوضعية، ولربما قبّلتني، وبعد ذلك قد تقنعني بأن أذهب معها ومع الطفلَيْن إلى فيانا دو كاشتيلو. وربما قبلت ذلك، يا ألمودوفار. ربما. لذلك بقيت صامتاً.

استيقظتُ من جديد بعد الساعة السادسة صباحاً. كان التلفاز مطفأً، والصالة بدأت تخرج من الظلام، تلفُّها ظلال لا حجم لها، بالكاد يُسمعُ صوت المطر يهطل هناك في الخارج. لم تكُن مارتا في الأريكة. لم أعُد إلى السرير، بل بقيت هادئاً، بعينين مفتوحتين، حتى استيقظَ الطفلان. حوالي الساعة الثامنة والنصف، جاءت مارتا إلى المطبخ، بعد أن أخذت حماماً، وارتدت ملابس كأنّ الجو يَعِدُ

بيوم مشمس. كانت مبتسمة وميالة للحديث، لكن عينيها لا تتوقفان عند أيّ شيء أكثر من لحظة واحدة، كما لو أنها لا تريد أن تلتزم مع أي شيء في ذلك الفضاء. شربَتْ كوب قهوة بالحليب وخرجَت. عادَتْ بعد الغداء، وضعت الحقيبة في السيارة، عانقَت الطفلَيْن، أسنَدَت خدها إلى خدي، ظلت كذلك لبضع ثوان ثم انصرفت.

واستمرّ المطر ينزل بلا هوادة لما تبقى من الأسبوع. ولم يكن ذلك هو السبب الذي منعنا من الخروج إلى الشارع لمدة ستة أيام تقريباً. كان فلور وماتيوس مشتاقين للمنزل، بفضائه وما يحتويه من أثاث، حتى أنه كلما سألتُهما إن كانا يريدان أن يذهبا لأيّ مكان آخر كان يردّان عليّ من دون حماس. بدوري، كنت مشتاقاً لرؤيتهما في البيت، في فضائهما بالقرب مني، نعيش كلّ ما يجري يومياً من أحداث بشكلٍ طبيعي فأشعر بقشعريرة تسري في جسدي. والوقت اللعين ينقضي. الشيء اليقين أنّ الأسبوع سيصل إلى نهايته ولن يكون كلّ ذلك كافياً. كنت بحاجة إلى المزيد. حاولتُ أن أقترب منهما قدر ما استطعت. وهو ما لم يكُن أمراً هيناً، لأنهما تغيّرا كثيراً خلال السنة الأخيرة، ولم تكُن المكالمات الهاتفية والزيارات المنتظمة التي أقوم بها كافية لتجعلني أواكب تلك التحولات. هكذا اختفت العديد من نقط الالتقاء التي كانت تجمعنا من قبل.

كان ماتيوس يعيش داخل الإنترنت. كنتُ أظنّ أنّ الألعاب، والأخبار، والفيديوهات كانت ذريعة نقلّص بها المسافة بيننا لنلتقي معاً. لكن الأمر لم يكُن كذلك. كان مدمناً على الإنترنت. كان عالمه يتلخّص في أشخاص يسقطون من فوق دراجات هوائية، وكلاب يركبون أمواج البحر، وطيور غاضبة تحطّم أبراج الخنازير ومراهقين يضعون شراكاً لمراهقين آخرين وإغراءات أخرى بغيضة لا

يمكن لطفل لم يتجاوز التاسعة أن يقاومها. كنتُ أجلس إلى جانبه ونتحدّث دون أن نرفع عيوننا عن شاشة الحاسوب أمامنا، وكلّ أحاديثنا تدور حول ما يجري على الشاسة في تلك اللحظة، فينتفي الماضي والمستقبل من خطّ الزمن. كان شيئاً سهلاً للغاية، يا ألمودوفار. كان الضحك يأتي بطريقة طبيعية. وكانت إمكانية أن تتّخذ الحياة ذلك الشكل تبدو جدّ مرتفعة. كنتُ أرغب في أن أضحك مع ابني بتلك الطريقة إلى الأبد. لكن كلّ شيء كان خاطئاً.
ذات صباح، وضعتُ الحاسوب في الخزانة، وشرحت لماتيوس أنه لا يمكن أن يقضي كلّ أيامه على الإنترنت، وأن الحياة تستوجب منه مزيداً من الجهد. وقلت له:

- لو استمررتَ على هذا الحال ستضْمُر عضلاتُك وفي يوم من الأيام لن تكون قادراً على أن تجري أو تسبح أو حتى أن تمسك قنينة.

غضب ماتيوس، واتّهمني باختلاق حججٍ لا معنى لها في العالم الواقعي، ونعَتَني بالفاشستي. فسألته إنْ كان يعرف ما معنى «فاشستي»، فقال:

- فلور تعرف ذلك.

ثم انبرى يتمرّغ على الأرض ويصيح لوقت طويل، كما لو أنه في سن الثالثة. بعد ذلك، سكت فجأة ليستلقي على الأريكة وهو ينظر إلى الجدار. ظلّ كذلك لما تبقى من اليوم، ولم ينهض سوى ليتناول وجبة الغداء معنا على المائدة. لم ينبس ببنت شفة لمدّة ثماني أو تسع ساعات متتالية. آلمني غيابُ صوته. قبل العشاء، جاءت فلور لتتحدّث معي. فتحت الجريدة أمامي، وقالت:

- صحيح، إنه دائماً أمام الحاسوب، وهذا أمر مبالغ فيه.

لكن، هناك ما هو أسوأ من هذا، أسوأ بكثير من هذا. انظر، في جريدة هذا اليوم، تظهر كلمة «**حرب**» أربع عشرة مرة. وتظهر كلمة «**انكماش**» واحدةً وعشرين مرة. تظهر كلمة «**جريمة**» ثلاثين مرة وكلمة «**فقر**» إحدى عشرة مرة.

تصفحتُ الجريدة، فوجدت كلمات تحتها سطور في كلّ مكان. كان بإمكاني أن أجيبها إنه لو قضى الأطفال كلّ أوقاتهم على الإنترنت، فإنّ عدد المرات التي ستظهر فيها تلك الكلمات في الجرائد سيتضاعف ثلاثين مرة، أو حتى ألف مرة، في غضون عشرين عاماً. لكني اكتفيتُ بأن قلتُ:

- أنْتِ على حق.

ألمودوفار، أنا لم أكُن أرغب في قضاء بقية الأسبوع مع ابني وهو على تلك الحالة. لذلك، أعدتُ إليه الحاسوب. وبينما كنا نتناول العشاء، شاهدنا على الإنترنت سلسلة من الفيديوهات تعرض أحسن الأهداف التي سجِّلت في تاريخ كرة القدم. بعد ذلك، وفي انتظار أن يذهبا إلى النوم، لعبنا لعبةً هدفُها الوحيد هو مساعدة ضفدع على أن يأكل ذباباً. فعلَتْ قهقهاتُ ماتيوس فعلها وأعادت للبيت المعنى العميق لحياة عادية.

في أثناء ذلك المساء، تصفّحتُ جرائد الأيام الأخيرة. وفي كلّ صفحاتها، كانت هناك كلمات تحتها خط: **حادثة**، **هجوم**، **عطالة**، **فقراء**، **صراع**، **تضخم**، **موتى**... فيما يشبه تعداداً لكلّ ما ليس على ما يرام في هذا العالم. هذا ما دأبت فلور على القيام به في تلك الجرائد. كانت تمضي ساعات طوال في القراءة: جرائد، كُتُب في السياسة، والاقتصاد، والتاريخ، ومقالات على الإنترنت. لا أعرف أين عثرت على كلّ تلك الكتب. أنا ومارتا لا نقرأ أبداً، ولا

نشتري كُتُباً أبداً. كانت تستوعب كلّ تلك المعلومات وتتحدّث عن حالة العالم مثل محلِّل اقتصادي في نشرات الأخبار، مستعملة جُمَلاً بكاملها تتكرّر في صفحات الجرائد، كما لو أنّ كلّ وجودنا فوق هذا الكوكب يتّسع له حيّز من خمس عشرة أو عشرين كلمة. أحياناً، كنتُ أنسى بسهولة أنها لا تتجاوز ثلاث عشرة سنة. ومع ذلك، كان في صوتها نبرة تهكّم، مصطَنَعة لكنها واقعية، كما لو أنها لا تعرف الحاضر فحسب، بل المستقبل أيضاً. وفي ذهنها الصغير، كان المستقبل عبارة عن مستنقع ستتخبّط فيه البشرية دون أن تستطيع الخروج منه. كنتُ ألاحظ فمها وهي تتكلم، فيبدو أنّ ما كانت تقوله لا يتناسب مع حركات شفتيها.

فقمتُ بما بدا أحسن شيء يمكنني القيام به: بقيتُ جالساً حتى وقت متأخر إلى مائدة العشاء. كانت كلّ جرائد الأسبوع منشورة أمامي، فبحثتُ عن كلمات يمكنها أن تُلغي الكلمات التي وضعت فلور خطاً تحتها: **سِلْمٌ**، **نُموّ**، **احتفالات**، **اكتشاف**، **شفاء**، **فرح**، **سعادة**... ألمودوفار، هذه الكلمات كانت هناك، وجدتُها جميعاً ووضعتُ تحتها خطاً. بيدَ أنه، في نهاية المطاف، كانت كلمات فلور أكثر عدداً من كلماتي. الأمر لا يدلّ على أيّ شيء، طبعاً، لأنّ الصحافة لم تكُن قط مرآة العالم، والصحافيون يستعملون صفحات جرائدهم للحديث عن أشياء تهمهم، أنا أتفهّم ذلك. لكن كيف لي أن أشرح لابنتي ذات الثلاثة عشر ربيعاً ما وضعت تحته خط: صراع، صراع، صراع، سِلْم، صراع، صراع، صراع، صراع، صراع، سِلْم، صراع، صراع، صراع، سِلْم، صراع، صراع، صراع، صراع، سِلْم، صراع، صراع، صراع، صراع، صراع، سِلْم، صراع، صراع، صراع، صراع. فهل يعكس هذا الواقع؟

وكيف لك أن تعرف أنه لا يعكس الواقع؟

أعرف ذلك.

إنك لا تستطيع أن تعرف ذلك. عليك أن تقدّر كلّ ما يجري الآن من صراعات في العالم بأسره، وليس فقط ما يحدث من حروب أو تبادل لطلقات النار بين الشرطة واللصوص الذين يسطون على أجهزة الصرف الآلية. كما ينبغي لك أن تأخذ بعين الاعتبار ما يقَع من شِجار بين الأزواج، وعراك بين الأطفال في المدرسة، وما يغرسه الكبار من حقد في نفوس الصغار، وما يناله هؤلاء من ضرب على يد الكبار، وكلّ الملفات المعروضة على المحاكم في كلّ الدول، وكل الملفات التي لا تصل إلى المحاكم، وما يتولد من حقد كلما ازدحمت السيارات في الطريق، والمقاولات التي تسعى كلّ يوم إلى تقويض المنافسة، والمناوشات الحزبية التي غالباً ما تنتهي بشكلٍ سيئ، ومقابلات كرة القدم التي تنتهي بتشابك مشجّعي الطرفين، وما نخوضه من معارك مع أنفسنا، والمظاهرات ضد أولئك الذين يحكموننا... وبعد أخذ كلّ هذا في الحسبان، كما يقول صديقنا شافيير، عليك أن تبرهن على أنّ الرقم الذي حصلتَ عليها أقل من مجموع الأشياء الإيجابية في العالم. ربما تكون النتيجة هو ما تعتقد. وربما لن تكون كذلك.

تباً لك يا ألمودوفار! فقط كنتُ أريد أن أحمي فلور. كان عمر ابنتي ثلاث عشرة سنة، وقد بدأت تفقد الأمل في الحياة. لم أكُن أريد لها ذلك. لم أكُن أريد لها أن تكفّ عن الإيمان بأنّ العالم يمكن

أن يكون مكاناً جيداً فقط لأنني كنت عاطلاً عن العمل، فقط لأنني وأمها كنا منفصلين، فقط لأن الجرائد تعجّ بأكثر الكلمات سوداوية.

لا يهم. كان أسبوعاً رائعاً. أيّ أسبوع أقضيه مع طفليّ هو أسبوع رائع. في اليوم الأخير، ساعدتهما على إنجاز الواجبات المدرسية الخاصة بفترة العطلة. في البداية، كان الأمر صعباً، لأنهما لم يكونا مُركّزيْن، لكني تركتهما يشتغلان وفق إيقاعهما الخاص، وفجأة ران صمتٌ في الصالة، صمتٌ جيد، صمتٌ يُسمع عندما تكون أشياء بصدد الوقوع. بقينا كذلك لمدة ثلاث ساعات تقريباً. كان حديثنا يتكون من أرقام، وأفعال إنجليزية، وأسماء ملوك، وأعضاء الجهاز الهضمي عند الحيوانات المجترة. مَن يسمعنا لمدة دقيقة واحدة، لن يخرج بأيّ فكرة عمّا كنا نقول، رغم أن تفاهمنا المتبادل كان مطلقاً. كنتُ والدهما وهما ابْنَيّ.

عندما انصرفا، كان أوّل ما فكرتُ فيه هو: **إنهما أهم ممّا كنتُ أظن**. بعيداً عنهما، من الصعب أن يصل مؤشّر سعادتي إلى 8. أنصتُّ إلى الصمت في البيت. كان قلبي يخفق لوحده، فتخيّلت الأيام التي ستمضي قبل أن أراهما مرة أخرى، وصورتهما في ذهني أقلّ وأقلّ وضوحاً. فكرتُ في القوة التي يمارسها حضورهما في قلبي. فكَم هي قيمة ذلك؟ نقطتان؟ ثلاث نقاط؟ ربما. لكن، هذا يعني أنّ مؤشّر سعادتي قد ينزل إلى 6 أو حتى إلى 5. ولم يكن أيّ واحد من هذين المؤشّرين يبدو لي حقيقياً. عليك أن تُدرك، يا ألمودوفار، أنني لم أكُن أشكّ في سعادتي، بل كنتُ أشعر بها، لأنها كانت موجودة تماماً كما أنني موجود، مثل ذراعي أو مثل رائحة جلدي. فمجرد وجودي على قيد الحياة، في تلك اللحظة، كان يعادل نصف سعادتي. ولم تكن تلك ملاحظة جديدة، بل مبدأ

ظَلَّ يُرافقني منذ وقت طويل. هكذا قدّرتُ أن غياب الطفلَيْن يخصم 0,9 نقطة من مؤشّر سعادتي الذي انتقل من 8 إلى 7,1.

خلال الأسبوع الذي قضيته رفقة الطفلَيْن، كتب لي شافيير ثلاث أو أربع مرات رسائل نصية ورسائل إلكترونية يسألني فيها إن كنتُ قد وجدت حلاً لقضية المكنسة الكهربائية. لم أجِبْه. وعند بداية شهر يناير اتّصل بي. تلقيتُ مكالمته دون أن أنطق بكلمة واحدة، فقال لي:

- ما بكَ يا دانييل؟ هل أنت غاضب؟

عليك أن تفهم، يا ألمودوفار، أنّ ما يهم ليس ما كان يقوله، بل نبرة صوته، لأنه كان يتحدّث كما لو كان طفلاً وأنا والده. يعرف أنه فعَلَ شيئاً سيئاً، لكنه لا يريد توبيخاً.

- لتذهب إلى الجحيم، يا شافيير!

- لقد قمنا بعمل جيد.

- سوف أفقد بيتي، يا شافيير. وهذا لا يبدو لي عملاً جيداً.

- لقد أنقذنا حياة رجل.

- لا تُبالغ في الأمر. لقد كانوا هناك يتبوّلون عليه.

- لم يتبوّلوا عليه فحسب - قال شافيير هامساً.

بعد ذلك، ظلّ صامتاً لبضع ثوان. كان يريد مواصلة الحديث، لكنه لم يكُن يرغب في أن يُغضبني. وفي الأخير، قال:

- إنّ آفيلا بخير. زارني قبل يومين. كان يبدو على أحسن حال. ممشوط الشعر، حليق اللحية، نظيف الملبس. لم يكن سكران. طلب مني أن أقول لكَ إنه لو احتجْتَ أي مساعدة، أي شيء، فيسرّه أن يقوم بذلك تعويضاً عمّا قمتَ به.

- ألف يورو. أريد ألف يورو.

- أظن أنه لا يملك ألف يورو.

- إذاً، هو لا يستطيع أن يعوّضني عمّا قمتُ به.

ثم تلى ذلك صمتٌ آخر. الحديث مع شافيير عبر الهاتف دائماً ما يكون هكذا. فكرت: **سأعدُّ حتى خمسة ثم أقطع المكالمة.** بدأت العدّ. عندما بلغت خمسة لم يكُن قد قال أي شيء، فتابعتُ العدّ. تحدَّث من جديد حين بلغتُ ثمانية.

- دانييل، هل أنت هناك؟

- لا.

- كنت أفكّر في ذلك اليوم، هناك في الأسفل، في موقف السيارات، وفي أولئك المراهقين. كانوا يصوّرون كلّ شيء.

- شافيير، المراهقون، اليوم، يقومون بذلك، لأنه لديهم هواتف مجهّزة بكاميرات. لو كنا نملك هواتف بكاميرات عندما كنّا مراهقين، لفعلنا الشيء نفسه.

- نعم، أعرف ذلك. لكن المراهقين لا يكتفون بالتصوير. بعد ذلك يضعون الفيديوهات على الإنترنت، ليقدّموا للعالم دليلاً على وجودهم واستمرار حياتهم.

- وماذا أيضاً؟

- ماذا؟ . . . قمتُ ببحث في الإنترنت، خصوصاً في الصفحات التي يتقاسم فيها الزوار الفيديوهات. فوجدت الفيديو.

- فيديو ذلك اليوم؟

- نعم. ذلك الفيديو الذي يظهر فيه أولئك الأوغاد وهم يتبوّلون على آفيلا.

- هل أنتَ متأكّد من ذلك؟

- متأكد تماماً. لقد صوّروا كلّ شيء. صوروا المراهقين وآفيلا، وصورونا نحن أيضاً.

- ونحن أيضاً؟

- لقد وضعوا الفيديو على الإنترنت منذ يوم الثلاثاء. إلى حدود اليوم، تمّت مشاهدته أربعة آلاف مرة.

- ابعَثْ لي الرابط.

ثم قطعنا المكالمة. جلستُ أمام الحاسوب. استغرق بريد شافيير ثلاث دقائق ليظهر في صندوق المراسلات. كان الفيديو يحمل عنواناً: «**المثليّ الغارق في البول**». مُدّته عشر دقائق وأربعون ثانية. لو كُتب، لكان سيناريو الفيديو كالآتي:

0:00 – يجلس آفيلا على الأرض، هادئاً، وعيناه جاحظتان كما لو أنه يرى ما سيقع له بعد ذلك. ثمة خمسة مراهقين، بوجوه ملثمة، من حوله، يجرّدونه من سرواله.

0:27 – يتخبط آفيلا مندفعاً في كل الاتجاهات بقوة غريزته الدفاعية، كأنه سمكة تمّ اصطيادها للتو، لكنه سرعان ما يشعر بصعوبة في التنفس فتخارُ قواه.

0:42 – يظهر مراهق سادس في زاوية الكاميرا، يتقدّم خطوتين ويسدّد ضربة برجله إلى رأس آفيلا. يحمي آفيلا جسده المتجمّد فوق الإسمنت، وهو يلف رأسه بذراعيه. انتهى المراهقون من عملية تجريده من السروال. يلقي أحد المراهقين بحذاء آفيلا تجاه الكاميرا، فيُسمعُ ضجيج فوق غطاء محرك الشاحنة الصغيرة.

1:41 – يسحبون آفيلا حتى الجدار ويمدّدونه على ظهره فوق الأرض، وقد اتسخ قميصه، وتعرّت عورته وساقاه.

2:05 – يقوم أحد المراهقين بفتح سحّاب سرواله، ثم يستدير نحو الكاميرا، يرفع ذراعيه ويحرك جسده. تُسمع قهقهات الشخص الذي يصور، أو شخص قريب منه. المراهقُ يلتفت من جديد نحو آفيلا، ويظل هادئاً لمدة ثانيتين، وبعد ذلك يشرع في التبوّل، فتبلل نافورة بوله ساقَي آفيلا. ثم يتقدم المراهق قليلاً ليبلِّل بطن آفيلا، وهو يصوب السائل نحو الردفين.

(لا يُبدي آفيلا أيّ ردة فعل. يظل منبطحاً على بطنه فوق الأرض في انتظار أن تنتهي محنته. من حين لآخر، يرفع يده إلى رأسه ويفرك مكان الألم حيث تلقى ضربة.)

2:52 – يتوقف المراهق عن التبوّل. يُصفّق الآخرون. يتراجع المراهق إلى الوراء ويختفي من الصورة.

3:14 – يتقدم مراهق آخر. يفتح أزرار سرواله الذي يسقط حتى الكاحلين ثم يبدأ بالتبوّل. خرطوم بول يتدفق بقوة ويرتطم بمؤخرة آفيلا.

ألمودوفار، ذلك المراهق برأس حليق وقرطين سميكين في الأذنين لم يكُن هو الوحيد الذي تبوّل على أستاذنا لمادة الرياضيات. قبله، قام خمسة مراهقين بالأمر نفسه. وربما ما كان ليكون هو الأخير لو لم نضَع أنا وشافيير حدّاً للُعبتهم السادية. لذا سأتابع عرض السناريو:

7:29 – يُسمع صياحٌ. ترتعش الصورة وتفقد شيئاً من وضوحها. تجُول الكاميرا عبر المكان حتى تجد سيارة في الجهة الأخرى من الشاحنة الصغيرة، على بُعد بضعة أمتار من المراهقين.

7:52 – يلقي أحد المراهقين بقنينة فارغة على السيارة.

7:58 – يُسمع هدير محرك سيارة.

8:00 – يصيح أحد المراهقين: «انهض، وامشِ على رجليك أيها الوغد».

8:02 – تقلع السيارة باتجاه المراهقين. يتنحى المراهقون نحو كلا الجانبين، وهم يركضون كأنهم يلعبون.

8:05 – تصطدم سيارة أخرى بالشاحنة الصغيرة.

عليك أن تعرف، يا ألمودوفار، أنني أعرف المشهد جيداً، وأذكر كلّ لحظة كما لو أنني تدربتُ على كلّ حركة عدة مرات قبل الشروع في التصوير. لكنه لم يبدُ لي من الممكن أن يكون ذلك الشخص داخل السيارة الذي يلاحق المراهقين هو أنا. وفي النهاية، عندما أخرجُ أنا -أنا في الفيديو- من السيارة وأجدُني وجهاً لوجه أمام المراهق ذي الرأس الحليق (8:26)، عندما أقترب من آفيلا وأنحني لأُنْهضه (8:57)، خطر ببالي أنه ربما تكون نهاية الفيديو مختلفة عن نهاية ذلك الحدث كما جرى في الواقع. ذلك المراهق يستحقّ أن يتلقى درساً مفيداً، فكرتُ. على أيّ حال، آفيلا بخير، ويمكنه أن ينتظر دقيقتَيْن ريثما أُشبع ذلك المراهق ضرباً. وبقيتُ أنتظر أن يحدث ذلك. كانت الثواني تمرّ بسرعة، ومؤشّر الوقت في الفيديو يقترب من النهاية، عندما طرح المراهق هذا السؤال: «هل تريد مساعدة؟» (9:33)، وأنا أتمنى أن أراني أعودُ إلى الخلف وأنقضّ عليه.

لكن هذا لم يقَع. شعرتُ بقلقٍ عميق وخجلٍ كبير لأنني لم أقُم بأيّ شيء. كما لو أن آفيلا مات فعلاً ذلك اليوم.

10:32 – أُجلسُ آفيلا في المقعد الخلفي للسيارة حيث كانت من قبل علبة المكنسة الكهربائية.

10:38 – أنظر نحو الأعلى، باتجاه الكاميرا، لكن ليس بشكلٍ مباشر، لمدة ثانيتين.

10:45 – أصعد إلى السيارة.

10:46 – نهاية.

باستثناء العنوان، لم يكُن هناك من وصفٍ يصاحب الفيديو. كان اسم الشخص الذي وضع الفيديو على الإنترنت هو «**نينجادوريو**»، وكان هو الشريط الوحيد الذي يعرضه ذلك المُستعمِلُ. كان الفيديو متاحاً منذ أربعة أيام وتمّت مشاهدته 4302 مرة. فمَن كان يا تُرى أولئك الأشخاص؟ وكيف وصلهم الفيديو؟ أتصوّر أنّ بعضهم شاهدوا الفيديو أكثر من مرة. لماذا؟ وكيف يمكن أن يكون ذلك الفيديو أكثر أهمية من موقعنا؟

نقرت مرة أخرى على «PLAY»، فبدأ الفيديو من جديد. آفيلا على الأرض، والمراهقون من حوله يجرّدونه من سرواله. لكن هذا لم يعُد يهمني. ركزتُ اهتمامي على طريقة التصوير. كانت الصورة مستقرّة ولا ترتعش إلّا قليلاً، لأن اليد التي تمسك الهاتف كانت حازمة، تأطير الصورة يكاد لا يتغيّر، والمراهقون يدخلون ويخرجون من المشهد كأنهم فوق خشبة المسرح. ليس هناك من تقطيع في المَشاهد. حاولتُ أن أخمّن النقطة التي كان يوجد فيها بالضبط الهاتف المستعمَل في التصوير. في مكانٍ ما فوق الشاحنة الصغيرة، طبعاً. لكن، كان هناك هاتفان اثنان يصوّران كلّ شيء فوق الشاحنة الصغيرة. فأيّ واحد من الهاتفين صوَّر ذلك الشريط؟

ألمودوفار، لقد كنتُ أحاول أن أفهم إن كان ابنُك هو صاحب ذلك الشريط. يصعب تفسير ذلك: بطريقة ما كنت قادراً على أن أتقبل أنه هو مَن صور كلّ ذلك: فجأة، يشرع مجموعة من المراهقين في التبوّل على رجل وهذا لا يزعجه على الفور. المشهد مثير وشحنة الأدرينالين التي تصاحبه تعمي مؤقتاً قدرته على تقدير الأمور، فلا يميّز خيرها من شرّها. لكن صاحب ذلك الفيديو كان مفتخراً بما أنجزه. مرّت أسابيع، ولم يَعُد الأدرينالين يَشغل الحيز نفسه الذي كان يَشغله من قبل، ومع ذلك لم يكن صاحب الشريط قادراً على مقاومة الرغبة في عرضه على العالم. بدا لي الأمر جديراً بالإدانة. فكرتُ في فاسكو: تجاعيد شعره الأحمر فوق رأسه، قمصانه ذات الألوان الأحادية، من دون رسومات ولا كلمات، وتعابير وجهه المنفرج على الدوام، فقلتُ في نفسي إنه يمكن أن يصبح من أولئك الأشخاص الذين لا يحتاجون لكثير من الكلام كي يكسبوا أصدقاء. هل من الممكن أن يكون فخوراً بذلك الشريط الذي صوّره من فوق الشاحنة الصغيرة في موقف السيارات؟ لم أجد الشجاعة الكافية لأجيب عن هذا السؤال، فذهبتُ لأبحث عنه.

هل كنت تتوقع هذا، يا ألمودوفار؟ أنت هناك داخل زنزانتك، وأنا هنا من دون خطة، أجري طوال الوقت وراء ابنك آملاً أن أفهم إن كان قد فقَدَ عقله أم لا. إنك تعرفُ فاسكو؛ وحتى ذلك اليوم المشؤوم كنت أباً صالحاً، ودعامة أساسية في حياته. فهل كنت تتصور ما سيحدث؟ ألهذا السبب سطوتَ على محطة الوقود تلك، كي تكون بعيداً حين يأتي هذا اليوم؟ الحقيقة أنه ربما ما كان لهذا أن يحدث لو كنتَ هنا. وصَمْتُك يجعل منك دائماً مذنباً، مهما كان الحلّ.

قلتُ في نفسي: أتحدّث مع فاسكو، أطرح عليه بعض الأسئلة، وأستمع إلى أجوبته، أقول أي شيء، دون أن أبالغ في الأبويّة، دون أن أقدّم له دروساً أخلاقية، فقط لأتأكد أنه لن يعود لارتكاب ما فعله؛ وبعد ذلك، أهتم بشؤون حياتي، أجد عملاً، أؤدّي أقساط قرض الشقة، أسوي الأمور مع مارتا. كانت خطة جيدة فكتبتُها في دفتر ذي غلاف أسود، كما لو أنني أوقع عقداً مع ذاتي.

كانت فكرتي هي أن ألتقي به بالصدفة ثم أسأله عن ذلك اليوم في موقف السيارات، كما لو أنّ الموضوع مهم للغاية، لكن دون أن أثيره عن قصد. لذلك لم أذهب إلى بيتك ولم أنتظرهُ عند باب المدرسة. وبدل ذلك، ذهبتُ ذات يوم اثنين زوالاً وانتظرتُ نهاية الدروس، بعد أن صعدت إلى سيارتي وبدأت أقوم بجولات عبر الشوراع القريبة من محيط المدرسة. ذهبتُ إلى الأماكن التي يتردّد عليها المراهقون، وقاعات الألعاب، والمقهى الذي يبيع الهمبرغر والساندويشات في الشارع خلف المركز التجاري. ثم ذهبتُ إلى المركز التجاري، وإلى الحديقة قبالة المقبرة. كان هناك مراهقون يسيرون فرادى وآخرون يمشون في جماعات، يجلسون فوق الأسوار وعند الأدراج، واقفون لا يفعلون أيّ شيء، يستمتعون لأن العالم ليس بحاجة إليهم بعد. كما كان هناك مراهقون يمشون بسرعة، من دون حاجة إلى التفكير في الوجهة التي يقصدونها، وآخرون يضحكون بقهقهات خاصة تدرّبوا عليها مراراً، كما يحدث حين يتبوّل حيوان على شجرة ليحدّد منطقة نفوذه. وكان هناك مراهقون صامتون، بوجوه كالحة حتى ليبدو أنه لا وجود لأيّ كائن بشري وراء تلك النظرات. كان من الصعب تمييز السعداء من الآخرين، وطريقتهم في تحريك الأجساد لا تبدو أبداً طبيعية، كما لو أنهم

مُبَرْمجون. كنتُ أشعر أنني بعيدٌ عنهم. كنتُ قادراً على تذكُّر ذاتي وأنا في سنّهم، خمس عشرة، ست عشرة سنة، لكني لن أستطيع العودة لأكون مثلهم لو رغبتُ في ذلك. في لحظة ما، خلال الخمس عشرة سنة الأخيرة، فقدتُ نهائياً ذلك الجزء من ذاتي. ألم يحدث لك الأمر نفسه، يا ألمودوفار؟ لديّ شعور بأنه لو كان هناك شخص يمكن أن يعود إلى سن الخامسة عشرة فهو أنت.

لكن، لنتقدم قليلاً. كنتُ مقتنعاً أنني سأجد فاسكو في أقلّ من نصف ساعة. لكن ذلك لم يحصل. حوالي الساعة السادسة والنصف مساء، أوقفتُ السيارة أمام قاعة الألعاب. لم أكن أرغب في تبذير الوقود بتلك الطريقة. بقيت أراقب باب قاعة الألعاب مثل مفتش من مفتشي الأفلام البوليسية. كان المراهقون يدخلون ويخرجون. من حين لآخر، كانت جماعة من خمسة أو ستة مراهقين يقفون في الشارع، تحت ضوء مصباح كهربائي عند الباب، ليدخنوا أو يشربوا جعة يشترونها من السوق الصغير في الجهة الأخرى من الشارع. كلهم يحملون حقائب ظهر صغيرة على أكتافهم، ويضعون سماعات في آذانهم، وبعضهم في أذن واحدة فقط، كلهم يسمعون الموسيقى، وإن كان كلّ واحد يسمع موسيقاه الخاصة به. كانت الساعة قد تجاوزت السابعة مساء بقليل، لكن السماء كانت مظلمة كما لو أنها تشير إلى الثانية صباحاً. الجو بارد والمحرار يُشير إلى أربع درجات مئوية. لم يكن المراهقون في الشارع يعبأون بالساعة ولا بدرجة الحرارة. كانوا هناك وكفى. داخل السيارة، ظلّ الجو دافئاً لمدّة ساعة وبعد ذلك، فجأة، صار متجمداً، فلفّ البرد أنفي، وأخذَت تؤلمني مفاصل أصابعي. وحتى الساعة الثامنة مساء لم يظهر بعد. شغلتُ السيارة من جديد، وعدتُ إلى البيت.

في اليوم الموالي، خرجتُ عند الساعة نفسها. قدتُ السيارة لمدة أربعين دقيقة وبعد ذلك توقفتُ قرب إحدى الحدائق. ورغم الجو البارد، كان هناك مراهقون يجلسون على المقاعد في جماعات، يتحدثون أو يضحكون، ينقرون هواتفهم الخلوية، والبخار الرمادي المنبعث من أنفاسهم، كثيفاً ومعتماً، يتصاعد كما لو أنّ رئاتهم تحترق. كان هناك ثلاثة شبان يركبون زلّاجات ويقومون بحركات فوق أحد الجدران. كان واحد منهم، وهو أقصرهم قامة، يستطيع أن يتخذ من تلك الرياضة مهنة ويصبح من المشاهير، لو أن البرتغال كان بلداً يهتم بمثل هذه الأنشطة، بينما كان الآخران يضيّعان وقتهما في هذه الرياضة التي أساءا اختيارها. مرّ عدة أزواج من المراهقين المغرمين، يشبكون أياديهم، ويسيرون بخطوات متزامنة، بعضهم يتبادلون القبل دون أن يتوقفوا عن المشي، وهو تسرُّع لا يُفسّرهُ إلّا سنُّ هؤلاء الشباب. لا يبدو أنّ أيّ أحد من أولئك المراهقين يستطيع أن يتبوّل على رجل إن أتيحت له فرصة القيام بذلك، كانوا فقط مراهقين يقومون بممارسات تليق بسنّهم. وبعد ساعة تقريباً، اقتربت فتاة من السيارة. ثم انحنت نحوي وأخذت تقوم بحركات كي أفتح زجاج النافذة. كانت ترتدي معطف جينز ذا ياقة من فرو وقفازين يدويين. تضع حلقاً في حاجبها الأيسر وتزين عينيها بمُجمّل رموش أسود. تبدو في العشرين من عمرها، ومن الممكن أنها لا تتجاوز الخمس عشرة سنة. كان وجهها جميلاً، ومع تقدّمها في السن ربما تصير أجمل، وربما تصبح واحدة من أولئك النساء اللواتي يمررن من حولنا في الشارع فيزرعُ جمالهن الرعب في نفوسنا نظراً لما يمارسنه في محيطهن من سلطة وجاذبية. تكلّمَتْ بنبرة لم تكن حقيقية، بل زائفة فقط.

- هل معك حشيش؟

ألمودوفار، لقد كان أوّل ما فكرتُ فيه أن أقول نعم. أذهبُ إلى بيت شافيير، أشتري منه بعض الغرامات، أوزّع ذلك في عشرة أو خمسة عشر من الأكياس الصغيرة، ثم أعود وأُزوّدُ كلّ أولئك المراهقين في الحديقة، وبذلك أربح مداخيل أسبوع كامل من العمل في أقلّ من ساعة. تباً لك يا ألمودوفار! يمكن أن أكسب عيشي بهذه الطريقة. وأنت تعرف جودة حشيش شافيير. لن يقبَل المراهقون بتدخين أيّ شيء آخر غيره، ويصبحون زبناء لي مدى الحياة. كم كان ذلك سهلاً. إلّا أنّ الأمور لم تكُن قد تعقدت كثيراً بالنسبة لي حتى أفكّر في حلٍّ كهذا.

- آسف، ليس معي - أجبتُها.

ابتسمت الفتاة. كانت ابتسامتها قبيحة، على الأقل لم تكن في مستوى جمال وجهها.

- إنك جالس هنا منذ أكثر من ساعة وأنت تراقبنا - قالت. ثم أردفت:

- إن لم يكن لديكَ ما تبيعنا إياه، فأنتَ إما شرطي وإما شخص مريض يستلذّ بمشاهدة مجموعة من المراهقين.

من الواضح من هدوئها أنني لم أشكّل أي تهديد بالنسبة إليها، كأنّ وجود شخص غريب يراقب بعض المراهقين هو أمرٌ عادي وغير مخيف. هل أدركت هذا، يا ألمودوفار؟ هذه الإمكانية لم تكن تزعجها، لم تكُن تشغل بالها. كيف يكون هذا ممكناً؟ في أيّ واقع تعيش حتى لا يكون الخوف من هذا التهديد الحاضر شيئاً منغرساً في نفسها؟ فكرتُ في فلور، بالطبع، فقلتُ في نفسي: **ابنتي أكثر ذكاء من هذه الفتاة، وتعرف أشياء أخرى غير هذه.**

كنتُ أريد أن أشرح لها، لكني لم أعرف من أين أبدأ. رغم أنّ الأمر قد يكون سهلاً تماماً: نصف دزينة من الجُمل، كلمات مختارة بعناية، وتضحك المراهقة من سوء الفهم الذي حصل، فأضحك بدوري، أشكرها على اهتمامها وأقول لها إنّ العالم اليوم لا يسمح بالسهو، ونحن نسمع حكايات كلّ يوم كما أنّ المواجهة ليست هي أحسن الحلول. بعد ذلك، أقدّم لها سيجارة أشعلها ونصبح صديقين، أُحدّثُها عن فلور وعن ماتيوس، ربما أُحدّثُها عن مارتا، وعنكَ أيضاً. أقول لها: كان لديّ صديقان، واحد منهما انزوى في بيته منذ أكثر من اثنتي عشرة سنة، وخرج مرة واحدة ليُنقذ أستاذنا لمادة الرياضيات؛ أمّا الآخر فيقبع في السجن، لأن الحياة نصبت له فخاً سقط فيه؛ لم يتحمّل الضغط، وهذا قد يحدث لأيّ شخص، لذا عليكِ أن تكوني مستعدة، لأنه قد يحدث لك أيضاً. بعد ذلك، أحكي لها ما وقع في موقف السيارات، وأحدّثها عن فاسكو، وأطلب منها أن تساعدني في العثور عليه، لنصبح معاً زوجيْن من المُحقّقين، أنا أقود العمليات، وهي تشتغل عميلةً سرية، تصغي إلى كلامي بقناعة مَن يعرف أنّ الحياة لا تكون ممكنة إلّا إذا استمعنا لما يقوله مَن هم أكبر سنّاً منّا. ربما كانت حكاية جميلة. إلّا أنني لم أكُن أرغب في قول أيّ شيء، كنت أشعر بالخجل. ليس لأنها تظنّ أنني شخص مريض، بل خوفاً من أن تدرك للفور، من خلال فترات صمتي ونبرة كلامي، أنني عاطل، مهمّش أستغل النظام دون أن أقوم بأيّ شيء مقابل ذلك. أعرف، يا ألمودوفار، أنها طفلة مراهقة فقط، لكن لو كان هناك من أحد يفهم معنى الخجل فهو أنت. لذلك أقول لك، اللعنة عليك يا ابن العاهرة.

- لم أكُن أقوم بأيّ شيء - قلتُ متلعثماً.

- أظن أنك كنت تفعل شيئاً ما. لكن لا بأس.
- إنني أبحث عن شخص ما.
- مَن يكون؟
- لا يهم.
- ماذا حدث لزجاج هذه النافذة؟
- تكسّر.
- ينبغي أن تغيّره.
- وأنت ينبغي لكِ أن تعودي قرب أصدقائك.
- هل أنتَ واثق أنه ليس معك حشيش؟
- بكلّ تأكيد.
- هل تريد أن تشتري الحشيش؟
- هل تعرفين شخصاً يبيعه؟ - سألتُها، وأنا أضحك.
ضحكَت بدورها، وأجابتني:
- طبعاً، أنا.
- أنتِ؟
- أخي يزور المغرب كلّ شهرين. وما يعود به من حشيش يجعلك تنتشي كأنك بوم يحلّق في السماء.

أخرجَتْ يدها من جيبها وسحبَت كيساً صغيراً معلّقاً بين أصابعها. لم يكُن البلاستيك الأبيض غير الشفاف يسمح برؤية ما بداخله، لكن رائحته اخترقت الجو البارد داخل السيارة كما لو أنّ الحشيش كان ينمو في المقاعد الخلفية للسيارة.

- سنقوم بهذا الأمر - قالت - خذْ هذا، هدية مني، وغداً حين تخرج لتسترق النظر إلى المراهقين، دخّنْ هذه القذارة. سترى أن مذاقها أحسن.

بعد ذلك، ألقَت حقيبتها فوق حجري ثم دسّت يدها في الحقيبة.

- أنا لا أريد منكِ حشيشاً.

- طبعاً، أنت تريد حشيشاً - قالت كما لو أنها أمي، كما لو أنها تعرف أحسن من أي شخص آخر أعمق حاجياتي. ثم أردفت:

- إنني هنا كلّ يوم في مثل هذا التوقيت. يمكنكَ أن تأتي متى شئت.

ودون أن تُخرج يديها من جيبَيْها، انفتح المعطف، كما لو أنها تملك جناحين. بعد ذلك، انصرفت إلى حال سبيلها، بتثاقلٍ، تجرجر حذاءها الرياضي فوق الأرضية المبللة، ورأسها يميل قليلاً نحو الخلف حتى يلمس المطر وجهها. كانت تبدو كأنها شخص متعَبٌ بعد يوم من العمل، شخصٌ لا يفكر سوى في أن يذهب إلى بيته، يتناول العشاء، يشاهد المسلسل، يضطجع باكراً، وينام دون أن يحلم. كانت تبدو كأنها شخصٌ يفوقها سناً ثلاث مرات.

ألمودوفار، هناك دائماً مَن يعتبر نفسه أكثر ذكاء من بقية الناس. ونحن نحاول جميعاً أن نتدبّر أمورنا بقدر ما نستطيع. لكننا نصادف عراقيل تقف في طريقنا، ونواجه مشاكل تبرز هنا وهنالك كأنها حجارة أو فواكه نتنة، معظمنا لا يستطيع أن يتوقف حتى ليأخذ نفساً ويستريح، ويفكّر في الحلول. والوقت ليس سوى مشكلة أخرى نواجهها، فلا نجد مناصاً من أن نستمر دائماً، نقطع الطريق أمامنا بأحسن طريقة نعرفها آملين أن نجد في النهاية ما يشبه الجزاء، آملين على الأقل أن تكون هناك نهاية، على الأقل أن تكون هناك نهاية قبل النهاية. لكن هناك دائماً مَن يحيد عن الطريق، ويبحث لنفسه عن طريق مختصر. ألمودوفار، إنك لا تتصوّر كم كانت رغبتي شديدة

في أن أترجّل من السيارة، أقتفي خطوات تلك الفتاة، أمسكها من ذراعها، أرجّها رجاً، أوجِّه لها صفعتَيْن قويّتين، ثم أنصرف لحالي، دون أن أنبس بكلمة.

وفيما قد يفيدك ذلك؟

طبعاً، كان سيفيدني، يا ألمودوفار. كنت سأشعر بإحساسٍ أفضل، لا محالة. حياتي لن تصير أقل تعقيداً، لكن شعوري قد يتحسّن. ثم إنه لا بد أن ينال هؤلاء الأشخاص نوعاً من العقاب، أي شيء، لا يهم، لأنّ المسألة تتعلق بتوازن في نظام هذا العالم. لا يهم، لأنّ ضرب تلك المراهقة ذات الخمسة عشر ربيعاً، في تلك اللحظة، كان سيكون، قبل كلّ شيء، وسيلة تُريح فكري. لكني لم أضربها. شغّلتُ السيارة وعدتُ إلى البيت.

خرجتُ مرة أخرى في ظهيرة اليوم الموالي، ثم في ظهيرة اليوم الذي يليه، وفي اليوم الذي تلاه. بحثتُ عن ابنك لأكثر من أسبوع. ذهبت إلى كلّ الأماكن التي يمكن أن يكون فيها، رأيتُ المراهقين نفسهم عدّة مرات، في أماكن مختلفة، دائماً يقومون بالأشياء نفسها: يتحدثون، يدخّنون، يكتبون في هواتفهم، يقهقهون عالياً، يشربون الجعة، يشربون العصير وكوكا كولا، يحملقون في الفراغ، ينظرون إلى كلّ شيء، ويصيحون. لديهم، عموماً، استعداد غريزي للكسل، وتجاهل للمسؤولية التي توجد لمجرّد كونهم أحياء. فخجلت من نفسي، لأنني أنا أيضاً كنتُ مثلهم، أنا أيضاً كنت أضيع الوقت، وقتي ووقت العالم. ربما كان كلّ شيء على ما يرام، ربما لم تكن هذه الأزمة وما صاحَبَها من انكماش اقتصادي لتصيبنا لو أنه، قبل

مئة أو مئتي عام، فكّر أحدهم في القضاء على كلّ عادات الشباب السيئة.

إنك تظلمهم، يا دانييل. إنهم يدرسون، ويوماً ما سيشغلون مكاننا ويتقلّدون تسيير الأمور.

هذا صحيح. لكنه ليس كافياً. يستطيعون القيام بأكثر من ذلك. يمكنهم أن يقدّموا المزيد من وقتهم، والمزيد من أفكارهم، والمزيد من جهدهم. كم عدد الملايين من الشباب هناك فوق كوكبنا؟ تصوّر عدد الساعات التي يهدرونها. تصوّر عدد الأفكار التي يضيّعونها مع كلّ رسالة نصية تُرسَلُ من هاتف خلوي إلى هاتف آخر.

إنهم بحاجة أن يتسلوا. إنهم شباب.

كلنا بحاجة أن نتسلى. عليهم أن يساهموا بشكلٍ أكبر.

إنك لا تؤمن بما تقول. أنت غاضب.

ربما. لكن بعد عشرين عاماً ربما سيكونون غاضبين بدورهم أيضاً. يجب أن يُخبرهم أحد ما بهذا الأمر.

لن يفيد هذا في شيء. تذكّر كيف كنّا نحن في سنّهم. لو جاء أحدهم وقال لنا...

لتذهب إلى الجحيم، يا ألمودوفار. كنتُ أبحث عن ابنكَ رغم أنّ ما بقي من حياتي كان على وشك أن يحترق.

انقضى ما تبقى من شهر يناير بسرعة. لم أعُد لأبحث عن فاسكو. لم يُجِبْني أحد عن الرسائل البريدية التي بعثتها رفقة سيرتي. في آخر نهاية أسبوع من ذلك الشهر كنتُ في فيانا دو كاشتيلو. كانت مارتا سعيدة من دون أيّ سبب واضح. كانت مشتاقة لي وتعانقني كلما تلاقينا في البيت. كانت قُبلاتها طويلة، قوية ومتلهّفة. عندما عدتُ لحالي، كان لدي إحساس بأنّ تلك المسافة التي كنتُ أفرضها علينا كانت خطأً فظيعاً.

مع بداية شهر فبراير، توصلتُ برسالة من البنك تذكّرني بأنه ينبغي عليّ أن أسدّد قسط ذلك الشهر. لم أكُن أستطيع القيام بأكثر ممّا كنتُ أفعل: أقضي كل يوم أربع أو خمس ساعات أبحر في الإنترنت عبر مواقع التشغيل، أبعَث رسائل بريدية مرفوقة بسيرتي، وأبعث رسائل ترشّح أطلب منهم فيها أن يستقبلوني، على أمَل أن أحصل على أيّ وظيفة. كانت الشقّة معروضة للبيع في نصف دزينة من الواقع الخاصة بالوكالات العقارية. من حين لآخر، كان أحدهم يتّصل بي، ويأتي ليزور البيت. ينتقل من غرفة إلى أخرى، يلاحظ أشياءنا الخاصة، صور مارتا وصور الطفلَيْن، يفتح الدواليب، يطرح الأسئلة، يسأل عن الجيران، ووسائل النقل، وتكاليف الملكية المشتركة. في أقلّ من شهر واحد، خفّضتُ ثمن بيع الشقة ثلاث مرات، رغم أنّ قيمتها تفوق ذلك، أو على الأقل كانت قيمتها أكثر من ذلك بكثير، وكانوا يبدون مهتمين بشرائها، على وشك أن يصافحوني ليصيحوا «حسناً. اتفقنا»، لكنهم سرعان ما ينصرفون، ولا يُطلعوني عن أخبارهم مرة أخرى. من حين لآخر، كنت أفتح

دفتر **الخطة** وأختار صفحة بيضاء، حتى تكون إمكانية حقيقية لكتابة أي شيء من دون قيود. أقضي ثلاث أو أربع ساعات أحملق في الخطوط، فتظلّ الصفحة، في الأخير، بيضاء فارغة، كما لو أنّ أيّ كلمة من الكلمات التي تعلّمتها طوال حياتي تُناسب ذلك الفضاء. فما الذي كان بإمكاني أن أفعَل أكثر من هذا؟

لا شيء. لقد فعلت كلّ شيء.

لا. هذا ليس صحيحاً.

في هذه الحالة، ما الذي كان بإمكانك أن تقوم به أكثر ممّا فعلتَ؟

لست أدري. لكني أعلم أنني لم أقُم بكلّ شيء. نستطيع دائماً أن نفعل المزيد.

دانييل، لقد سئمتُ من قدرتك على حلّ أيّ مشكل من خلال الأمل.

تباً لك! إنه ليس أملاً أعمى. إنها صرامة مع الذات. إنها الرغبة في القيام بكلّ شيء كما ينبغي، وتقديم أحسن ما لدينا، نحسب كلّ خطواتنا، ونبذل قصارى جهودنا. وأقلّ ما يمكن أن نطلب به هو أن تُجازينا الحياة على ذلك.

لكنني لن أفني ذاتي بحثاً عن مبرّرات لما حدث. وهذه هي

مشكلة كلّ الناس من حولنا في هذه الأيام: لقد اختفَت حياتهم السابقة، ولم يعودوا الأشخاص نفسهم كما كانوا، ومع ذلك ما زالوا يصارعون من أجل الأمس، دون أن يعلموا أنّ ذلك الأمس شيء لا يستحق أن نصارع من أجله في أيّ ظرف من الظروف. لذلك، علينا أن نمضي قُدُماً.

يوم 17 فبراير، تلقيتُ مكالمة من مستشارتي البنكية. أجبتُها. كان بإمكاني ألّا أرد على مكالمتها، لكنني كنت سأقوم بذلك في يوم من الأيام. أخبرتني أنها تريدني أن أذهب إلى البنك لمقابلتها في أقرب وقت ممكن. ذهبتُ في اليوم الموالي. لم يستغرق حديثنا أكثر من عشرين دقيقة. لم أكُن أتوفّر على مال لتسديد قسط قرض ذلك الشهر وما يليه من شهور أخرى. ثم قالت إنّ البنك مستعدّ للاحتفاظ بالشقّة مقابل إلغاء الديون -«إدارة الرهن العقاري» كان هو المصطلح الذي استعمَلَتْهُ- وهو ما سيغطي نسبة مهمة من القرض المستحق، وستبقى حصة قليلة قد تتقلّص إلى لا شيء تقريباً في الشهور القادمة. كان صوتُها نافورة تفيض حزماً وثباتاً، ولم تكُن ثمة أيّ شفقة في نبرة خطابها، وكان واضحاً أنه لم تكن تلك هي المرة الأولى التي تقول فيها ذلك، ولا المرة الثانية، ولا الثالثة، بل وربما لم تكن حتى العاشرة، بل ربما قالت ذلك الشيء في ذلك اليوم نفسه، قبل بضع ساعات، كأنها تشتغل في معمل تُركّب فيه قطعة مع قطعة أخرى طوال اليوم، وتكرّر تلك الحركة مرات لا تنتهي. وعندما انتهت من كلامها، قلتُ في نفسي: **لو شئتَ، لن تقوم بهذا. لو كنتَ تملك قدراً قليلاً من الكرامة، لرفضتَ أن تتعامل مع أيّ كائن بشري بهذه الطريقة، التي ليست أحسن من التبوّل على سكير متشرّد. هذا المساء، سوف تعودين إلى بيتكِ وسأكون هناك في**

ركنٍ من أركان ذهنكِ، وما ستقومين به الآن تجاهي سوف يلاحقكِ، ولن تستطيعي النظر في عيون أبنائك من دون أن تشعري بالخوف من أنه يوماً ما يمكن أن يحدث لهم الأمر نفسه، أي أنّ أحداً سيجلس أمامهم، ويتحدّث إليهم كما لو كانوا أطفالاً، ويشرح لهم معنى الأرقام على ورقة، يشير فيها إلى النسب المئوية، كما لو أنه يريد أن ينوّمهم ثم، بعد ذلك، يأخذ قسطاً من حياتهم. هذا الأمر سيلاحقك طوال حياتكِ. وسيكون شعورُكِ بالذنب هو جزائي على ما تقومين به تجاهي.

في ذلك المساء، اتصلتُ بمارتا. كانت الشقة على اسمي، لكنها كانت في ملكيّتها أيضاً، كانت شقتنا. شرحتُ لها الوضع، والمال الذي لا أملكه، مشكلتي مع العمل في بيع المكانس الكهربائية. أصغَت إلى كلامي دون أن تطرح أسئلة، يكاد تنفّسها لا يُسمع. حين انتهيتُ ظلَّت صامتة.

- مارتا؟ - قلتُ.

- . . .

- هل تسمعينني؟

- متى فقدتَ عملك في بيع المكانس الكهربائية؟

- لستُ أدري. قبل شهر تقريباً.

- ولا تُخبرني إلّا الآن؟ أنا لا أعرف كيف أتصرّف، يا دانييل.

- أظن أنني سوف أقبل اقتراحهم بخصوص الشقة - قلتُ.

- قلتُ لكَ إنه يتعين علينا أن نبيع الشقة، لكن هذا ليس الأمر نفسه، لأننا سنخسر كثيراً من المال - قالت.

- أعرف ذلك، فهل عندكِ من حلٍّ آخر؟

- الآن ليس عندي حلّ آخر، يا دانييل. كان عليك أن تحدِّثني عن ذلك من قبل.

- سوف أقبَل بعرضهم.

- وماذا بعد ذلك؟

- بعد ذلك، لستُ أدري، يا مارتا. أنا آسف.

في اليوم الموالي، رجعتُ إلى البنك. كانت المستشارة البنكية قد أعدَّت كلّ الوثائق، التي وقّعت عليها بالكامل. وفي أقلّ من عشر دقائق أصبح البنك هو مالك شقتي. عالجنا الأمر كما لو أنه اتفاق يرضي الطرفين، ثم مزحنا، وقلتُ إنّ الشقة لم تعُد تتّسع لمالكها الجديد فضحكت ضحكة عالية، ثم سرعان ما أضافت إنها تتطلّع لفرصة أخرى نكون فيها شريكين مرة أخرى. ثم تصافَحنا وإحساس غير واقعي بمهمة منتهية يملؤنا. شعرتُ أنني أزحت عن نفسي عبئاً ثقيلاً، يا ألمودوفار، كما لو أنّ ذلك كان نهاية حقبة سوداء، وأن كل مشاكل العالم الاقتصادية وجدت طريقها إلى الحلّ من خلال اتفاق بسيط بيني وبين مستشارتي البنكية. شعرتُ أنني يمكن أن أعيش أسابيع، بل شهوراً عديدة، أتغذى على هذا الإحساس بالارتياح. صارت الحياة أقل عبئاً. أنا واثق أنك تفهم هذا الأمر.

قضيتُ أسبوعين وأنا أضع كلّ حياتنا في العُلب: لُعب الأطفال، لوازم السرير، مناديل المائدة، أواني، صور، أوراق، رسائل، لوحات. كنت أتصل بمارتا عشر مرات في اليوم. كانت قد أخذت معها عدة أشياء خلال السنة الأخيرة، ومع ذلك كانت أقسام المنزل لا تزال تعجّ بالأشياء وأنا لا أعرف أيّ مصير أحدِّد لكلّ ذلك. كانت تحاول أن تدلّني عن بُعد وتتحدث بنبرة نشيطة تصيبني بالرعشة. لم تشتكِ مرة أخرى ممّا وقع، وذات يوم سألتني:

- هل بدأتَ البحث عن شقة أخرى؟

كنت قد بدأت، بالفعل، أبحث في الجرائد، والإنترنت، وأقوم كلّ يوم بجولة في الحي بحثاً عن اللافتات المعلّقة في نوافذ بعض الشقق، وأجري مكالمات هاتفية مع أصحابها. إلّا أنني لم أكُن أملك مالاً لدفع ثمن الكراء، أيّ كراء، حتى لو كانت قيمته منخفضة. لكنني فضلتُ أن أقول لها:

- لم أبدأ بعد.

- عليكَ أن تسرع في القيام بذلك، يا دانييل، حتى لا تضطرّ أن تطلب من شافيير أن يأويك في بيته.

كانت امرأة ذات كبرياء، يا ألمودوفار. لطالما طلبت مني أن ألتحق بها في فيانا دو كاشتيلو لأبقى معها ومع الطفلَيْن، ونكون أسرة واحدة من جديد، وأبَتْ أن تكرِّر ذلك مرة أخرى. كما أنني بقيتُ صامتاً من جهتي.

- سيجري كلّ شيء على أتمّ وجه - قلتُ.

- طبعاً، سيكون كذلك - أجابتني.

أصبح البيت فارغاً في غضون بضعة أيام. بعتُ معظم الأثاث إلى جمعية غير ربحية كانت تهبها بعد ذلك لمَن له استعداد للبحث عنها في مستودع في شابريغاش. ولم يبقَ غير مائدة الأكل ودولاب أوانٍ كان في ملك والديّ، والسرير الذي كنا ننام فوقه أنا ومارتا منذ السنة الثانية على زواجنا. بقيت هذه القطع الثلاث في مرأب جواو موتا، الذي لم أخبره بما كان يجري، قلت له فقط إنني أقوم ببعض الأشغال في البيت. كما تركتُ هنالك اثنين وعشرين علبة كارتونية بها كلّ ما لم يكُن ضرورياً وقتها. بعتُ كلّ التجهيزات المنزلية في

المزاد العلني في موقع على الإنترنت. جاءت مارتا رفقة والدها ذات سبت صباحاً وأخذا تسع علب من الأقراص من الأسطوانات، والكتب، والصور، واللعب. بالكاد تحدّثنا عمّا كان يحدث، لكننا تحدَّثنا عن ماتيوس.

في الأسبوع الماضي تسبَّب ابني في انفجار فرن المايكروويف في بيت حماتي. وضع مصباحاً كهربائياً داخل وعاء ممتلئ بالماء ثم أدخل الوعاء إلى الفرن. كان يحاول تقليد خدعة سحرية اكتشفها في الإنترنت: على ما يبدو، عندما يُشغَّلُ الفرن، يشتعل المصباح داخل وعاء الماء. أكّد ماتيوس أنه رأى المصباح يشتعل فعلاً قبل حدوث الانفجار. وانتهى الفرن في القمامة. لم يُصب ماتيوس بأيّ أذى. لمّحَتْ مارتا إلى أن الذّنْب ذنْبي، رغم أنه حين سألتُها كيف ذلك لم تكُن قادرة على تقديم أيّ جواب. لكني، من جهتي أنا أيضاً، لم أحاول الدفاع عن نفسي. كانت بحاجة لأحدٍ كي يتحمّل مسؤولية ذلك الحادث، وكنتُ أريد أن أساعدها في ذلك.

عندما انصرفَت مارتا رفقة والدها، بقيَت لديّ حقيبتان بهما ملابسي بكاملها تقريباً، زوجان من الأحذية، فوطة حمام، مجموعة من ملاءات السرير، ملاءة كبيرة، كيس من مواد النظافة، حاسوبي الخاص ودفتران. وضعتُ تلك الأشياء داخل السيارة ثم أقلعتُ. أحَّ المحرّكُ مرتين قبل أن يُصدر هديراً خفيفاً. لمستُ المقود بيدي اليسرى، ووضعت يدي اليمنى على البدّال. وبحثَت قدماي عن الدواسة. كما لو أنّ جسدي كان يعرف شيئاً لم يكن لي به علم. أؤكّد لك، يا ألمودوفار، أنني لم أكُن أعرف ما سأقوم به. كان من الممكن أن أفعل أيّ شيء، وأتوجّه إلى أيّ مكان. لكني لم أكُن أعرف كيف أتابع انطلاقاً من هناك. ثم أوقفتُ المحرك. في تلك

الليلة نمتُ لأول مرة داخل السيارة، على بُعد عشرين متراً من العمارة التي عشنا فيها أنا ومارتا والطفلان لسنوات طويلة.

نهضتُ باكراً، ولم يكُن الصُّبح غير إمكانية من بين إمكانات أخرى. قضيتُ الليلة نائماً في المقعد الخلفي للسيارة، ملفوفاً في ملاءة. غطيتُ النافذة المكسرة بقطعة بلاستيك سميكة، لكن الريح والبرد كانا ينفذان إلى داخل السيارة. كنت أشعر بالراحة. كنت قد فكرت من قبل أنه بعد قضاء بضع ساعات ممدداً فوق ذلك الكرسي ستكون كل ضلوعي ملتوية في عدة مواضع، وسأشعر بتعب فظيع في ظهري. بيدَ أنّ جسدي كان خفيفاً جداً. كما لو أنه لا توجد جاذبية داخل السيارة. بقيتُ هناك نصف ساعة، في انتظار أن يبرز العالم من وسط الظلام. وكانت المدينة هناك أيضاً، بعض الناس يمشون، فأسمَع وقع خطواتهم الحثيثة فوق الرصيف. كان شيئاً سهلاً أن أكون هناك. قلت في نفسي: **اللعنة! ما الذي كنتُ أقوم به طوال هذا الوقت؟ بيت؟ لماذا أنا بحاجة إلى بيت؟ مَن هو ذلك الوغد الذي ابتكر حاجتنا إلى البيوت؟ فلا غرو، إذاً، أن يكون العالم على وشك الانهيار: كلّ الناس يتهافتون على شراء المنازل كما لو أنه ليس هناك من بديل عنها. نصفُ أموال كوكبنا تحوّلت إلى أجور وإسمنت مسلّح. فمتى، إذاً، صرنا على هذه الدرجة من الهشاشة؟ متى وجدنا أساس وجودنا فيما يوفره لنا من راحة سقفٌ وأربعة جدران؟ يجب أن يتوجّه أحدهم إلى الإنسانية ليشرح للناس أن الحاجة إلى سقف هي مجرّد وَهْم يمكن تجاوزه، وأنّ الحياة يمكن أن تكون أسهل من ذلك بكثير.**

الكائنات البشرية كانت دائماً تعيش في بيوت.

ليست مثل هذه البيوت. مجموعات من بيوت. بيوت مصطفة. عمارات من بيوت. بيوت بها زرابي، وجدران دافئة، ونوافذ من الألمنيوم، وزجاج مزدوج، وأرضية متحركة، وكراسي في كلّ مكان، وحمّام لكلّ ثلاثين متراً مربعاً، ومطابخ مجهّزة من رخام. كما لو أننا ملوك، يا ألمودوفار. ملوك.

أنتَ أيضاً كنت تعيش بهذه الطريقة.

والكهرباء. هلّا شرحت لي ما أصبحت تلعبه في حياتنا؟ لقد صارت هي معدتنا، وجلدنا، وقلبنا، وأرجلنا. إذا كنت على خلافٍ مع أحد ما، فلا تقتنِ سلاحاً لتقتله؛ اذهب فقط إلى بيته واقطع التيار الكهربائي. سترى، على الفور شعوراً بالقلق يجعل كلّ حركاته ترتعش، وبعد ثلاثة أيام، سيسيطر عليه قلق عميق يملأ صدره بالفراغ. وبعد ذلك، سيموت على مهل، من البرد، والجوع، والملل.

إنك لستَ عادلاً، يا دانييل. الكهرباء دفعت العالم إلى الأمام، وتحسَّنت حياة البشر آلاف المرات، بل مليون مرة.

تباً لك، يا ألمودوفار! أنت مَن تقول هذا. يوماً ما سوف يجعلوننا نتغذّى على اللّازانْيا ورغوة الشوكلاته عبر عروقنا حتى لا نضطر لاستعمال الفكّيْن، فقط لينعم جهازُنا الهضمي بقسطٍ من

الراحة. فهل تستطيع أن تتصور فداحة هذا الانحراف؟ إلّا أنه حينئذٍ سيأتي أحدهم ليؤكد بابتسامة مُطَمْئنة إنّ هذه الطريقة الجديدة في تزويد الجسم بالغذاء تترجم تحسّناً في الحياة لا يَقبل الجدل. يوم ما، سوف تُختزَل حياة بني البشر في سباتٍ يدوم مئة وثلاثين سنة، وغياب تام لأيّ نشاط بدني، الراحة المطلقة، وإن أمكن سنلغي الأحلام بدورها، لأنه ليس هناك من شيء يُتعب الإنسان أكثر من الحلم. هكذا، سيبقى دماغ البشر رخواً قدر الإمكان، وربما حينها سنكون سعداء تماماً.

دانييل، الناس يستحقون هذه الرفاهية.

ربما. لكن، يا ألمودوفار، هذه الرفاهية لها ثمن ولا أحد يدفع الثمن الحقيقي كما يجب. أمّا أنت فمن الأحسن ألّا تتكلم، أيها اللعين. هناك حيث أنت، مختبئاً من العالم، وفي منأى عن كلّ عناصر الطبيعة، تستمتع بسرير تُريح فوقه جسدك، وتستحمّ بماء دافئ، وتتناول وجبات أكل في موعدها، ليس لكَ الحق في أن تتكلّم.

كلّ هذا لأنك نمت ليلة واحدة داخل سيارتك. ليلة واحدة لا تلغي من التاريخ كل السنوات التي عشتها داخل شقّة تتوفر على كلّ وسائل الراحة.

إنها ثلاث عشرة ليلة، يا ألمودوفار. ثلاث عشرة. أظنّ أنك غير قادرٍ على تصوّر الإحساس بالحرية: حوالي الساعة السابعة مساء

كنت أشغّل السيارة وأقودها بحثاً عن مكان هادئ، أنتبه لأصوات المدينة وأضوائها، وحركة الناس في الشوارع. وعندما أجد مكاناً يُعجبني، أركن السيارة، أرتدي مناماتي ثم أمرّ إلى المقعد الخلفي. أنام كلّ ليلة في شارع مختلف. أحياناً، أستيقظ فجراً فأشعر أنّ شيئاً ما ليس على ما يرام، أسمع صوتاً، أرى أشباحاً، شاحنة جمع النفايات تتأخّر أمام باب كلّ عمارة، فأشغل السيارة وأقودها لمدة ربع ساعة ثم أتوقّف في مكانٍ آخر من المدينة. كانت المسألة في غاية البساطة: سيارة = بيت. كنتُ أقضي معظم الوقت جالساً في أيّ مقهى من المقاهي، أقرأ الجريدة، وأحلّ شبكات الكلمات المتقاطعة. من حين لآخر، كنت أمرّ إلى المكتبة البلدية، ألقي نظرة على البريد الإلكتروني في أحد الحواسيب، ثم أزور بعض مواقع التشغيل، أتحدّث مع فلور وماتيوس إن وجدتهما على الخط.

كانت مارتا تتّصل بي كلّ يوم، وانشغال واضح في نبرة صوتها. تريد أن تعرف إن كنت صامداً أقاوم، إن كنتُ بحاجةٍ أي شيء، وأين أنام. وكان ذلك أمراً عبثياً، يا ألمودوفار، لأنني كنت بعيداً عن ذلك الانشغال ولأوّل مرة منذ وقت طويل بدأت الأشياء من حولي تبدو منظمة وممكنة. لم أخبرها أنني أنام في السيارة. في الأيام الأولى، قلت لها إننا في بيت جواو موتا. بعد ذلك، اتّصلتُ بها لأخبرها أنني اكتريتُ استوديو في الضفة الأخرى من نهر التاج، جنوب لشبونة. لم تكن لديّ أي إمكانية لحلّ مشاكل حياتي في المستقبل المنظور: كان ذلك كذبة عليّ أن أقولها عاجلاً أم آجلاً. ففضّلتُ أن أفعل ذلك في أقرب وقت ممكن، حتى أُطمْئن مارتا وأريح أعصابها.

عند نهاية الأسبوع الثاني منذ أن بدأتُ أنام في السيارة، اتصلوا

بي من أجل إجراء مقابلة توظيف. كانت وكالة أسفار متخصّصة في السياحة الدينية: مزارُ فاطمة، سانتياغو دي كومبوستيلا، لورد، روما، أورشليم، واللائحة بكاملها. صباح يوم المقابلة، مررتُ إلى بيت جواو موتا، وشرحت له أن المقاوِلَة التي تنجز بعض أشغال الصيانة في بيتي قطعت السخّان فبقيتُ من دون ماء دافئ. استقبلني دون أن يطرح أسئلة، لأن حكايتي لا تهمه في شيء، وتعامله اللطيف معي يرجع فقط لأنني صديقُك. ذهب إلى العمل وتركني لوحدي في بيته. أخذتُ حماماً. وحلقتُ ذقني الذي لم أحلقه منذ عدة أيام. ارتديتُ أحسن بدلة تبدو أقل انكماشاً من البدلات الأخرى. نظرتُ إلى نفسي في المرآة لوقت طويل: لم تكُن صورتي تشي بأيّ دليل على أنني قضيتُ الأيام الأخيرة أنام في السيارة.

لم يكُن عمر ذلك الشاب الذي استقبلني يفوق الثلاثين سنة، وهو ابن صاحب الوكالة. بحسب ما فهمتُ، كان والده كاثوليكياً تقياً، ورجلاً حماسياً، لم تطأ قدماه المكتب منذ أن فقَدَ زوجته قبل سنتين وراح يقضي نصف السنة مسافراً في الرحلات التي تنظّمها مقاولته. كان الابن هو مَن يدير الوكالة بالفعل. في الجزء الأول من المقابلة، كانت عينا الشاب تنتقلان بيني وبين ملفّي الموضوع فوق المكتب، فطرح عليّ سلسلة من الأسئلة ترتبط بتجربتي المهنية، معرفتي باللغات الحية، قدرتي على القيادة، ومدى تحملي في حالات الضغط والتوتر. أجبته بكلّ صراحة، وأنا أجاهد ألّا ينتبه لما أبذله من جهد. بعد ذلك، وبعينين شبه مغمضتين، كأنّ الذاكرة تخونه، سألني إن كنتُ كاثوليكياً. وهنا كذبتُ وأجبته نعم، لأنني كنتُ على يقين من أنهم لا يريدون ملحداً أو مسلماً أو بوذياً ليكون مرشداً سياحياً لمجموعات من الحجاج المسيحيين في أثناء زيارتهم

لأهم كنائس أوروبا وكاتدرائياتها. ارتسمت تكشيرة على وجهه، كما لو أنّ قطعة جبن متعفّن دخلت إلى فمه، ثم تدلّت كتفاه.

- أستسمح - قال وهو يغلق الملف فجأة - هذا الأمر يضرّ بأي تعاون بيننا.

- أتعني كوني لستُ كاثوليكياً؟

- إنها سياسة مؤسّستنا التي سنَّها والدي منذ أكثر من ثلاثين سنة. عليكَ أن تعرف أننا لا يمكن أن نضع كاثوليكياً تقياً على رأس مجموعة من السياح يزورون كاتدارئية القديس بطرس في روما أو كنيسة القبر المقدس في أورشليم. لأنّ الأمر ينطوي على مخاطر لا تقلّ عن المخاطر التي قد تحدق بمغرم بالحلويات أمام واجهة مخبزة.

ألمودوفار، لقد كان ذلك الوغد يتحدّث وكنتُ أرى في عينيه أنه لا يصدّق شيئاً من تلك الحماقة التي يقولها. كان يتلو خطاباً حفظه عن ظهر قلب، ولم يكُن ذلك غير إجراء شكلي من الإجراءات التي فرضها والده. المشكلة أنني كنتُ أعجبه، وكان يعرف أنني يمكن أن أكون عنصراً لا غنى عنه ضمن فريق عمله، ويريد أن يشغّلني، كنت متأكداً من ذلك. لكن ليس لدرجة التخلي عن قاعدة أساسية من قواعد المقاولة. قلتُ في نفسي: سأقول له الحقيقة، وأخبره أنني لست كاثوليكياً، ولا أتبع أيّ ملة أو دين، وأنّ الإيمان الوحيد الذي يغذيني هو إيماني بذاتي وبقدراتي وأفكاري وما أنتجه بواسطة عملي؛ ثم أشرح له سبب الكذبة التي قلتها قبل قليل. لكن، ربما لن يؤدّي هذا سوى إلى تأزيم الوضع، وربما قد يظن أنني كذبت أيضاً فيما قدّمتُه من أجوبة أخرى سابقة؛ أو أنني أتنكّر لديني فقط من أجل الحصول على عمل.

وبسبب مواقف كهذه كان العالم يغرق بشكلٍ متواصل. الناس يحملون إلى أيّ مكان بروتوكولاتهم الشخصية التي صقلوها وطوّروها حدّ العبث، وينقلون عاداتهم المتجذرة، وشخصياتهم المنحرفة، الغارقة في عيوب منطقهم الخاص، ولا أحد منهم مستعدّ للقيام بخطوة جانباً، وفسح المجال لطرقٍ أخرى في النظر إلى الأشياء من أجل السير قدُماً إلى الأمام. ورغم أنّ الواقع يفرض ذلك، ورغم أنه لا توجد بدائل أخرى أحياناً، فإنّ الناس يفضّلون أن يظلّوا جامدين على أن يقوموا بتلك الخطوة جانباً. تصوّر الإنسانية تتقدّم كأنها موجة، دون أن تضعف أبداً، تصوّر ذلك. على أيّ حال، في النهاية، قلتُ للشاب:

- أنا لستُ كاثوليكياً.

ابتسم الشاب ابتسامة لطيفة ولم يقُل شيئاً. أردفتُ قائلاً:

- لقد كذبتُ عليك، رغم أنّ الكذب ليس من طباعي. لكني بحاجة إلى هذه الوظيفة. وأعرف أنني سأقوم بعملٍ جيد.

ظلّ يبتسم، ثم قال:

- سوف تستمر عملية الانتقاء لبضعة أيام أخرى. وسننظر في ملفّ ترشيحك.

إلّا أنه هو الذي كان يكذب هذه المرّة، يا ألمودوفار. كان ذلك واضحاً للعيان. لم يكُن يملك الشجاعة ليقول لي الحقيقة، وينظر في عينيّ وهو يرفض لي عملاً، حتى لا يكتشف فيهما ما يشبه الألم أو قلقاً يعلو وجهي. كان من هذا النوع من الناس. كان ينتظر فقط أن أغادر مكتبه حتى يستأنف سير حياته العادية، ويختفي فوراً ذلك الندم الذي غشى عينيه بضبابٍ كثيف. بالكاد كان حضوري يمنعه من الشعور بارتياح كامل من الحياة.

عندما تصافَحنا، تكلّفتُ أحسن ابتسامة ممكنة. وقلتُ له:

- فكِّر جيداً. قد تندَم على هذا القرار.

حرَّكَ رأسه بتثاقلٍ، لكنه ظلّ صامتاً. بعد ذلك، رافقني إلى الباب، وضغط بنفسه ليطلب المصعد، ثم وقف ينتظر إلى جانبي في صمت. عندما جاء المصعد، تقدّم وفتح لي الباب لأدخل. ولجتُ إلى المصعد. ربما يكون شَعَر أنه قد كفّر عن ذنبه بتلك الحركة. الوغد.

توقف المصعد في طابقين أو ثلاثة طوابق، فولَجه أشخاص وغادره آخرون. كان هناك إحساس قوي في كلّ حركات أولئك الناس. عندما وصلتُ إلى الشارع، جريتُ نحو السيارة. أدخلتُ المفتاح لكني لم أشغّل المحرّك. قلتُ في نفسي: **هذا الأمر على درجة كبيرة من الأهمية كي أغادر هكذا**. ثم إنه لم يكُن لدي ما أفعل، فبقيتُ هناك أنظر إلى باب العمارة التي غادرتُها للتو. كان شارعاً قليل الحركة، فيه بعض السيارات وقليل من الناس. مرّت ساعة، وامتلأت الظهيرة ضوءاً. دنا مني شرطي وأشار لي بيده كي أتحرك لأنه لا يمكن أن أظلّ واقفاً هناك والمكان خاص بعمليات الشحن والتفريغ. لم أُنزل زجاج النافذة، وبحركة من أصابعي رسمت عبارة كونية مفادها «مهلاً قليلاً من فضلك» وأنا أضع السبابة والإبهام في وضعية أفقية، لا تفرق بينهما سوى بضع سنتيمترات. هزّ كتفيه في إشارة قبيحة، لأنه لم يكُن راضياً عن حركتي، لكنه سرعان ما استدار وتابع جولته. لم أرَه ثانية. مرت ساعة أخرى، وفجأة ازداد عدد السيارات في الشارع بشكلٍ كبير، كما لو أنهم قطعوا كلّ الشوارع في المدينة إلّا ذلك الشارع. حوالي الساعة الخامسة مساء، خرج من العمارة ذلك الشاب الذي أجرى معي مقابلة التوظيف.

أبهرَ الضوءُ عينيه فأخرج نظارتَيْه الشمسيتَيْن ووضعهما. بعد ذلك، عَبَرَ الشارع، مشى لمسافة خمسين متراً فوق الرصيف حيث كانت سيارتي راكدة ثم صعد إلى سيارة. شغّلتُ محرك السيارة. بعد ثلاثين ثانية، مرّت سيارتُه بالقرب من سيارتي. فتبعتُه.

ألمودوفار، أنا لم أكُن أعرف ما كنتُ أقوم به. كلّ ما أعرف أنه كان عليّ أن أقوم بشيء ما، أبعث إليه بإشارة من بعيد، وربما أتحدّث معه مرة أخرى. لقد كنتُ عاطلاً منذ سنة تقريباً، وذلك الرجل لديه وظيفة تناسبني. هكذا، بكلّ بساطة.

تعقبتُه دون أن أقترب كثيراً من سيارته، لأنني لم أكُن أريده أن يراني قبل اللحظة المناسبة، لأنّ اللحظة المناسبة ستأتي، وحين ستأتي سأعرف كيف أتعرّفها. لا أذكر المسار الذي قطعناه. تقدّمت سيارته في المدينة على مهل، توقفت عند إشارات الضوء الأحمر، وغيرت الاتجاه عدة مرات. كررتُ كلّ ما فعله من حركات. لا بدّ أنه قد مرّت ثماني دقائق، ليس أكثر من عشر بكلّ تأكيد، ونحن نقود السيارتين حين دخلنا إلى شارعٍ به سيارات أخرى كثيرة. بقيتُ بعيداً عنه على بُعد عشرين أو ثلاثين متراً. بعد شارعَيْن، توقّف عند الضوء الأحمر قبل تَقاطع الطرق. وكانت تلك هي اللحظة المناسبة، لذا وقفتُ إلى شِمالِه.

نظرتُ إليه عبر البلاستيك الشفاف الذي يغطي نافذة سيارتي من دون زجاج. لم أكُن مضطراً لأنحني برأسي أو أقوم بأيّ حركة أخرى، لأنه لمَحَني على الفور. رسم نصف ابتسامة على فمه وحدّق فيّ بعينيه، وفي وجهي المألوف لديه رغم أنّ البلاستيك شوّه شكله. لكنه كان يبدو عاجزاً عن التعرّف عليّ وتحديد هويتي، كما لو أنه لم يجرِ بيننا حديث متبادل تلك الظهيرة، بل قبل عشر سنوات خلت.

قلت في نفسي: **لتذهب أنت ووظيفتك إلى الجحيم، أيها الوغد، أنا لست بحاجة إليها وأستطيع أن أتدبّر أمري لوحدي**. رمشَت عيناهُ قليلاً لحظة تعرّفني، وحينئذٍ حرّك رأسه ليُحيّيني. أومأتُ إليه بحركة من يدي ليُنزِل زجاج نافذة سيارته، وهو ما قام به. فظهر فضاءٌ للحوار بيننا، وكان بإمكاني أن أقول أيّ شيء، بل إن احتمال حصولي على عمل جديد كان حاضراً هناك في تلك اللحظة. لكني لم أستطِعْ أن أقول أيّ شيء، يا ألمودوفار.

جاء ثلاثة شبان وعبروا الطريق من اليمين إلى الشمال، أمام سيارتَيْنا بالضبط. كان أحدهم هو فاسكو. مرّوا يركضون، لأنّ إشارة ضوء الراجلين بدأت تومض قبل أن تصير خضراء. شغلّتُ بوق السيارة فانفزعوا، وجَروا بسرعة أكبر، ولم يلتفِت أيّ واحد منهم ليرى ما يحدث. لحظة بعد ذلك، كانوا فوق الرصيف، ثم اختفوا ببطء عند زاوية الشارع.

صارت إشارة المرور خضراء. نظرتُ إلى شاب وكالة الأسفار داخل السيارة بجانبي. كان رأسه لا يزال موجّهاً نحوي، ووجهه ينفتحُ عليّ. لكن السيارة بدأت تسير. بعد ذلك رفع إحدى يديه مودّعاً، ثم تقدم نحو ملتقى الطرق وتابع سيره. خفضتُ السرعة وغيّرتُ الاتجاه يساراً.

هل تعقّبت خطوات ابني فاسكو؟

مكتبة
t.me/t_pdf

طبعاً، تقعبتُ خطوات ابنك.

وماذا عن العمل في وكالة الأسفار؟

تباً لك، يا ألمودوفار. أنا أحبّ فاسكو كثيراً، كما لو أنه ابني. وكونك جباناً رعديداً لا يغيّر شيئاً من هذا الأمر. بعد كلّ ما جرى في موقف السيارات، ومنظر فاسكو فوق سطح الشاحنة الصغيرة والهاتف في يده، وشريط الفيديو على الإنترنت، لا يمكن أن أتركه ليمرّ هكذا أمامي دون أن أتبعه. منذ متى صار من الضروري تبريرُ قرار سديد؟

تبعتُهم. تبعتُ فاسكو والمراهقَيْن اللذين كانا معه. رأيتهم على الفور، يحملون حقائب فوق ظهورهم، ويسيرون جنباً إلى جنب، بخطى هادئة، وكان فاسكو هو أقصرهم قامة. ما الذي كانوا يفعلونه هناك؟ إلى أين كانوا متوجّهين؟ كانت الساعة تُشير إلى السادسة زوالاً تقريباً. كان فاسكو على بُعد خمسة كيلومترات من البيت وحوالي أربعة من المدرسة. فهل كانت كلارا تعلم أنه هناك؟

تعقبتُهم لمسافة خمسمئة متر تقريباً وأنا أتحكّم في السرعة حتى لا أقترب منهم كثيراً، وأشيرُ إلى السيارات من خلفي كي تمرّ. كان أحد الشبان يحمل زلّاجاً في يده. في لحظة معينة، تركه يسقط على الأرض، ثم صعد فوقه وأخذ يحرّكه بإحدى رجليه، فسبق صديقَيْه. انزلق فوق الرصيف لمسافة عشرين متراً تقريباً ثم توقف عند باب إحدى العمارات، عند باب متجر للعقاقير، دائماً دون أن ينزل من فوق الزلّاج. عند باب متجر العقاقير كان هناك رجل يجلس على مقعد ويقرأ الجريدة. وسرعان ما التحق فاسكو والمراهق الآخر بصديقهما. لم يضغط أيّ واحد منهم على الجرس. وبدل ذلك، أخرَجَ الشاب الذي كان يستعمل الزلّاج هاتفه، ثم نقر شيئاً ما على الشاشة وظلّوا ينتظرون. أوقفتُ السيارة في الصف الثاني، شغلتُ الأضواء المنبهة، وخرجتُ.

- فاسكو! - صحتُ.

نظر إليّ المراهقون الثلاثة. كان ابنُك هو أوّل مَن رآني، فارتجف جسده فزعاً، ثم انقبض وجهه من الدهشة، كما لو أنّ تلك الوضعية لم تكن ممكنة وفق قوانين هذا العالم. أخذ الشابان الآخران يجريان نحو أعلى الشارع، وظلّ الزلّاج خلفهما ينزلق لوحده باتجاه متجر العقاقير، وفي رمشة عين اختفوا بين سيارتين واقفتين عند الرصيف.

هل فهمت ما كان يجري، يا ألمودوفار؟ أولئك الشبان كانوا يعرفونني، وكانوا خائفين مني. لستُ متأكداً، بالطبع، لكن احتمال أن يكونوا من بين أولئك المراهقين الذي تبوّلوا على آفيلا كان مرتفعاً جداً.

لقد شعر فاسكو باندفاع ليتبعهم، لكنه ظلّ ينظُر وهو يترقب وقوع شيء ما، ذراعاه تتدليان على طول جسده، ورأسه يميل شيئاً ما يميناً. تقدمتُ نحوه. كانت هناك شجرة ضخمة فوق رؤوسنا، كأنها سقف أخضر يغطي السماء الداكنة عند نهاية الزوال، والأرض مغطاة بأزهار صغيرة زرقاء وبيضاء.

- ماذا تفعل هنا؟ - سألتُه.

ثم ندمت فوراً عن سؤاله، لأنّ ذلك لم يكُن أحسن طريقة لبداية الحديث.

- لا شيء - قال فاسكو.

كان هناك شيء ما غريب في طريقة نظره لي، شيء يشبه التوجّس.

- إنني لم أكُن أتعقبك، - قلتُ - رأيتُك تمرّ فتوقّفتُ.

- طبعاً.

- هل لديكَ أخبار عن والدك؟

- لا. وأنت؟

- أنا أيضاً ليست لديّ عنه أيّ أخبار.

ثم بقينا صامتَيْن، صمتٌ جميل، قد يكون نهاية هادئة لذلك الحديث. ثم دسّ يديه في جيوب المعطف، بحث عن صديقَيْه من حوله. قلتُ له:

- يوم ذلك الحادث في موقف السيارات بالمركز التجاري، أنت مَن كان فوق الشاحنة الصغيرة. أليس كذلك؟

ثم التفت نحوي برأسه مرة أخرى، خائفاً لمدة نصف ثانية، ثم سرعان ما أصبحت نظراته قاسية.

- كان من الممكن أن ينتهي ذلك بطريقة سيئة - أردفتُ - آفيلا في حالة جيدة الآن، لكن...

- مَن هو آفيلا؟

- هو ذلك الرجل الذي كان من دون سروال. أتذْكُره؟ هذا هو اسمه. هل تعرف أنه هو الأستاذ الذي دَرَس والدُك الرياضيات على يديه سابقاً؟

لمعت عيناهُ وقطّب حاجبيه.

- لم تكن تعرف ذلك. أليس كذلك؟ كان أستاذنا في الصف السابع. وهو الآن يعيش متسكّعاً في الشارع. هذا يمكن أن يقع لأيّ أحد. ربما لا تصدّق ذلك، لكن هذه هي الحقيقة، هذا الأمر يمكن أن يقع لأيٍّ كان. لقد أصبح العالم هكذا، اليوم.

نظر فاسكو مرة أخرى من حوله، لكنه هذه المرة لم يكن يبحث عن صديقَيْه، بل فقط لا يريد أن ينظر إليّ.

- على أيّ حال، لقد قضى آفيلا ليلة في المستشفى، من

المحتمل جداً أن يكون قد عاد في اليوم الموالي ليشرب حتى الثمالة في إحدى الحانات قرب النهر. لكن، ليس هذا هو الأهم. تباً لك، يا فاسكو! لقد تبوّل أصدقاؤك على رجل أعْزَل. وهذا فعل سيئ جداً. إنّ الكائن البشري يستحق احتراماً أكثر من ذلك. ماذا كنت تفعل هناك معهم؟ وما الذي كنت تقوم به فوق تلك الشاحنة الصغيرة؟ أعرف أنك شاب مستقيم. ليس من شيمك القيام بمثل تلك الأفعال. وقد حرص أبواك على تربيتك لتقوم بأشياء أحسن من ذلك. فكيف سيكون ردّ فعل والدك لو أنّ أحداً حدّثه عمّا جرى؟ وأنت تعرف أن العالم صار متعفّناً بما يكفي، وهو ليس بحاجة إليك لتعفّنه أكثر من ذلك.

حرّك رأسه، كأنّ حديثي لم يكُن سوى محاضرة أخرى من المحاضرات التي ملّ من سماعها، بالعبارات والجمل المطروقة نفسها، التي يستعملها الآباء والأساتذة وكلّ الكبار الراشدين. وهذا ما لم أكُن أرغب فيه. لم أكُن أرغب في أن أتحدّث إليه مثل أحد الراشدين. أذْكُر كيف كانوا يتحدّثون معي بهذه الطريقة، وعدم جدوى تلك الكلمات، وما تتركه من فراغ في نفسي. لذلك رفعتُ ذراعيّ، كمَن يستسلم.

- حسناً. لن أقول أيّ شيء آخر - قلت له - لكن عليك أن تَعدني بهذا الأمر. لو واجهتَ مشكلة ما، أو حدث أيّ شيء سيئ، أو شعرت بالحاجة لتتكلم، عن أي شيء، اتّصِلْ بي. لديّ وقت، وأستطيع أن ألتقي بك فوراً، نتحدث، ونحلّ المشاكل معاً. اتفقنا؟

لم يُجِبني، فكرّرتُ:

- اتفقنا؟

فتح فمه ليقول شيئاً ما، لكن أحدهم صاح:

حريق! حريق!

نظرتُ من حولنا. لا أحد يبدو منفزعاً. كان بعض الأشخاص يتراجعون من دون خوف. وحدها امرأة صحبة طفلَيْن كانت تجري. وكان هناك دخان، دخان أسود يبدو أنه يأتي من كلّ جانب، ويشتته في الوقت ذاته نسيمٌ ربيعي خفيف. ثم اندست سحابة دخان بيني وبين فاسكو وارتفعت بعد ذلك نحو قمة تلك الشجرة الخضراء.

- إنها سيارتك - قال فاسكو بصوت خفيض، كأنه يحكي لي سراً قديماً.

التفتُّ لأرى ما يحدث. كانت سيارتي، بالفعل، يا ألمودوفار. كان الدخان الكثيف، كأنه سحابة سميكة، يخرج ملتوياً عبر النوافذ مثل حية كبيرة ضخمة وسوداء ذات رؤوس متعدّدة. كان هناك شيء ما يحترق داخل السيارة، في المقعد الخلفي. أذْكُر أنني شعرت بجسدي يتجمّد، والبرد يسري في أعماق عضلاتي، وتوقف قلبي عن الخفقان لمدة ثانيتين. حينئذٍ قلت في نفسي: **هذا لا شيء، والحياة قد لا تكون ابنة عاهرة إلى هذا الحدّ.** دنوتُ أربع أو خمس خطوات. صاح أحدهم:

- حذار! إنها يمكن أن تنفجر.

فتوقفتُ، وقلبي يخفق من دون إيقاع صحيح في كلّ أنحاء جسدي. ملأ الدخان وجهي، شعرت به يلمس رئتيّ، وحرارة قوية تشقّ صدري. غطّيتُ فمي وأنفي بكمّ المعطف. حاولتُ أن أطلّ داخل السيارة لأرى ما يقع. استطعتُ أن أرى، وراء ستار الدخان، أغراضي الشخصية: ملابس، قنينة ماء، حقيبة بداخلها حاسوبي، كيس أحتفظ فيه بمعجون الأسنان والفرشاة. لكني لم أرَ النار في أي مكان. كنتُ على بعد مترين تقريباً من السيارة، ولو مددتُ يدي

لأدركتُ مقبض الباب. لكن خوفاً شديداً كان يشلّ ذراعيّ. كنت متأكداً أنه، ما إن أفتح الباب حتى تنفجر السيارة. نظرتُ خلفي: كان هناك عشرة أو خمسة عشر شخصاً فوق الرصيف، كلهم ينظرون إليّ وأنا أقترب من السيارة وهي تحترق. بدأتُ أصيح:

- هيا، افعلوا شيئاً، أيها الملاعين! تحرّكوا! افعلوا شيئاً!

ثم قمتُ بجولة حول سيارتي. في الجهة الأخرى، كان هناك دخان كثيف. لستُ أدري لماذا، لكن هذا الأمر تركني أكثر توتراً، ولم أعُد أتحكّم تماماً في أعصابي. بسطتُ يدي، وبأصابعي ضربت صفيحة السيارة بقوة كبيرة كما لو أنّ العربة كانت حيواناً نائماً أردتُ أن أوقظه. بعد ذلك، ومن دون تفكير، فتحتُ الباب الخلفي، فخرج الدخان متدفّقاً في اتجاهي. تراجعتُ إلى الخلف وسقطت على ظهري فوق الأسفلت، أغطي وجهي بيديّ.

فور ذلك، كان هناك رجل إلى جانبي، ينحني، وظهره مقوس، يحمي رأسه من الدخان. كان هو ذلك الرجل الذي كان قبل دقائق جالساً على مقعد عند باب متجر العقاقير. أطلق أنينَ ألم وتقدّم خطوتين نحو السيارة في الآن ذاته. كان يحمل سطلاً يتدلى في يده، وذراعه تتمطّط من الثقل. تقدّم خطوتين أخريين فاقترب أكثر، ثم اختفى طرف جسده الأعلى في الدخان. وفجأة، رفع السطل بكلتا يديه وأفرغ كلّ ما فيه من ماء دفعة واحدة داخل السيارة.

ألمودوفار، أنا لم أرَ شيئاً، لكنني أتصوّر أن الماء سقط فوق المقعد الخلفي لسيارتي، وتسرب على الفور إلى القماش الأسود، ليبلل ما بداخله، لتبدأ ملايين القطع الصغيرة من الثوب في التعفن، وتصدر رائحة قوية من الأكريليك المحترق يملأ بسرعة ذلك الفضاء إلى الأبد. وهذه كارثة، لأنني كنت أنام هناك.

رمى الرجل السطل فوق الأرض، وأدخل جسده داخل السيارة. عندما خرج، كان يحمل في يده غصن شجرة يزيد طوله عن المتر، به أوراق خضراء محترقة، بعضها أتت عليه بالكامل نارٌ خفيَة، ويتصاعد دخان كثيف من أجزائه. سحب الرجل الغصن عبر الأسفلت ثم تركه يسقط، بعد ذلك، على بُعد بضعة أمتار مني.

- كان غصنا أخضر، لحسن الحظ - صاح وهو يمسح العرق عن جبينه - كان الغصن أخضر فلم يشتعل، لكنه أطلق دخاناً كثيفاً.

ثم مدّ لي يده ليساعدني كي أنهض.

أتَدري، يا ألمودوفار، أنّ ذلك اللعين كان يعتقد أنني كنتُ محظوظاً؟ كان الغصن أخضر، فاحترق دون أن يطلق لهيب نار، ولم تنفجر السيارة. لكن داخل السيارة، التي هي بيتي ومَمْلكتي، عبث به الدخان وخربه الماء الذي ألقى به فوق المقعد الخلفي. من دون ذكر ما أصاب أغراضي من أضرار بسبب الدخان الذي تسرّب إلى كلّ شيء. بصراحة، كيف يمكن أن نسمّي ذلك **حظاً**؟ وددتُ لو أخذتُ ذلك الغصن، لأشعل ناره مرة أخرى، أسحبه عبر الأسفلت، فوق الرصيف وألقي به عند باب متجر العقاقير الذي ظلّ مفتوحاً. وحين يملأ الدخان المتجر، ويشعر ذلك اللعين بالدم يتجمّد في عروقه، ويتملّكه الخوف وهو يرى السخام يغطي السقف، ورائحة الفحم تتسرّب إلى الجدران إلى الأبد، ربما حينها سيُعيد النظر في ملاحظته.

ظلّ الناس ينظرون إليّ وإلى السيارة التي يتصاعد دُخانُها، بعضهم يصوّر المشهد بالهواتف. لم يكن فاسكو هناك حيث تركتُه. لم أبحث عنه، كنتُ متيقناً أنه قد انصرف إلى حال سبيله. جاء شرطي واقترب مني. كان وجهه حازماً، وكلّ العضلات حول عينيه متوترة. سأل عن صاحب السيارة، فرفعتُ يدي.

- ما الذي حدث؟

- كان هناك غصن شجرة يحترق داخل السيارة - أجابه الرجل الذي أطفأ النار.

- مَن الذي وضع ذلك الغصن هناك؟ - سأله الشرطي.

لم يقل الرجل الذي أطفأ النار شيئاً. فهززتُ كتفيّ وحركتُ رأسي. ثم قلت في نفسي: **إنهم المراهقون، أصدقاء فاسكو.**

- لا أعرف - أجبتُ - لم أرَ شيئاً. عندما انتبهتُ للأمر كانت السيارة تحترق.

- هل تريد أن تطلب شاحنة قَطْر؟ - سألني.

مشيتُ حتى بلغتُ السيارة. فتحتُ الباب، دخلت وجلست عند المقود. كان الجو ساخناً، ورائحة البلاستيك المحروق قوية لا تُطاق. التفتُّ لأرى ما وقع. كان هناك ثقب قطرُه نصف متر في الثوب في الجهة اليمنى من المقعد، وإسفنج الحشو بادٍ للعيان، متآكل، ذائب ومبلّل، كأنه جرح في جنب حيوان. كان كلّ شيء أسود: الكرسي، والسقف، والأرضية، والبلاستيك الذي يغطي الأبواب. أذكر أنني قلتُ في نفسي: **هذا سبب كافٍ يسمح لي بقتل شخص ما.**

اقترب الشرطي وانحنى ليطلّ إلى داخل السيارة، مستنداً إلى يده التي وضعها على الباب المفتوح. قال شيئاً ما لا أذكره. كنت أريد أن أخرج من هناك بسرعة. أشعلتُ المحرك فاشتغل على الفور. انتظرتُ بضع ثوان لأرى إن كانت السيارة ستنفجر. بعد ذلك، نظرتُ إلى الشرطي. تفحّص بنظره المقعد الخلفي، ثم كشّر بوجهه. فور ذلك، نظر إليّ من جديد وأشار بحركة من رأسه. أغلق أبواب

السيارة، الباب الأمامي والأبواب الخلفية، ثم تراجع خطوتين إلى الوراء. فانصرفتُ لحالي.

ألمودوفار، وأنا أقود السيارة، من دون وجهة محدّدة، حاولتُ أن أكون عملياً. شعرتُ كما لو أنه هناك في الأسفل، كان ثمة بحر مظلم ورغبتي القوية هي أن أقفز ورأسي إلى الأمام، جسدي ممطّط ومستقيم، حتى أن أنغمس إلى أعمق مدى، أفقد الاتجاه وأترك التيارات تحملني، ثم أبكي مصيري إلى الأبد. إلّا أنّ ذلك لم يكُن ممكناً. كانت الساعة تُشير إلى السابعة والنصف مساء، والليل بدأ يحلّ بسرعة، بعد أن توارَت الشمس خلف المدينة ونزلت الحرارة بعشر درجات. فسيطرت على أفكاري بكاملها الحاجةُ الملحّة للعثور على مكان أقضي فيه ليلتي. لم تعُد السيارة خياراً ممكناً، لأنني كنت أشعر بالغازات السامة تتناثر من المواد المحترقة وتتراكم في الهواء من حولي. ولم أكُن أستطيع أن أتّصل بأيّ أحد لطلب المساعدة. لم يكُن ذلك خجلاً، بل فقط لأنني لم أستطِعْ أن أقتنع بأنني لم أعُد مكتفياً بذاتي، وأن جسدي لم يعُد يسعفني لمواجهة المحن.

كانت أول فكرة خطرت لي هي أن أعود إلى البيت. فالمفاتيح ما زالت معي والبنك لن يكون قد باعَ الشقة بسرعة، ولا بد أنّ الغرف ظلّت فارغة. أدخل إلى الشقة، أرتاح، ثم أفكّر في الوضع بهدوء. هل أنا مطرود من بيتي؟ هل أنا من دون مأوى؟ وفي الصباح الباكر، قبل طلوع الشمس، أخرج دون أن يراني أحد. لكن، عندما وصلتُ إلى هناك، لم يلج مفتاحي في قفل الباب. فكان أول ما فكرت فيه أنني ربما رأيت كلّ ذلك في حلم أو ربما لم يسبق لي قطّ أن عشتُ في هذا البيت. لكنهم غيَّروا القفل، فعلاً. كما لو أنّ

الملاعين كانوا يعرفون أنّ بعض المراهقين سيضرمون النار في سيارتي وأنني لن أجد من خيار أمامي سوى أن ألجأ إلى البيت الذي بعتُه إياهم.

جرّبْتُ كلّ المفاتيح التي كنتُ أحملها في سلسلة المفاتيح، على أمَل أن يفيدني أيّ واحد منها. وهذا قد يكون حظاً، بالفعل. لم ينفع أيّ مفتاح في فتح قفل الباب. لكن، في تلك اللحظة، وأنا أنظر إلى سلسلة المفاتيح، خطرت لي فكرة أخرى. كانت السلسلة تتكوّن من ستة مفاتيح، اثنان خاصّان بوكالة الأسفار. ألمودوفار، في السنة الماضية طردوني من وكالة الأسفار التي اشتغلتُ فيها لمدة ثماني عشرة سنة، لكنني لم أُعِدْ لهم المفاتيح قط. لم يكُن ذلك شكلاً من أشكال الاحتجاج، بل مجرد نسيان من طرفي، وهم أيضاً لم يطالبوني بالمفاتيح. أتذكّر آخر مرة اتّصل بي المدير السابق، قبل شهر أو شهرين، ليحكي لي عن تقاعده المبكر وأسفاره عبر العالم رفقة زوجته. كما قال لي إنّ المحل ما زال معروضاً للكراء. يمكن أن أتخذ منه مكاناً أنام فيه لبعض الوقت.

صعدتُ إلى السيارة، وحماسٌ عارم يسري تحت جلدي. لم أكُن قادراً على التحكّم في ساعديّ وأنا أقود السيارة وأعبُر المدينة بسرعة. كان ذلك الانتصار الصغير على العالم هو كلّ ما أحتاجه لكي أستمر، وأشعر، ولو للحظة، أنّ جزءاً من هذا الكون يقف إلى جانبي. أشعلتُ المذياع، فاخترق صوت الموسيقى روائح الأشياء المحترقة. دندنتُ أغنية ما، لم يسبق لي أن سمعتها. بعد ذلك، عبستُ وجهي فجأة، وقلت في نفسي: **ربما يكونون بدورهم قد قاموا بتغيير مفاتيح الوكالة**. لكن، رغم ذلك، ينبغي أن أجرّب حظي. ثم إنه ليس لدي من حلّ آخر.

أوقفتُ السيارة في الصف الثاني أمام العمارة، وبقيت هناك هادئاً. كانت الساعة تُشير إلى التاسعة ليلاً تقريباً. كان باب العمارة باباً زجاجياً واسعاً، ومغلقاً رغم أنّ الضوء يملأ البهو. نظرتُ إلى أعلى، إلى نوافذ الطابق الرابع: كانت الأضواء مطفأة، ولا يبدو أن هناك أحداً بالداخل. بقيت أنتظر على هذا الحال مدة عشر دقائق. خلال ذلك الوقت، خرج ثلاثة أشخاص ولم يدخل أحد إلى العمارة التي أصبحت فارغة. كان هناك عدّة أشخاص في الشارع، ووسطُ المدينة يبدو أنه لا يبالي بحلول الليل: أشخاص يذهبون لتناول العشاء خارج البيت أو إلى السينما، أشخاص يتجولون، سائحون، أزواج، مجموعات من ثلاثة، أربعة، أو خمسة أشخاص يمرّون في كلّ الاتجاهات. وكثيرٌ من السيارات. كما لو أنّ كلّ الناس مضطرّين للمرور من هناك قبل أن يتوجّهوا إلى أيّ مكان آخر. ويبدون جميعاً منشغلين. يدخلون إلى المطاعم ليأكلوا كأنهم ذاهبون ليحلّوا حسابات البلد السلبية، كما لو أنّ حضورهم في ذلك المكان، وفي تلك الساعة، شيء حاسمٌ لبقاء النوع البشري. وكانوا يبدون سعداء، واثقين من حركاتهم، ثقة عبثية في صباح اليوم الموالي. فهل يكونون قادرين على أن يتخيّلوا أنه داخل تلك السيارة كنتُ أنتظر اللحظة المواتية لأقتحم ملكية خاصة؟ هل يكونون قادرين على تصور الحافة التي كنتُ أمشي فوق هوامشها؟ إن لم يكونوا قادرين على كلّ ذلك، فإنّ فشلهم أمر لا يُصدق، وغير مقبول، بل يدلّ على جَهل يلامسُ الانحراف.

شغلتُ السيارة وقطعت حوالي مئة متر، ثم وجدتُ مكاناً وركنتُها. وضعتُ كلّ ما كان داخل السيارة في الصندوق الخلفي، ثم ملأتُ حقيبة ظهر ببعض الملابس، وحقيبة الحمام والحاسوب.

ولجتُ العمارة وطلبتُ المصعد. عندما انفتح الباب، كان هناك رجل يرتدي بدلة رمادية، زرّ قميصه الأول مفتوح، ويضع ربطة عنق مفتوحة. كان يحمل حقيبة سوداء وَرَباً على صدره. فكرتُ في الهروب، لأنه لن يقبض عليّ. لكن الرجل قال:

- مساء الخير.

فأجبته:

- مساء الخير.

ثم دخلتُ فوراً إلى المصعد. انغلق الباب فاختفى الرجل. نظرتُ إلى نفسي في مرآة المصعد: بدلة زرقاء، شعر ممشوط، لحية مبتدئة تغزو وجهي. كنت أبدو كأنني شخص قضى اليوم بكامله جالساً في مكتب، ينظر إلى شاشة حاسوب، يعمل بجدّ وهو منهمك في ما يقوم به.

تركني المصعد في الطابق الرابع. قبل أن أخرج، ضغطتُ على زرّ الطابق الأول، وعندما انغلق الباب خلف ظهري، نزل المصعد من جديد. لم أشعل الضوء. بحثتُ عن المفتاح وسط الظلام ثم تحسستُ قفل الباب. دخل المفتاح في القفل، فأدرتُه مرة، مرّتيْن، ثلاث مرات، ثم أربع مرات. عندما انفتح الباب، دخلتُ بسرعة وأغلقته من جديد وأنا أدير المفتاح أربع مرات.

دخلتُ إلى الوكالة. خمسة مكاتب، قاعتان للاجتماعات، مرحاضان، وبهو استراحة. كان المكان مظلماً. بقيتُ جامداً مدّة دقيقة كاملة. انتابني إحساس بأنّ الأضواء قد تشتعل ويظهر أصدقائي وهم يصيحون: **مفاجأة!** لكن هذا لم يحدث. مشيتُ عبر الرواق، وألقيتُ نظرة على المكاتب. كانت ستائر النوافذ مرفوعة، وأضواء المدينة، خضراء وحمراء وزرقاء، تقفز إلى داخل الوكالة عبر

الزجاج. كانت المكاتب وخزانات الحديد دائماً في مكانها كما لو أنه لم يُخبرهم أحد بأنّ الشركة قد أغلقت أبوابها. لكن، لم يكن هناك شيء آخر غير هذا، لم تكن هناك وثائق، ولا ملفات، ولا حواسيب، ولا طابعات. مررتُ يدي فوق أحد المكاتب، فشعرتُ بسجاد دقيق من الغبار فوقه. لم يشغل أحد ذلك الفضاء منذ أن أغلقت الوكالة أبوابها، وربما لم يدخل أيّ أحد إلى ذلك المكان منذ شهور.

توجهتُ نحو مكتبي السابق. أغلقتُ الباب، ثم مشيتُ على أربعٍ واندسَسْتُ تحت المكتب. كان المكان يتّسع لجسدي، ويزيد عن ذلك بقليل. وضعتُ حقيبة الظهر عند متناول يدي، وضبطتُ منبّه الهاتف على الساعة الخامسة وخمسين دقيقة صباحاً. ثم تمدّدْت فوق الموكيت الصلب والمهترئ الذي يغطي الأرضية.

قضيت ليلة فظيعة. نمتُ نوماً مضطرباً وأنا أستيقظ كلّ مرة خوفاً من أن ينكشف أمري. ثم انتظرتُ طويلاً أن يحلّ الصباح لأغادر ذلك المكان على وجه السرعة.

.8,9

تَذَكّرْ هذا الأمر يا ألمودوفار: أنا لم أستسلم قط، ولم أقُل مرة لقد انتهى كلّ شيء. ربما كان ذلك أمراً بسيطاً: كم من الناس سينتبهون لذلك؟ لن أكون سوى شخصٍ آخر من بين آلاف المستسلمين. صحيح أنني لم أعُد أملك شيئاً، ولم يعُد لي مكان آوي إليه أو أضَع فيه قدميّ، لكن، رغم ذلك، بقيت مؤمناً بهدفي ومركّزاً على بلوغه.

إنه أمر لا أستطيع شرحه. بكلّ بساطة، كنتُ أنهض كلّ صباح وأحلق وجهي، أرتدي البدلة، أضع ربطة العنق، وأبتسم أمام المرآة، كما كنت أفعَل دائماً.

تصوّرْ، يا ألمودوفار: بعد أن حاول أصدقاء ابنك إضرام النار في سيارتي، لم تكن تلك الليلة التي نمتُ فيها داخل مكتب الوكالة التي كنتُ أشتغل فيها لعدة سنوات سوى بداية سلسلة أخرى من الليالي التي قضيتُها في ذلك المحلّ المهجور. أذكُرُ أنني خرجت من ذلك المكان بعد أن تجاوزت الساعة الخامسة والنصف صباحاً. كنت منهكاً بعد عدة ساعات من الفزع، وينتابني إحساس جسدي بأنني كنت قريباً جداً من نهاية كلّ شيء. ركبتُ السيارة. جعلتني رائحة النسيج المحترق أشعر بغثيان يصعب تجاوزه بخاصة أن معدتي

كانت فارغة لأنني لم أتناول أيّ شيء طوال أربع وعشرين ساعة. ثم تابعت جولتي لبضع ساعات عبر أرجاء لشبونة. بدتْ لي المدينة صغيرة، كما لو أنه من الممكن أن يوجد المرء في كلّ شوارعها في الوقت نفسه. بعد ذلك، اكتريتُ أرخص غرفة وجدتها في فندق بئيس قرب كايش دي سودري. قضيتُ فيها يومين يبدوان لي اليوم كأنهما أعوام. لم يحدث أيّ شيء. لم أنم بما يكفي، ولم آكل تقريباً، تصفّحت دفتر **خطتي** مرات متتالية دون أن أكتشف طريقة ما لأجعلها قابلة للتحقيق. فقط كنتُ أقول في نفسي: **هذا ظلم، أيها الأوغاد! ظلم! حياتي تساوي أكثر من هذا**. أعرفُ، يا ألمودوفار، أنّ العدل ليس سوى شيء من ابتكار بني البشر، وأنّ كلّ ما يبتدعه بنو البشر ينطوي على عيوب عبثية لا يمكن تصورها، ولن يشتغل أبداً بطريقة مثالية. ومع ذلك.

على أيّ حال، بعد ليلتَين في تلك الغرفة الضيقة البئيسة، قمتُ بعملية حسابية. كل ليلة هناك كانت تكلّفني ثمانية يوروات. وما تبقى معي، أي أربعمئة يورو، ستغطي تكاليف خمسين ليلة. لكن كانت هناك مصاريف أخرى مثل الأكل، وتنظيف الملابس، والوقود. من دون الحديث عن ثلاثة وستين يورو التي أؤديها كقرض شهري للبنك. كان بإمكاني أن أمكث في الفندق لبضع ليال أخرى، طبعاً، ربما أسبوعاً أو أسبوعين، لكن هذا لن يكون سوى تأجيلٍ لأمرٍ لا يقبل التأجيل. لذلك عدتُ إلى الوكالة الفارغة.

هكذا صارَ محل الوكالة بيتي، ولم أحتَجْ سوى إلى يومين أو ثلاثة أيام. إنه لأمر مثير جداً كيف نستطيع التكيّف مع الأماكن، وابتكار علاقات ارتباط حيث لا وجود لها. لا بدّ أنّ هذا هو ما قمت به يا ألمودوفار، أليس كذلك؟ هل تشعر أنك في بيتك داخل ذلك

الثقب الذي تعيش فيه؟ شخصياً، لم أبذل أي مجهود. حين انتبهتُ للأمر كان كل الفضاء منظماً؛ أغراضي مرتبة في الخزانة التي كنتُ فيما مضى أضع فيها مطويات خاصة بكلّ الوجهات السياحية فوق الأرض، الأرضية مكنسة، سرير مريح تحت مكتبي السابق صنعته من وسادات أرائك قاعة الاجتماعات، أتعَرّفُ مكان الأشياء وسط الظلام، وأعرف كيف أدخل وأغادر خارج ساعات عمل الشركات الأخرى التي تشغل الطوابق الأخرى داخل العمارة. أصبح ذلك روتيناً عادياً، شيئاً يشبه الحياة. لم أكُن أتوفّر على ماء ساخن ولا حوض حمام، لكني سرعان ما تعوّدت على الاستحمام بالماء البارد منحنياً على المغسلة. كنتُ أتوفر على التيار الكهربائي، ولا أدري لأيّ سبب لم يتمّ إلغاء عقد الاشتراك، ربما لأنهم كانوا ينوون عرضه للكراء في أقرب وقت. وكنتُ أتوفر على الإنترنت، لأن إحدى الشركات المستقرة في العمارة، وهي دار نشر تُصدر كتباً دينية، تركت إشارة الإنترنت مفتوحة من دون حماية. كانت تصل بوضوح إلى الحمام، قرب النافذة حيث أخذت الكرسي الجلدي القديم، الدوار والقابل للحني، الذي كان يجلس عليه الدكتور موريرا. كان كرسياً مريحاً كأنه سرير أقضي فوقه ساعات طوال من الأرق.

حتى الخوف تلاشى، وحلّ مكانَه انشغالٌ عابر بأن يجدوني هناك، أنام، أعبُر الرواق لا أرتدي غير ملابس داخلية أو أحلق ذقني في الحمام. فكرتُ فيما يمكن أن أقدمه من جواب: كنتُ أشتغل في هذا المكان من قبل وجئتُ أبحث عن علب بها بعض أغراضي الخاصة الني تركتها هنا، ونسيتها.

وقد تطوّر هذا الجواب غير المقنع وصار كما يأتي: كنتُ أشتغل هنا. ما زلت أتوفر على المفاتيح، ولا أملك مكاناً أنام فيه.

ثم تحوّل إلى: أنا لا أملك مكاناً أنام فيه.

ثم أصبح، بعد ذلك: تباً لكم أيها الملاعين، أنا لا أملك مكاناً أنام فيه.

وفي الأخير، صار: هه، هه، هه، هه، هه، هه، هه، هه، هه!

صحيح، يا ألمودوفار، لم يكن لدي مكان أنام فيه.

كان بوسعك أن تطلب المساعدة.

لا، لم أكُن أستطيع القيام بذلك.

كان بإمكانك أن تذهب إلى فيانا دو كاشتيلو وتلتحق بمارتا. كل ما كان عليك أن تفعل هو أن تتصل بها وتحكي لها كلّ شيء. هي تستطيع أن تستقبلك، وقد تكافحان جنباً إلى جنب لتجاوز المحن والعقبات، وقد يساعدكما ذلك على رأب الصدع بينكما حتى تعودا كما كنتما سابقاً.

فكرتُ في هذا الأمر، ونظرت في هذه الإمكانية. لكن كان لدي إحساس بأنّ ثمة خيارات أخرى ينبغي تجريبها قبل اللجوء إلى هذا الحلّ.

ولماذا لم تُخبر شافيير بالأمر؟ لديه غرف شاغرة لم يَلِجْها منذ سنين. كان سيسعد باستقبالك. وكان بإمكانك أن تراقبه، وتعتني به.

ما كان لهذا الأمر أن يكون مفيداً. كان حزن ذلك البيت سيهزمني لا محالة. وأنا لست بطلاً لا يُقهر.

كنت تستطيع أن تطلب منه مالاً. لديه مال، لأنه تلقى إرثاً ما، ولديه حساب في البنك لم يحرّكه منذ عدة سنوات.

ألمودوفار، عليك أن تعلم أنني كنتُ لا أزال أؤمن أنني قادر على أن أتجاوز ذلك الوضع لوحدي. وكان هذا شيئاً مهماً بالنسبة لي.

أعرف ذلك. كان بإمكانك أن تسطو على محطة وقود. وينتهي بك الأمر هنا، لتُرافقني في هذه الزنزانة، تُحدّثني وتُخبرني عمّا جرى.

تباً لك، يا ألمودوفار.

كنت تستطيع أن تكتب إلى موقعنا. ربما ظهر أحدهم ليقدّم لك يد العون.

إنك لا تفهم.

إنّ طلب المساعدة ليس هو نهاية العالم. كلّ الناس يطلبون المساعدة، يا دانييل.

أنتَ لم تطلب المساعدة.

هذا صحيح. لكن في هذه الحالة، يمكن أن نستنتج أننا، أنت وأنا، نتشابه أكثر ممّا قد نظنّ.

لكنني لم أسطُ على أيّ محطة وقود كما فَعَلْتَ.

لكنك اقتحمت ملْكية خاصة، وهو الأمر نفسه تقريباً، يا دانييل. الفرق الوحيد أنهم لم يلقوا عليك القبض، إلى حدّ الساعة.

أنتَ مخطئ.

لقد أصبحْتَ مثالاً للفضيلة، بين عشية وضحاها.

ماذا تقصد بكلامك؟

إنني أتحدث بلسان برتغالي فصيح، وأنت تفهمني.

هل أنتَ غاضب مني؟

اذهَب واحكِ خُدَعك لشخصٍ آخر، أمّا أنا فلا أصدّقها.

هل أنت غاضب مني؟ أيها الوغد، أنت لا وجود لك إلّا وراء

قضبان زنزانة حيث لا يمكن لأحدٍ أن يعثر عليك. أنت غائب عن العالم وغارق في وحدة دائمة. وما تنطقُ بها من كلمات أنا هو مَن يفكر فيها مكانك. أنت لا يمكنك أن تغضب مني.

ماذا تقول؟

تباً لك ولِصَمْتك، يا ألمودوفار! يمكنك أن تقول ما تشاء، وتطلق العنان لخيالك ليبتكر كلّ الاستيهامات التي تبرّر أفعالك أو انعدامها. لأنّ الفرق بيننا حقيقي، والبون شاسع شساعة البحر. أنا لم أختفِ، أيها الوغد. وهذا هو الفرق. أنا ما زلتُ هنا. صدّقْني، كان بودّي أنا أيضاً أن أختفي، أملأ نفسي بالفراغ، أريح جسدي وذهني -لأنّ الحياة داخل الذات لا بد أنها حياة مريحة- وأظلّ هادئاً حتى أنسى ذاتي. لكن الأمور لا تجري بهذا الشكل، لا نستطيع أن نولي ظهورنا لكلّ شيء هكذا بكلّ بساطة، نبتعد ولا نعود أبداً، هذا ليس عدلاً بطريقة من الطرق. في هذه الحالة، يجدر بك أن تُلقي بنفسك في سكة القطار. ربما أنا قادر على فهم تلك اللحظة من عدم التبصّر التي تجتاح عقل كائن بشري. لكن ما تفعله وأنت قابع في زنزانتك منذ وقت طويل، لا تستقبل أحداً، لا تنظر إلى العالم من حولك، ولا تدري إن كان كلّ شيء لا يزال في مكانه هو كأن تُلقي بنفسك في سكة القطار كلّ صباح ما إن تستيقظ من نومك. أنا لم أهرب، يا ألمودوفار، ولذلك ما زال ابنُك حياً يرزق. يجب عليك أن تشكرني، على الأقل.

لن أشكرك، يا ألمودوفار. وإن شئتَ يمكنكَ أن تفكر في هذه الكلمات أيضاً مكاني، لكني لن أشكرك.

أيها الوغد! كنتُ مرتاحاً داخل سيارتي، والمدينة بكاملها كانت بيتي. كان ذلك نقطة بداية جيدة، إذ من هناك كنتُ أستطيع أن أبني شيئاً جديداً، نفقاتي محدودة، تكاد تكون منعدمة، طعام، وقود، ولا أتحمّل عبء أي مسؤولية كبيرة. كنتُ أنام جيداً. هل حدّثْتُك عن هذا، يا ألمودوفار؟ لقد حكيتُ لك أنه خلال الأسبوعين اللذين نمتُهما داخل السيارة هجرني الأرق، فكنتُ أنام خمس، ست، وأحياناً سبع ساعات متتالية، وسرعان ما تخفّ رجلاي وذراعاي، ويتلاشى الضباب الذي يخيم على عينيّ منذ زمان، فيغمر النهار عقلي بضوئه الوضاح. لكن أصدقاء ابنك ألقوا غصن شجرة مشتعلٍ داخل سيارتي. لا تنسَ أنه كان بوسعي أن أُبَلِّغ عن فاسكو، ومن خلاله يمكن للشرطة أن تصل إلى المراهقين الذين قاموا بذلك، وربما حصلتُ على تعويض عمّا أصاب سيارتي من أضرار. اللعنة! كم كنت بحاجة إلى ذلك المال. لم أُبَلِّغ عنه، لأنني لم أكُن أريد أن أتسبب لفاسكو في مشاكل مع الشرطة أو مع أولئك الجانحين الذين يتّخذ منهم أصدقاء.

صحيح، تلك الوكالة لم تكُن وكالتي، لكني لم أقُم بشيء سيئ ضدّ أيّ أحد. كان المحل فارغاً منذ سنة، ولم يخسَر أحد مالاً بسبب ذلك. وعلاوة على هذا، كان ذلك مؤقتاً، لأنني كنت أريد أن أغادر المكان في أقرب وقت ممكن.

لكنك كنت تعلم أنك لن تغادر الوكالة إلّا إذا حصلت على عمل.

كنتُ أقضي الأيام في الشارع، أنتقل من مكان إلى آخر، في المقهى، والمكتبة، وفي الحديقة إن كان الجو جيداً. ولم أكُن أذهب إلى الوكالة إلّا نادراً وفي الساعات التي تشتغل خلالها باقي الشركات المستقرة في العمارة. أغادرُ باكراً، وأعود بعد الثامنة ليلاً. من حينٍ لآخر، كنت ألتقي شخصاً من الأشخاص، فنتبادل تحية قصيرة، بل صعدت ونزلت في المصعد رفقة أشخاص آخرين. وكنت أنتظر أن يكشفوا أمري ويتصلوا بالشرطة، لكن لم يحصل أيّ شيء من هذا. عادةً ما كنتُ أقضي الصباح في أحد المقاهي في أقصى طرف الشارع، يتوفر على ربطٍ مجاني بالإنترنت. أصلُ بُعيْد الساعة التاسعة صباحاً. أطلب قهوة. أقرأ الجريدة التي يضعونها فوق المشرَب رهن إشارة الزبناء. أفتح الحاسوب، أطّلع على الرسائل البريدية، أتصفّح مواقع التشغيل، أسجّل بعض الملاحظات، أبحث عن عناوين وأرقام هواتف الوكالات، والفنادق، والمتاحف، والجمعيات السياحية، والبلديات، والمقاولات التي يمكن أن تهتمّ بموظف له مواصفاتي المهنية. كنت أبعث نصف دزينة من الرسائل الإلكترونية، ورسائل طلب العمل، رفقة نسخ من سيرتي. في الساعة الحادية عشرة، أطلب قهوة أخرى. حوالي الثانية عشرة والنصف، تمتلأ الموائد من أجل وجبة الغداء فأغادر المقهى. وفي صباح مثل تلك الصباحات، عرضوا عليّ عملاً.

جلستُ عند أقصى مائدة في المقهى، قرب الباب ثم أشعلتُ الحاسوب. كان ماتيوس على الخطّ. لم يكن ذلك عادياً، لأنه يتابع الدروس صباحاً. لم نتحدّث منذ عدة أيام. كتبتُ:

- **هل أنت هناك؟**
- **نعم. أنا هنا.**

- هل أنت في البيت؟
- نعم.
- لماذا أنت في البيت في مثل هذا الوقت؟
- أشعر بالحمى ☺.

تذكرتُ يوم كان طفلاً صغيراً، رضيعاً لا يزال في المهد، وكانت تُصيبه نوبات حمى عالية، تسعة وثلاثون أو أربعون درجة، فلا يبكي ولا يئن، لا شيء، لا شيء، يكاد لا يتحرّك، كما لو أنه لا يملك قوة المقاومة. فنظلّ أنا ومارتا نعاني في صمت، نخاف من احتمال ألّا ينجو من ذلك. فلازمني ذلك القلق إلى الأبد. لمدة خمس ثوان، قاومت الرغبة في أن أصعد إلى السيارة وأعبر البلد لأكون معه حتى تنخفض حرارة جسمه. سألتُه:

- ماذا تفعل على الخط؟
- أدرس تعاليم سيدهارتا غاوتاما.
- مَن؟
- بوذا.
- أيّ بوذا؟
- هناك بوذا واحد لا غير.
- هل تقوم ببحث في الموضوع من أجل الدروس في المدرسة؟
- لا.
- ؟؟؟
- وجدت بعض الفيديوهات على الإنترنت. رجل يشرح الطريق إلى السعادة. كان يتحدث عن سيدهارتا. فأردتُ أن أتعلم شيئاً عن البوذية.

ألمودوفار، لقد بقيتُ صامتاً لمدة دقيقة كاملة، ولم أكتب شيئاً. كنتُ مصدوماً وغصّة في حلقي. مَن يكون ذلك الرجل في الشريط ليتحدّث عن السعادة ويظنّ أنه يمكن أن يؤثر بكلماته على ذهن ابني؟ قبل عشرين سنة، كان مثل هؤلاء الأشخاص يعيشون منزوين في بيوتهم، تائهين في مكان ما من هذا العالم، يتحدّثون، ربما بصوتٍ مرتفع أحياناً، لكن أصواتهم لم تكُن لها القوة لتخترق الجدران. بَيدَ أنّ الإنترنت غيّر كلّ شيء، فمنحهم إمكانية نشر فلسفاتهم الرخيصة واللزجة عبر العالم، ليضعوها رهن إشارة الجميع. إلّا أن هؤلاء الأشخاص لم يفعلوا شيئاً ليستحقوا هذه المكانة، لأنّ أفكارهم ما زالت هي الحماقات نفسها التي لا تتجاوز حدود مصفاة العقل البشري، والمدرسة، والجرائد، والكتب. إنّ قوانين الإنترنت لا تسمح بانتهاك حقوق المؤلف، وترويج محتويات جنسية شاذة، وأشياء من هذا القبيل؛ غير أنّ أي شخص يمكن أن يقول أيّ سلسلة من الأضاليل حول طريق السعادة ولا أحد يبدو منشغلاً بما يمكن لهذا الأمر أن يخلّفه من أضرار. فهل يعرف هؤلاء الأشخاص أنّ هناك أطفالاً في سن التاسعة يستمعون لما يقولونه؟

- هل تريد أن تصبح بوذياً؟

- كلا. أريد أن أكون أكثر سعادة ☺.

كان جوابُه مثل مطرقة نزلت على رأسي.

- لكنك سعيد.

- أعرف ذلك. لكني أريد أن أكون أكثر سعادة.

- ؟؟؟

- كلّ زملائي في القسم أكثر سعادة مني.

- وكيف عرفت ذلك؟

- لأنهم أجابوا عن السؤال.

- أي سؤال؟

- السؤال حول درجة الرضا عن الحياة. ذلك السؤال الذي طرحتَهُ أنتَ عليّ.

- إنه سؤال بليد.

- لقد أجابوا عن السؤال وتبيّن أنهم جميعاً أكثر سعادة مني. كان أقل معدّل هو 8,5. وكانت أجوبة ثلاث فتيات تساوي 10.

- هذا مستحيل. لا يمكن لأحد أن يكون سعيداً سعادة كاملة. إنهن يكذبن.

- سيدهارتا يقول إنّ ذلك ممكن.

لم أجِدْ جواباً على ذلك. اتكأتُ على الكرسي، شَبَكتُ أصابع يديّ اللتين وضعتهما وراء رقبتي وبقيت أنظر إلى الشاشة. كنتُ أرغب في أن أبحث عن داعية من دعاة البوذية أحمله إلى ماتيوس، وأجبره على أن يجيب عن سؤال الرضا عن الحياة أمام ابني. قد يكون جوابه قاطعاً وسخيفاً على حدّ سواء. بقيت على تلك الحال أبحث عن الكلمات المناسبة. كنتُ متعوداً على تلك المواقف، أجيب عن تساؤلات ماتيوس وفلور بفكرة لا تكون حاسمة، لكنها تمنحهما ما يكفي من الاطمئنان ليبحثا لوحدهما عن جواب نهائي. لكن شيئاً ما حدث. لأنّ أوّل جواب خطر على بالي كان هو: **لم يكن سيدهارتا غير متوهّم لم يواجه مشاكل حقيقية في حياته، ولم يعرف ما يصنع بكلّ وقت فراغه الكثير فابتكَر تلك النظريات.** اللعين! يا ألمودوفار، لو دخل لحظتها أيّ بوذي إلى المقهى لكنتُ لويت عنقه.

لكن، في تلك اللحظة بالضبط، بينما كنتُ أنظر إلى شاشة الحاسوب وأقرأ تلك الجملة التي تقول «**سيدهارتا يقول إن ذلك ممكن**»، تقاطعَ مع أفكاري صوتان لرجلان في المائدة من خلفي. ولم يستوقفني ما كانا يقولانه بقدر ما استوقفتني نبرة حديثهما: كان هناك شيء من القلق في طريقة كلامهما، لكن أيضاً حماس يكاد يكون طفولياً، كما لو أنهم على وشك أن يقفزا من طائرة وينطلقا في قفزة حرّة. لم أكُن أراهما، لكني أصَخْت السمع. كانا يقومان معاً بالعدّ بصوت مرتفع، فيما يشبه اللعب. كانا يعدّان نقوداً، ويضربانها في عدد الأيام: 30 × 155 يورو = 4650 يورو. ثم ينطقان بأسماء بعض الأدوية، لائحة لا تنتهي من الأدوية. فجأة، سكتا. تخيّلتُهما جالسَيْن الواحد قبالة الآخر، وبينهما مائدة تتراكم فوقها أوراق مالية وعلب أدوية تصلح لكلّ شيء. مرّت ثلاثون ثانية، ثم قال أحدهما:

- سنكون بحاجة إلى سيارة.

- سوف نحتاج إلى شخص يقود السيارة - أضاف الآخر.

ألمودوفار، لقد أدركتُ الأمر فوراً. لم أكُن بحاجة إلى سماع المزيد حتى أدرك أنه كانت هناك فرصة عمل، وأن هذين الرجلين يملكان عملاً يُناسبني.

نقرت على المفاتيح رسالة إلى ماتيوس:

- **سوف نتحدث لاحقاً.**

ثم أغلقتُ الحاسوب.

استدرتُ فوق الكرسي. كان أحد الرّجليْن أمامي، والآخر يبدو لي جانبياً كانا شابين، 25 أو 30 سنة تقريباً. مَن كان أمامي كان ذا لحية طويلة وكثّة، جد شقراء، تكاد تكون صفراء، رغم شعره الكستنائي. أمّا الآخر، فكان يضع نظارتين بعدستَيْن لم أرَ أكثر

منهما سُمكاً لدرجة أنّ عينيه تبدوان كأنهما تطفوان في حوضَيْن من ماء. كانا شبيهَيْن رغم أنه، في الحقيقة، لم تكُن هناك أيّ أوجه شَبَه في وجهيهما، ففكرتُ أنه ربما يكونان من أبناء العمّ. فوق مائدتهما، كانت هناك قنينتان من الماء المعدني، كوبان ودفتر مفتوح في صفحة امتلأت بخربشات كانت عبارة عن أرقام، وجداول، ولوائح. انتظرتُ أن يلتفتا نحوي، فلم يفعلا. لذلك قلتُ:

- أستطيع أن أقود السيارة.

ثم رفعا رأسيْهما باتجاهي، تعلو محيّيْهما تكشيرتان تنمّان عن دهشة وارتباك، كما لو أنني أتحدّث بلغة غريبة.

- أنتما بحاجة مَن يقود السيارة. وأنا أستطيع أن أقود السيارة.

نظرا بعضهما إلى بعض، ثم نظرا إليّ بعد ذلك. ابتسما نصف ابتسامة تقريباً، لأنهما لم يجدا ما يقولانه، فأردفتُ:

- أملك رخصة سياقة منذ ثمانية عشر عاماً ولديّ إحساس جيد في تحديد الاتجاهات. كما أنني أملك سيارة. وأنتما بحاجة إلى سيارة.

بيد أنهما ظلّا ينظران إليّ دون أن ينبسا ببنت شفة، كما لو أنني قلتُ نكتة وكلّ ما عليهما القيام به هو انتظار أن أنهي كلامي ليبدآ بالضحك، بينما كنتُ أقول في نفسي: إننا نضيّع وقتاً ثميناً، قد أكون الآن جالساً خلف المقود، أقود السيارة إلى حيث تريدان، أشتغل وأكسب مالاً. إنّ العالم لا يتقدّم بسبب مثل هذه المآزق، فاتّخِذا قراراً أيها الغبيين!

- هل أنتما بحاجة إلى سائق؟ - سألتُهما، وأنا أنظر إلى الرجل قبالتي.

كانت هناك ثانية أخرى من الدهشة على وجهه، لأنه إلى غاية تلك اللحظة لم يدرك أنني كنتُ أتحدّث بجد.

- نعم - قال أخيراً.

- يمكنني أن أشتغل سائقاً.

- هل سبق لك أن اشتغلت سائقاً؟ - سألني الرجل الآخر.

- كلا. اشتغلتُ لمدة عشر سنوات في وكالة أسفار أغلقت أبوابها في السنة الماضية. وأنا الآن عاطل عن العمل.

- عاطل عن العمل؟

- نعم. لكني أريد أن أشتغل. أريد أن أشتغل حقاً. وإن كنتما بحاجة إلى سائق فأنا أستطيع أن أقوم بهذه المهمة.

نظرا إلى بعضهما مرة أخرى، ورأساهما يميلان نحو الجهة نفسها، كما لو أنّ كلّ واحد منهما مرآة للآخر. بقيت صامتاً، وتركت لهما فسحة من الوقت.

- ما رأيك؟ - سأل صاحبُ النظارتَيْن السميكتَيْن الآخَر.

- لستُ أدري. أظن أنه ينبغي لنا أن نجري مقابلات مع أشخاص آخرين.

- يمكن أن نقرّر الأمر بسرعة.

- إنه ليس سائقاً محترفاً.

- أظن أنّ هذا ليس مشكلة. الرجل يبدو جدياً.

- إنه عاطل عن العمل.

- إنه يرتدي ملابس محترمة، ويحلق لحيته.

- أظنّ أنه ينبغي ألّا نتسرّع. ونحن لم نتحدث حتى عن قيمة أجرة هذا العمل.

- يمكن أن ندفع أجراً قليلاً. الرجل عاطل عن العمل، ويمكن أن يقبل أيّ عرض.

صدِّقْني، يا ألمودوفار، إنني لم أكُن أتخيّل حديثاً مفترَضاً يدور بينهما حول مسألة تشغيلي. كانا يتحدثان أمامي، كما لو أنني لم أكُن هناك، من دون حرَج، ولا مصفاة رقابة، بصراحة مرعبة. الوغدان! فكرتُ أن أنهض وأغادر المقهى. لم أفكّر يوماً في أن أشتغل سائقاً أو نادلاً، أو صرّافاً في سوق ممتاز، أو عامل نفايات. لم أكُن بحاجة أن أرمي بنفسي وأشتغل في أوّل فرصة عمل أجدها في طريقي. كان بإمكاني أن أبحث عن وظائف أخرى، وربما يكون عمل سائق شيئاً ليس من الصعب الحصول عليه مثل العثور على عمل في وكالة أسفار.

- ما هو عرضكما؟ - قلتُ مقاطعاً.

حدجني صاحب اللحية بنظرة، ثم رفع يداً مبسوطة وقال:

- لحظة، من فضلك.

- لدي سيارة - قلتُ.

- لحظة، من فضلك - قال مرة أخرى.

كان ذلك لُعبة، يا ألمودوفار. كانت حرباً. نحن الثلاثة، وسط المقهى، نتواجه بالنظرات، نضبط ببرودة تنفّسنا، كلّ واحد ينتظر أن يبدأ الآخر بالهجوم أولاً. في ذهني، تصوّرتُ الأشخاص الجالسين في الموائد الأخرى يشدّون أنفاسهم وهم يتابعون كلّ حركة من حركاتنا، كلّ نظرة نتبادلها، ويرون كيف كان الهواء بيننا يمتلأ بصمتٍ يمتدّ لوقتٍ أطول. كنتُ مستعداً للنضال حتى آخر رمق، لأنه لم يكُن لديّ ما أخسره وتلك الوظيفة كانت مهمة جداً بالنسبة لي.

نظرتُ إلى صاحب اللحية لبضع ثوان، ثم قلت له:

- إنّ زميلك معه حقّ. أنا عاطل عن العمل، ويمكن أن أقبَل أيّ عرض، فقدّما لي عرضاً.

مرّت عشر ثوان. ثم قدّما لي عرضاً. قبلت على الفور، من دون نقاش، ومن دون أن أفكر حتى فيما يعرضانه عليّ. كان عرضاً بئيساً: أربع ساعات من العمل يومياً مقابل 4,20 يورو عن كلّ ساعة عمل بالإضافة إلى مصاريف الوقود، وأتحمّل أنا تكاليف صيانة السيارة. ويتمثّل العمل في تسليم أدوية إلى الناس في بيوتهم ستّ فترات زوالية كلّ أسبوع، بين الثالثة والنصف زوالاً والسابعة والنصف مساء.

لم يكُن الرجلان من أبناء العم، بل أخوين شقيقين. كانا يملكان صيدلية تقع في الشارع نفسه حيث توجد الوكالة التي كنتُ أنام داخلها. كان والدُهما، بالأحرى، هو مَن يملك الصيدلية، وقد درسا كلاهما تدبير المقاولات، وكان أصغرهما، صاحب النظارتَيْن السميكتَيْن، يتابع دراسة ماجستير في التسويق، ولا أحد منهما يفقه شيئاً في مجال الصيدلة. لا يشتغلان في الصيدلية لكنهما يقضيان داخلها كلّ سحابة يومهما تقريباً. كانت لديهما مشاريع كبيرة ويريدان وضع سلسلة من استراتيجيات التسويق التجاري، تطوير خدمات موازية، إعادة تهييئ فضاء المتجر، وتقليص النفقات الإدارية غير الضرورية. يتحدّثان عن ذلك المشروع العائلي الصغير كما لو كان شركة متعدّدة الجنسيات. وبينما كنّا نتوجه نحو الصيدلية لم يكفّا عن القول إنّ والدهما قد فَقَد زمام ممارسة التجارة، وأنّ العالم يتغيّر كلّ يوم بينما هو لا يزال يسيِّر مخزون السلع كما لو أنه في ثمانينيات القرن العشرين، يتجاهل وجود الإنترنت، ولا يريد سماع أيّ حديث عن خلق شعار جديد خاص بالصيدلية، لأنّ ذلك

الشعار القديم، الذي يمثل صليباً لامعاً يبرز خلف جبل، كان عمره أكثر من خمس وعشرين سنة. كانا قد طرحا على والدهما فكرة تزويد الأشخاص بالأدوية في منازلهم قبل سنة تقريباً، لكن مقاومة الأب استمرّت لعدة شهور، إلى أن ظهرت في شهر يناير صيدلية موازية على بُعد أربعة شوارع فانهارت المبيعات. عندما قدَّماني لوالدهما، حَدَجَني العجوز بنظرة خاطفة، وابتسم دون أن يفتح ثغره، وهو يهزّ كتفيه بشكلٍ خفيف. كان اسمه أرنالدو ساكادورا. كان شكله متناقضاً: من جهة، كان شبه أصلع، يداه ترتعشان ويمشي مقوّس الظهر تحت وطأة حدبة تملأ ظهره، ومن جهة أخرى، كان يتحرك كأنه طفل في العاشرة من عمره. لم يقُل شيئاً وحرّك يده أمامي وباتجاه ابنيه كما لو كنّا ذباباً.

- إنكما مجنونان - تنهّد أخيراً وهو يتوارى خلف مكتب الأداء.

لم يكونا مجنونَين. لكنهما كانا يظنّان أنّ الحياة سهلة، حيث أيّ شيء يكون في متناول اليد بمجرد التفكير فيه. لم يكُن العمل، بالنسبة إليهما، شيئاً مهماً، بل ولا المال، وكل شيء يتلخص في الإرادة. دخلا غمار الحياة وهما يتمتّعان بامتياز عن معظم الناس مثلنا: مقاولة عائلية صلبة يصعب أن تتزحزح رغم الظروف الاقتصادية الصعبة. كانا يذكّراني بك أنت، يا ألمودوفار. كان بإمكانك أن تكون مثلهما. لو لم يترك والدك متجر الأحذية شبه غارق في الديون، والمحل بحاجة إلى كثيرٍ من الأشغال والإصلاحات، لكنتَ مثلهما.

بدأتُ العمل بعد أسبوع، على أن يكون الشهر الأول تجريبياً

كما اتفقنا، ليس فقط لرصد قدراتي في توصيل الأدوية إلى البيوت، بل أيضاً للتأكّد من نجاعة تلك الفكرة المبتكرة. قاما بطبع ألفَي منشور إشهاري يعرِّف بالخدمة الجديدة ويقترح تخفيضات مثيرة: التوصيل الأول مجاني، والتوصيلات الموالية تكلّف ثمناً محدداً في 2,50 يورو مهما كان مبلغ الطّلبية. قضيتُ يومين أجول في الحي وأنا أوزّع تلك المنشورات على طاولات المقاهي، وصناديق البريد، وزجاج السيارات. وفي ساعات الذروة، كنت أقِفُ عند مدخل قطار الأنفاق، أمدّ ذراعي نحو الحشود التي تمرّ في كلّ الاتجاهات، على أمل أن يتلقّف أحدهم تلك الورقة التي أحملها في يدي.

نجحت الفكرة، وكان الأخوان على حقّ: كان الناس مستعدّين للدفع فقط كي لا يضطرّوا لمغادرة بيوتهم لشراء الأدوية، أو الحفّاضات، أو الواقيات الجنسية أو المراهم، أو أقراص منع الحمل. (منذ متى صار التخلّص من الخُفّين وارتداء الحذاء للنزول في المصعد أو عبر الأدراج ثم المشي لمئتين أو ثلاثمئة متر شيئاً يساوي 2,50 يورو؟). بطريقة ما، لم يكن البلد غارقاً في الأزمة كما كنّا نتصور. أو ربما كان غارقاً حقاً؛ كان رأسه تحت الماء، بالفعل، لكن الناس كانوا يرفضون معرفة ذلك.

لم يتوقف الهاتف عن الرنين منذ اليوم الأول. كنتُ أجلس فوق مقعد في الصيدلية وأنتظر أن يملأ الدكتور أرنالدو أو مساعدوه حقيبة مُحكَمَة الإغلاق بالطّلبيات. ثلاث أو أربع طلبيات دفعة واحدة، وأحياناً أكثر من هذا العدد. بعد ذلك، أخرج، أمسك الحقيبة بكلتا يديّ، وأحافظ عليها في وضعٍ أفقي، كما لو أنها تحوي حلوى بداخلها، أو حساء، ثم أمشي فوق الرصيف حتى أبلغ السيارة، التي عادة ما تكون واقفة في شارع متعامد، عند المنعطف، حتى لا يراها

الدكتور أرنالدو، ولا ولداهُ، ولا المساعدون الذي يشتغلون في الصيدلية. لم أكُن أرغب في أن يكتشفوا أنني أقوم بتلسيم الطلبيات في سيارة بها علامات ضرر واضحة للعيان، زجاجها الأمامي مكسّر، نافذة المقعد الأمامي على اليمين مغطاة بالبلاستيك وداخلها مُحترق، أسود، تملأه رائحة كريهة تفوح من المواد المتعفنة.

ألمودوفار، من الممكن جداً أنه، هناك في ذلك الملجأ حيث يختبئ الجبناء مثلك، لن تكون قادراً على تصوّر مدى فرحتي في الحصول على عملٍ بعد سنة من العطالة. وفوق هذا، كنتُ أقوم بعملٍ إنساني. كنتُ أحمل النجاة، والراحة. كنتُ ملاكاً. ليتك رأيتَ تعابير العرفان بالجميل الأبدية على وجوه الزبناء عندما يفتحون لي الباب، يضعون ملاءة على ظهورهم، يستندون إلى الجدار حتى يظلوا واقفين، يعانون من كلّ أنواع الأمراض. كان إحساساً رائعاً يرافقني لساعات طوال ويُنسيني بشكلٍ ما كلّ شيء سيئ من حولي. كانت الساعات تمضي بسرعة، وسرعان ما يحلّ الليل وينتهي دوري، رغم أنني أكون مستعداً لأستمرّ في العمل طوال الليل حتى الصباح، لأنّ التعب لا ينال مني. كنتُ أتحدث كلّ يوم مع الدكتور أرنالدو وأقترح عليه أن نمدِّد ساعات العمل، وهكذا نكون جميعاً رابحين: الصيدلية، أنا، والزبناء. لكنه يكتفي بأن يهزّ كتفيه ويقول، دون أن يفتح فمه تقريباً:

- اهدأ من فضلك! علينا أن نبدأ بهدوء.

كنت أرغب في أن أقبضَ على عنقه، أسنده إلى الجدار وأرجّه رجّاً كي يستيقظ. كيف لي أن أهدأ؟ كانت تحدث أشياء لا تصدَّق من حولنا، والعالم بدأ يتحرك من جديد وما علينا سوى أن نواكب حركته، بكلّ سهولة. لكن ذلك الوغد العجوز كان يريد الهدوء،

وهذا غير ممكن. ألمودوفار، بهذه الطريقة البطيئة جداً لن نخرج أبداً من هذا المستنقع الذي نغرق فيه.

عند بداية الأسبوع الثالث من العمل، اتصلتُ بشافيير. كنتُ متحمّساً، ولاحَظَ ذلك في نبرة صوتي.

- ما بك، يا رجل؟

- أعتذر لأنني لم أجِب على رسائلك.

- هل تعلم أنني بعثتُ لك سبعاً وعشرين رسالة إلكترونية؟

- كنت مشغولاً. أودّ أن أطلب منكَ شيئاً.

- كان بإمكانكَ أن تردّ عليّ.

- كنت مشغولاً جداً، يا شافيير.

- هل فتحت الرسائل على الأقل؟

- طبعاً، - قلتُ رغم أنني لم أفتح أيّ رسالة من رسائل شافيير الإلكترونية منذ ثلاثة أشهر تقريباً.

- وهل شاهدت شرائط الفيديو؟

- همممم.

- هل شاهدتها أم لم تشاهدها؟

- شاهدتُها.

- يا لكَ من لعين بئيس، يا دانييل!

- معكَ حق. لستُ سوى لعين بئيس.

لكني لم أكُن أعرف عمّا كان يتحدث شافيير. كان هناك شيء من التوتر في نبرة صوته، يمدّد مقاطع الكلمات ويفصل بينها بوقفات طويلة. كما لو أنه اكتشف أنّ هتلر لا يزال حياً ولم يعرف كيف يستمرّ على قيد الحياة بعد الحصول على هذه المعلومة. لكني كنتُ

متحمّساً أكثر من اللازم حتى أرغب في الاطّلاع على مشاكل شافيير.

- لا يمكننا أن نظلّ مكتوفي الأيدي.
- نتحدث عن هذا الأمر فيما بعد. أودّ أن أطلب منك شيئاً.
- . . .
- أما زلت تحتفظ بلائحة مؤشّر السعادة الخاص بكلّ بلد من بلدان العالم؟
- نعم.
- أريدك أن تقول لي ما هو البلد الذي يبلغ معدّل مؤشّر السعادة فيه 8,9.
- 8,9؟
- 8,9.
- أيّ شخص تعرفه وتبلغ نسبة رضاه عن الحياة 89%؟
- هذا أمرٌ لا يهمك.
- هل تكون أنت؟
- هذا أمر لا يهمك.
- إنه أنت - صاح شافيير، بنبرة ساخرة قبل أن يُطلق تنهيدة.

ثم أضاف:

- أتعرف أنّ هذا أمر بعيد الاحتمال؟ لا بدّ أنك أخطأت الحساب.
- لا تزعجني بمسألة الحساب هذه، يا شافيير، وقُلْ لي اسم البلد.
- لا يوجد أيّ بلد يبلغ معدّل مؤشّر السعادة فيه 8,9 من 10.
- لا يوجد؟

- كلا. البلد الذي يتربّع على قمة اللائحة هو كوستاريكا، بمؤشّر 8,5.

حاولتُ أن أتذكر قائمة البلدان. أظنّ أنني كنتُ مقتنعاً أنّ أول بلد على رأس اللائحة ربما يبلغ مؤشّر السعادة فيه 10. لكن ذلك كان مستحيلاً استحالة ركوبي سفينة فضائية ذات يوم وبلوغ أقصى حدود الكون.

- أليس هناك من شخص في العالم تبلغ نسبة رضاه عن الحياة 89%؟

- لا بدّ أن هناك شخصاً ما، - قال شافيير - لكن هذا النوع من الناس نادر جداً. لا أعرف منهم أحداً. والحقيقة أنني لا أرغب في معرفة أيّ شخص من هذا النوع. لكن الرقم يشير إلى متوسط مؤشّر السعادة في البلد بكامله. انتظر ثانية أخرى...

لَزِمَ لحظة صمت، ثم سمعتُه يحرّك بعض الأوراق. لم أكُن أرغب في الاستماع إلى ما سيقوله، لأنّ الحديث كان على وشك أن يصبح غارقاً في التقنية، وأنت تعرف كيف هو شافيير.

- ها قد وجدتُ اسم البلد! قال. - إنه كوستاريكا. يبلغ الانحراف المعياري 1,71، وهي نسبة ليست جد مرتفعة. ورغم ذلك، من شبه المؤكد أنه يوجد في كوستاريكا أشخاص يبلغ مؤشّر سعادتهم 8,9 من 10. لكن، بالنسبة إلى معدّل وطني، يعتبر 8,5 أحسن مؤشّر يمكن الحصول عليه فوق هذا الكوكب. ولو فكّرتَ ملياً فيما يمثّله هذا الرقم، فإنه ليس سيئاً تماماً. لدي يقين بأنّ أهل كوستاريكا بمؤشّر سعادة يفوق 8,5 يشعرون بالرضا عن الحياة أكثر من غيرهم من سكان الأرض. لو كان لي مؤشّر سعادتك لذهبتُ لأعيش في كوستاريكا.

- أنا لا أريد أن أذهب لأعيش في كوستاريكا.

أطلق شافيير قهقهة رنّانة عالية، ثم أردف:

- ثم إن مؤشّر سعادتك ليس هو 8,9.

- أنتَ مَن يقول هذا.

- كيف حصلت على هذا الرقم؟

- فكرتُ ملياً في الأمر.

- هل استعملتَ ورقة وقلماً؟

- لستُ بحاجة إلى ورقة وقلم كي أفكّر، يا شافيير.

- إذاً أنت على خطأ. فحساب شيء شامل ومعقّد مثل سعادة كائن بشري واحد يستوجب استحضار كمّ هائل من المعلومات، والأرقام، والذكريات، والمعطيات، والجداول، والأحاسيس، والرغبات... إلخ، لدرجة أنّ دماغك قد لا يكون قادراً على معالجة كلّ هذا من دون الاستعانة بورقة وقلم. حتى لا نتحدّث عن الحاجة إلى آلة حاسبة أو حاسوب.

- لستُ أدري لماذا أستمرّ في الاتصال بك، يا شافيير.

- إن 8,9 ليس هو رقمك. كُنْتَ تريده بكلّ قوة أن يكون رقمك فأصبحتَ مقتنعاً بأنه كذلك. ممّا ينمّ عن تفاؤلك، وهذا مؤشِّر جيد. رغبتكَ في أن تكون سعيداً تجعلك ترتقي بضع درجات في القائمة، لكن 8,9، هذا رقم لا أصدّقه.

- إنك مجرد منافق خسيس، يا شافيير.

- كلا، يا دانييل، أنتَ المنافق الخسيس. لا تفقه شيئاً في السعادة، وجئت تسألني ماذا يعني مؤشّر سعادة يبلغ 8,9 إن كان هناك من بلد يبلغ معدّل مؤشّر السعادة فيه هذا الرقم.

- أيها الوغد، إنني أفقه في السعادة أكثر ممّا تفقه أنت.

- كلا. إنّ كون رغبتك في السعادة أكثر من رغبتي لا يعني أنّ لديك إلماماً بهذا الموضوع يفوق إلمامي به.

- لتذهب إلى الجحيم، يا شافيير!

- . . .

- . . .

- فقط كنت أريدك أن تكون أكثر نزاهة مع نفسك.

- لتذهب إلى الجحيم!

-

- . . .

- وماذا عن شرائط الفيديو؟

- أي شرائط فيديو؟

- تباً لك، يا دانييل! شرائط الفيديو التي أرسلتُها إليك. تلك التي يظهر فيها مراهقون وأشخاص من دون مأوى.

- ماذا؟ ما الذي تريدني أن أقول عنها؟

- ما الذي يمكننا القيام به؟

- لستُ أدري.

- هل يمكنني أن أطلب منك خدمة، على الأقل؟ أريدك أن تذهب وتزور آفيلا.

- لماذا؟ هل حدثَ شيء ما؟

- كلا، لكن أظن أنه قد يحدث.

- إن الرجل قد تقدّم في السن، يا شافيير. هل تحدَّثتَ معه؟

- لم يزُرْني في البيت منذ مدة طويلة. نتحدث في الهاتف، من حين لآخر. أتصل به أحياناً على هاتفه الخلوي وأحياناً أطلبه في

هاتف المأوى الذي ينام فيه عادة. أعرف أنه لم يظهر في المأوى منذ عدة أسابيع. . . لا أعرف أين يقضي الليل.

- اسمع، يا شافيير. ليس لديّ وقت لأقوم بهذا الأمر. بدأت أموري تتحسّن مؤخراً، عليّ أن أبقى مركّزاً على عملي، ولا أستطيع البحث عن آفيلا.

- وماذا لو أمسكَ به أولئك المراهقون مرة أخرى؟

- لن يحدث هذا.

- كيف يمكنك أن تكون واثقاً من ذلك؟

- لن يحدث ذلك. وما وقع في موقف السيارات في المركز التجاري كان حادثاً عابراً.

- إنك لم تُشاهد شرائط الفيديو.

- ماذا؟

- أنت لم تشاهد شرائط الفيديو، يا دانييل.

- طبعاً، شاهدتُها.

- اذهَب وشاهد شرائط الفيديو، وبعد ذلك نتحدّث في الموضوع.

- اسمع. سوف أبحث عن آفيلا، أرى إن كان بخير، وأدعوه لتناول سندويش، ثم أطلعكَ على أخباره. اتفقنا؟

- أيها الوغد! اذهب وشاهد شرائط الفيديو، وبعد ذلك نتحدث في الموضوع.

- سوف تموت بسرعة - قلتُ له. لكني انتبهت إلى أنه كان قد قطَعَ المكالمة.

ألمودوفار، إن شافيير إسفنجةٌ تمتصّ كلّ شيء. مهما حاولنا

الابتعاد عنه، هناك شيء ما في صوته، في كلماته، في صمته، يمتصّنا، يستنزفنا، ويجرّنا نحو الداخل. قلقُه كبير لدرجة أنه يفيض عن حدود جسده ويغمر كلّ شيء من حوله.

لقد كان على حق.

في أيّ شيء كان على حق؟

أنتَ لم تكُن قط راضياً عن حياتك بنسبة 89%. وبخاصة في الفترة التي كنت فيها منفصلاً عن ابنَيْك، وعن مارتا، تنام تحت مكتب في تلك الوكالة، وتشتغل سائقاً في تلك الصيدلية.

إنّ آفاق مستقبلٍ أحسن سببٌ كافٍ ليجعلنا سعداء.

ربما يكون ذلك صحيحاً بالنسبة إلى منطق بعض العقول. وينبغي أن أعترف أنك متفائل بطبعك، لكن. . .

تباً لك، يا ألمودوفار! مَن تكون أنت حتى. . . ؟

هل ذهبت لزيارة آفيلا؟

ذهبتُ. لكن، ليس لأنّ شافيير طلب مني ذلك.

في ذلك اليوم، بعد أن تحدثتُ مع شافيير في الهاتف، ذهبتُ

إلى العمل في الصيدلية. كان عملي يحظى بالأولوية ولم أشغِّل الحاسوب إلّا عندما وصلتُ إلى الوكالة حوالي الساعة الثامنة والنصف. جلستُ ومددت رجليّ فوق غطاء حوض المرحاض ثم وضعت الحاسوب فوق حجري. بدأت أفتح رسائل شافيير الإلكترونية بحثاً عن رسالة تحيلني على شريطٍ ما.

لم أكُن أرغب في مشاهدة ذلك، لم أكُن أرغب في أن أورّط نفسي في حكاية تلك الجماعة من المراهقين، ولا أريد أن أكون ذلك البطل الذي ينقذ العالم كلّ أسبوع. كان عليّ أن أنقذ حياتي الخاصة. إلّا إذا كان إنقاذ العالم عملاً مقابل أجر سنوي يتكون من ستة أرقام، ومكافآت مغرية، وضمان اجتماعي، وحزمة عرض بكاملها؛ في هذه الحالة سأقوم بأقصى ما في جهدي لأنقذ العالم كلما كان ذلك ضرورياً، لكن هذه الشروط غير متوفّرة.

إلّا أنني كنتُ لا أزال أفكر في فاسكو. كنتُ قد توقفتُ عن البحث عنه ولم أعُد لأراه منذ أن أضرموا النار داخل سيارتي. بحسب علمي، منذ ذلك الشهر الأخير، كان ابنكَ يعيش لوحده. لم أكُن أرغب في مشاهدة شرائط الفيديو. فقط كنت أريد أن أعرف إن كان اسم مَن وضعها على الإنترنت هو الشخص نفسه الذي نشر ذلك الشريط الذي يظهر فيه مراهقون يتبوّلون على آفيلا.

في إحدى الرسائل الإلكترونية التي بعثها شافيير يوم 23 فبراير كان هناك رابط يُحيل على موقع لتبادل الفيديوهات لم أكُن أعرفه. وفي الصفحة التي فتحتُها كان هناك شريط يحمل عنوان «**هـ.ن.ل. الجزء الثاني**». تمّ وضعه هناك في شهر أغسطس من السنة الماضية، واسمُ المستعمل كان هو «**KingMike**». قلتُ في نفسي: **أشاهد ثلاثين ثانية، ثم أتوقف، أرمي هذه القمامة وأهتم بشؤوني**

الخاصة. نقرتُ لأشغل الفيديو. لم يشتغل الفيديو، لأنّ ذلك يتطلّب إدخال كلمة سرّ.

عدتُ إلى رسائل شافيير. كان يقول فقط: «**فيديو آخر**». فتحتُ رسالة بعثَها لي قبل ثلاثة أيام. يقول: «**هل شاهدت الفيديو الذي بعثته إليك بالأمس؟**» فتحتُ الرسالة التي بعثها لي يوم أمس. كتب شافيير: «**قضيتُ الليل بكامله في البحث، وفي النهاية وجدت كلمة السر: أي أحد. شاهِدْ الفيديو، وبعد ذلك اتَّصِل بي**». في هذه الرسالة كان ثمة رابط يحيل على فيديو من الموقع نفسه وعنوانه «**رجل في القمامة: الجزء الأول**».

أكرّرُ: لم أكُن أرغب في كلّ تلك الأمور الرديئة وفي تلك الفوضى، من شرائط فيديو لا تحملُ توقيعاً، وكلمات سرّ، وما إلى ذلك، كما لو أنني في فيلم بوليسي ألاحق قاتلاً هارباً وأنا أقتفي آثار أدلة يجمع بينها خيط رابط، وأتعقب لغزاً لن ينكشف معناه إلّا عند النهاية. اللعنة على كلّ هذا! في الحياة الواقعية لدينا الكثير من المشاغل، وعلينا أن نناضل ونحن نعلم أنّ المستقبل لم يُكتَب سلفاً، وأنّ كلّ شيء يمكن أن يقع، وأن ما يقع لا يتوقف علينا نحن فقط.

رقنتُ كلمة السر. عندما بدأ الفيديو قلّصتُ حجم شاشة الحاسوب واحتفظتُ بصوت الشريط كما هو.

الصوت رقم 1 (هامساً): إن الرجل مستيقظ، أيها الوغد. إنه يتحرك.

الصوت رقم 2: كفّ عن هذا، وساعدني... هنا... مرّرْ طرف الحبل من تحت... لا... إنه سوف... لا... لا!

الصوت رقم 1: هدّئ من روعك، يا رجل...

الصوت رقم 3 (صائحاً): الرجل سوف ينهض.

الصوت رقم 1: اللعنة! ابتعد من هناك.

عدلتُ صورة الحاسوب مرة أخرى. استغرَقت الصورة ثانيتين قبل أن تملأ الشاشة.

كان هناك رجل جالس على الأرض، فوق الرصيف، يخبط بذراعيه ويرجّهما في كلّ الاتجاهات كأنها أفاعي هائجة. كان صوته متهدجاً، ينبعث من فمه غضبٌ واهن وكلمات مفكّكة. رأسه يتدلى إلى الأمام، كما لو أن ثقله أصبح لا يُطاق. كان يبدو سكران أو تحت تأثير المخدرات أو كليهما معاً. يرتدي سترة واقية صفراء وسروال جينز. يمشي حافي القدمين. كان شعرُه ولحيته يشكّلان لبدة حول رأسه. يحاول أن يزحف فوق الأرض، لكن ساقيه كانتا مشدودتين بحبلٍ عند مستوى الكاحلين، وشُدّ طرف الحبل الآخر إلى عمود. بعد ذلك، ظهر أحدهم أمام الكاميرا وتوقّف على بُعد مترين من الرجل. كان مراهقاً. كان يغطي فمه وأنفه بمنديل، لكني لم أجد صعوبة في تعرُّفه: كان فاسكو.

تباً لك! ماذا تقول؟

أعرف أنه يعزّ عليك أن تصدّق الأمر. آسف، يا ألمودوفار.

الصوت رقم 1 (صوت المراهق الذي يصوّره): حذار!

دمدم الرجل شيئاً ما، ثم التفت نحو المراهق، الذي ظلّ هادئاً ينظر إليه. كان ذلك يشبه فيلماً رديئاً من أفلام الزّومْبي.

بعد ذلك، جاء مراهق آخر، بوجهٍ مكشوف، وظهر في الصورة، يجرّ وراءه صندوق قمامة. لستُ متأكداً، لكن بدا لي أنه هو المراهق الذي كان يتبوّل على آفيلا في ذلك اليوم، عندما باغتناهم أنا وشافيير في موقف السيارت. كان نحيفاً، حليق الرأس، يضع حلقة كبيرة في أذنه.

أمسك فاسكو والمراهق الآخر صندوق القمامة، ثم رفعاه بتثاقل وأفرغاه فوق الرجل الممدّد على الأرض. ابتعد الرجل زاحفاً كأنه عظاءة. لكنه توقف عندما بدأت القمامة تنهال عليه وانكمش، وظلّ ينتظر أن ينتهي ذلك.

أُفْرِغَ صندوقُ القمامة في ظرف ثانية واحدة. لم يعُد ممكناً تمييز شكل الرجل فوق الأرض: لم يكن هناك غير القماقة، كومة من القمامة، والرجل هناك، في مكانٍ ما.

ثم ألقيا بالصندوق الفارغ جانباً على الأرض. انحنى فاسكو على الرجل، وصاح:

- تباً لك أيها السكير اللعين!

ثم وجّه الآخر إلى الرجل ركلة أصابته في ساقيه. ضحك المراهق الذي كان يصوّر المشهد، وأطلق قهقهة متوترة.

بعد ذلك، وصل الشريط إلى نهايته.

اغرورَقت عيناي بالدموع، يا ألمودوفار، وغمرَني حزنٌ عميق. صوتُ ابنك يجلجل من حولي وزعيقه يخترق عمق ذاكرتي إلى الأبد. كان هناك سؤال يستعصي عليّ جوابه: كيف وجدَ فاسكو في نفسه القوة ليحتقر كائناً بشرياً بتلك الطريقة؟ تصوّر كلّ الحقد الذي كان عليه أن يستجمعه في قلبه حتى يكون قادراً على الكلام بتلك

الطريقة. لكن لا يوجد تفسير مقبول لما قام به. تباً! كان عليكَ أن تكون معنا، ومعه. ما كان لذلك أن يقع. هذا مؤسف.

وعلاوة على هذا، لم يكن العالم بحاجة إلى ذلك الأمر. ما كانت تقوم به تلك الجماعة من المراهقين كان شيئاً فظيعاً. كلّ يوم، يستيقظ ملايين الأشخاص، يغادرون بيوتهم، يلتقون، يتحدّثون، يتلامسون، وكلّ واحد يبذل جهداً مستمراً لاحترام الآخرين، ويمرّ كل شيء على ما يرام. كلنا في الهمّ سواسية وإنْ لم نقُم بذلك لن نعيش طويلاً، لكن مشهداً بكلّ تلك الفظاعة -ثلاثة مراهقين، صندوق قمامة، رجل سكران، مشدود إلى الأرض، وكاميرا- له حمولة سلبية قوية تكفي لتقويض كلّ شيء.

كانت هناك عدّة أشرطة فيديو، وجد شافيير ستة منها، لكن من الممكن أن يكون هناك المزيد. لم أشاهد الأشرطة الأخرى، لأنني أبَيتُ أن أترك تلك الطاقة السلبية لتخترق عينيّ. حوالي الساعة الثالثة صباحاً، هدّني الأرق فقررتُ أن أتصل بشافيير. كان مستيقظاً، لأنه دائماً يكون مستيقظاً. سألتُه عن محتوى الفيديوهات الأخرى. فأجابني:

- مراهقون. سكارى. ومراهقون يضربون سكارى، يصيحون في وجوههم، يسحبونهم من سيقانهم، يجرّدونهم من ملابسهم، يرمون عليهم الأزبال، يتبوّلون عليهم، يبصقون عليهم، يلقون عليهم أوراق جرائد حارقة، يضربونهم بالعصي، يوثقونهم بالحبال، يسبّونهم، يخنقونهم بممسحات يضعونها في أفواههم. كلّ ما يمكنك أن تتصوره.

- دائماً المراهقون نفسهم؟

- على الأقل، أربعة أو خمسة دائماً هم نفسهم.

- هل تعرّفت أحداً منهم؟

- من حادث موقف السيارات؟

- أو من أيّ مكان آخر.

- تعرّفت ثلاثة من حادث موقف السيارات. ثلاثة فقط. أنا لا أغادر البيت، يا دانييل. لماذا؟ هل تعرّفت أحداً منهم؟

- لا - قلتُ كاذباً. أظنّ أنني لم أتعرف أحداً منهم.

- علينا أن نقوم بشيء ما.

- لا، يا شافيير. لن نقوم بأيّ شيء.

- نُخبر الشرطة بما وقع.

- إنهم مراهقون، يا شافيير.

- إنهم رجال، يا دانييل.

ثم قطعنا المكالمة.

أما أنّ شافيير لم يتعرّف الآخرين في الفيديو فلا يعني أنّ فاسكو لم يكن هناك. ربما لا يذكر شافيير ابنَكَ جيداً. منذ متى لم يَرَه؟ حاولتُ أن أتذكر مناسبة من المناسبات التي زرتُ فيها شافيير صحبة ابنك. لو حدثَ ذلك، فأنا لم أكُن حاضراً. لم أشاهد الفيديوهات الأخرى، فقد شاهدتُ أكثر ممّا ينبغي. قلت في نفسي: **سوف أتحدّث معه، لكن ليس الآن**. كنتُ بحاجة إلى شيء من الوقت، يا ألمودوفار. كانت هناك غصّة عميقة في حلقي، تكاد تكون رعباً من الاقتراب من ذلك الأمر، والخوض فيه. كنتُ عاجزاً عن القيام بأيّ شيء قبل أن يتركني هذا الإحساس.

لكني ذهبتُ لأزور آفيلا. رأيتُ أنّ ذلك على الأقل، سيجعلني أتأكد أنه لا يزال حياً ثم أمضي قُدُماً. وجدتُه من دون صعوبة في

حانة دلّني عليها شافيير. كان واقفاً، يستند إلى المشرَب، بين عجوزين، وينظر ثلاثتهم إلى أعلى، نحو تلفاز عُلّق على الجدار. كانوا يشاهدون سباق الدراجات. ثلاثون أو أربعون رجلاً يركبون دراجات هوائية ويحرّكون دواساتها في مجهود كبير ليصعدوا تلّاً. لم يكن أيّ واحد من الرجال الثلاثة يتكلّم، كما لو أنهم لا يصدقون ما يقوم به أولئك الدرّاجون، كما لو أنهم لا يملكون كلمات للتعليق على إنجاز رائع مثل هذا. وضعتُ يدي على كتفه فالتفتَ نحوي، وابتسم لمّا رآني، لكنه لم يتعرّفني. كان جد سكران. جلسنا إلى طاولة.

قلتُ له:

- إن شافيير منشغلٌ بشأنك.

- شافيير شاب طيب. ينبغي له أن يخرج إلى الشارع أكثر.

قال ذلك بجدية كبيرة، ولم أفهم إنْ كان يمزح. ومع ذلك ضحكتُ.

كانت طاولتنا تحت التلفاز. تركَتْ عيونُ العجوزَيْن في المشرَب شاشَة التلفاز ونزلَت عندنا، وتعابير وجهَيهما تائهة في عتمة باردة ناتجة عن ضوء مصباح أبيض معلّق في السقف. داخل تلك الحانة، لا يحلّ النهار أبداً.

- هل أنت بخير؟ - سألتُه.

نفخ آفيلا شدقيه بالهواء، وبيديه المرتعشتين شيئاً ما تظاهر بأنه يعقد ربطة عنق وهمية. لم يقُل شيئاً.

- ألم يزعجكَ أولئك المراهقون مرة أخرى؟

- أيّ مراهقين؟

- أولئك المراهقون في موقف السيارات.

- لقد نسيت ذلك. ماذا يمكن للمرء أن يفعل؟ نحن نعيش كلّ يوم بشكلٍ مختلف، وهذا كلّ ما في الأمر. أليس كذلك؟

طرح السؤال ولم ينتظر جوابي. رفع رأسه نحو النادل، رجلٌ بدين، أصلع تماماً، يشبك يديه فوق المشرَب، يسند ذقنه إلى ذراعيه وينظر إلى الشاشة بدوره، ثم طلب منه أن يحضر كأسين آخرين من النبيذ الأبيض. لم يتحرّك النادل من مكانه، واكتفى بالقول:

- أخدمك عندما تؤدّي ثمن الكؤوس الخمس السابقة.

فأجابه آفيلا:

- سوف أؤدّي حين أُخْرِجُ محفظتي من جيبي، لكن ذلك سابق لأوانه الآن.

ثم استدار نحوي، بنظرة شاردة، جامدة، ووجهٍ يرسُمُ بداية ابتسامة مؤثرة، رأسه يتمايل بتثاقل كما لو أنه عُلّق بحبل. الوغد! كان يريدني أن أعرض عليه دفع ثمن كأس النبيذ القادمة. لم يكْفِه أنني أنقذتُ حياته.

كما ترى، يا ألمودوفار، كلّ شيء كان خاطئاً. آفيلا لم يكُن ضحية، بل كان علقة أخرى تعيش على حساب النظام، وشفقة الناس، وعدالة المجتمع. تبوّل عليه بعض المراهقين. وماذا بعد؟ لا شيء أمام ما دأب هو على القيام به منذ سنوات: يشرب كميات بذيئة من الخمر، يرتاد المراحيض العمومية مقابل يوروات قليلة لا يؤدي عنها ضرائب، ويعيش على حساب مال شافيير ولستُ أدري كم من أشخاص آخرين أيضاً. هو مَن كان يتبوّل علينا منذ عدة سنوات. فمتى أصبح الاستسلام شيئاً غير مقبول؟ كنّا أحسن من هذا بكثير، كانت هناك قوة عظيمة تحرّك فكرنا، ولم يكُن الضعف الجسدي كافياً ليكبح إرادتنا. انظُر كيف أصبحنا اليوم. المشكلة ليست حتى

في أننا نكافح كلّ واحد لوحده، بل في العدد الهائل من الناس الذين لم يعودوا يكافحون تماماً.

- هل تعرف لماذا قاموا بذلك؟ - سألتُه.

- إنهم مجرد أطفال - أجابني آفيلا بنبرة واعظة قبل أن يلوذ بالصمت لبضع ثوان.

حين استأنف كلامه، كان صوته يبدو كالزّبد، يتبخّر مع كلّ مقطع من مقاطع الكلمات. قال:

- أعرفُ كيف هم الأطفال... رأيت العديد منهم يكبرون ويرتكبون حماقات... يقومون بأشياء يندهش لها حتى الشيطان... إنْ وضَعنا رهن إشارتهم زراً أحمر ينسفون به العالم لَما تردّدوا في الضغط عليه... وانظُر الآن... إنهم أصبحوا رجالاً... ونساء... يعيشون هناك... ويشكّلون جزءاً من هذا العالم...

- لكن أولئك المراهقين الذين اعتدوا عليك لا يسيرون في الطريق الصحيح...

- ليس هناك من طريق صحيح... ينبغي أن تعرفَ ذلك... ثم، إنهم سيعودون إلى الطريق الصحيح... إنهم دائماً يعودون إليه... أو دائماً، تقريباً... لكن يوم يقومون بذلك... سوف يصبحون أشخاصاً كباراً... مثلي ومثلك.

ضحكتُ، يا ألمودوفار، وأطلقتُ قهقهة صادقة، وعميقة. عجبتُ لجرأة ذلك السّكّير، وهو يظنّ أنني أنا وهو سيان، ولا يدري عمق المسافة التي تفصلنا، والفروق الشاسعة بين حياتي وحياته. قلتُ له:

- لكن، في انتظار أن يصبحوا أشخاصاً كباراً مثلي ومثلك، يقضون وقتهم في التبوّل عليك.

- إنه حادث مؤسف.

- لا. لم يكن حادثاً مؤسفاً. كان سيحدث آجلاً أم عاجلاً. صدّقني، لم يكن ذلك حادثاً مؤسفاً. لو لم نصل أنا وشافيير في الوقت المناسب.

- شكراً.

- لا فائدة من الشكر. لو بقيتَ على هذا الحال، ولم تستوعب الدرس، فامتنانك لا قيمة له.

ارتعشَت عيناه. ظننتُ أنه سيجهش بالبكاء، لكنه لم يفعل. كان يبذل قصارى جهده للحفاظ عليهما مفتوحتين، وحتى لا يغلبه النوم.

- في المرة القادمة، لن نكون هناك لننقذك - قلتُ له مهدِّداً.

أومأ برأسه في حركة لاإرادية. بقينا صامتَيْن. مرّت بضع دقائق. شعرتُ بالكرسي الصلب، وبالعرق يتصبّب على قميصي. كانت الحرارة لا تُطاق داخل تلك الحانة. فلا غرو أن يقضي آفيلا والسكارى الآخرون يومهم يكرعون كؤوس الخمر الأبيض البارد، ينعشون به أجسادهم، ويخدرون به حواسهم، سحرٌ يُبطل سحراً. فجأة، دون أن يفارق الفتور عيونهم، بدأ العجوزان في المشرَب يصفقان بأياديهم تجاه التلفاز. وبالغريزة، رافقهم آفيلا وبدأ يصفق بدروه. انحنيتُ ونظرت إلى الشاشة: سقط عشرة أو اثنا عشر درّاجاً بعضهم على بعض، وفوق الأسفلت تراكَم المتسابقون واختلطوا بالدراجات. ظلّ العجوزان يصفقان لمدة دقيقة تقريباً، وهو الوقت الذي استغرقه الدراجون لينهضوا، وليفكوا الدراجات المتشابكة ويَركبوها ثانية. نظرتُ إلى آفيلا. لم يعُد يصفق. كان جالساً في وضع مستقيم تماماً، رأسه يميل إلى الأمام، وعيناهُ مغمضتان. كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة والنصف صباحاً. لكن، هناك داخل

تلك الحانة، لم يكُن للساعة أيّ أهمية على الإطلاق. كان للوقت بُعد آخر مختلف.

ربما كان عليّ أن أنتظر أن يستيقظ آفيلا، لأنه ربما كان لديه شيء يقوله لي، شيء ما يجعلني أفهم وأؤمن أنه ما زال ينظر نحو الأمام ويكتشف سُبُلاً ممكنة، وأنه، على الأقل، بطريقة غير مسؤولة وغير منطقية، كان يبحث عن تلك السُّبُل ولم يستسلم بعد. لكنني انصرفتُ إلى حال سبيلي. وليُدْفنْ آفيلا حياً في حرارة تلك الحانة. فالمشلكةُ لم تكن مشكلتي أنا.

في ذلك اليوم، وصلتُ متأخراً بحوالي عشرين دقيقة إلى العمل في الصيدلية. لا أذكر سبب ذلك. قال لي الدكتور ساكادورا:

- هذا أمر غير مقبول، يا دانييل.

- أعرف ذلك. لكن هذه أول مرة أصل متأخراً. لن يتكرّر ذلك.

- أنا لا أتحدث عن تأخّرك، بل عن سيارتك.

- ماذا؟

- رأيتكَ تمرّ هذا الصباح. هل تحمل توصيلات الزبناء في تلك العربة؟

- إنها سيارتي، سيد ساكادورا.

- إنها ليست سيارة يا دانييل، بل حُطاماً.

- هل توصلتَ بشكايات من بعض الزبناء؟

- لا، بل أنا مَن يشتكي.

- سأُصلح السيارة متى تأتّى لي ذلك.

- ومتى سيتأتّى لك ذلك؟

- لا أستطيع أن أقول لك تاريخاً محدّداً.

- هذا الأسبوع؟
- ربما يكون هذا الأسبوع مبكراً شيئاً ما.
- هذا الشهر؟
- لست أدري. متى تأتّى لي ذلك.
- يوم يتأتّى لك ذلك ربما يكون قد فات الأوان.

لكن، هكذا، يا ألمودوفار، هكذا نصبح أكثر هشاشة وبطئاً. نفقد بوصلة الاتجاهات، نترك أشياء تافهة، لا قيمة لها تقريباً، تلهينا. كنتُ أقوم بعملٍ جيد، أسلم الطلبيّات في الوقت، أشتغل لساعات إضافية، أدبّر الوصفات الطبيّة وطُرق الأداء بشكلٍ مضبوط، ناهيك عن تلك الابتسامة التي لا تفارقني وأنا أطرق باب الزبناء. لكن، ذلك الغبيّ قرّر أن يغيظني بالشيء الوحيد الذي وجدَه ليلومني عليه. ليس لأنّ أحد الزبناء لم يكُن راضياً عن الخدمة، وليس لأننا لا نتلقى ما يكفي من الطلبيّات، بل بسبب حالتي. مجرّد نقطة شكلية. بهذه الطريقة، يا ألمودوفار، نضع العراقيل أمام صيرورة الأشياء.

مرّت الساعتان الأوليان من العمل ثقيلتين وبطيئتين. قمتُ بتسليم تسع توصيلات، ستة منها كانت عبارة عن أدوية لأشخاص يعانون من أمراض مزمنة. باستثناء سيدة في الثمانين من عمرها، فتحت لي الباب وهي ترتدي سروال جينز وقميصاً، يعلو وجهها تعبيرُ فتاة صغيرة تكتشف العالم، كان كلّ الآخرين يبدون مسكونين بتهديد خفيّ ووشيك، كما لو أنهم رهائن بين يدي شخص ما يختبئ داخل البيت ولا يستطيعون الحديث عن ذلك. لستُ متأكداً إن كان أولئك الأشخاص الذين كانوا يستقبلونني عند الباب ويؤدّون ثمن الأدوية هم المرضى أنفسهم. من المحتمل جداً ألّا يكون الأمر

كذلك، باستثناء تلك السيدة الثمانينية. حكَتْ لي بنفسها أنها كانت تشعر بألم كبير، تُعاني من سرطان البنكرياس، وأشارت بأصبعها إلى مكان الألم في جسدها حيث استقرّ الورم الخبيث ثم مرَّرَت يدها فوق القميص كمَن يداعب رأس كلب صغير.

بعد ذلك، وأنا عائد إلى الصيدلية، اتّصلَتْ بي مارتا.

- عليك أن تأتي لتزورنا نهاية هذا الأسبوع - قالت بصوت مخنوق ونبرة متكلّفة.

ألمودوفار، كانت مارتا قد كفَّت عن السؤال عن وضعيتي المالية أو عن محنتي في البحث عن عمل. كانت تعرف أنني أشتغل سائقاً مع إحدى الصيدليات لكنها تجهل ظروف العمل. لم نعُد نتحدّث عن أنفسنا تقريباً، ولا عن المستقبل. لكني لم أرَ طفليَّ منذ ثلاثة أشهر، وهذا الأمر بدأ يقلقها. في الشهر الماضي، لمّحت لي لأول مرة بأنّ غيابي بدأ يترك آثاراً على ماتيوس وفلور، وأنه ينبغي لي أن أذهب لأزورهما في أقرب وقت ممكن. بعد بضعة أيام، عادت لتُثير الموضوع مرة أخرى، واقترحَتْ أن يأتي الطّفلان لقضاء نهاية أسبوع رفقتي. قلتُ لها إنّ الأمر مستحيل، وأرادت أن تعرف السبب، فاكتفيتُ بالقول إنّ الأمور كانت معقّدة وأنّ الشروط غير ملائمة كي أستقبلهما في بيتي الجديد. لم تقتنع، لكنها لم تلح عليّ بالسؤال. في الأسابيع الموالية، تكرّر الحديث نفسه، فيما يشبه مقابلة في كرة القدم، والكرة تنتقل من جهة إلى أخرى، أنا دائماً أدافع، وهي بدأت تفقد أعصابها بكلّ وضوح. كم كان بودّي أن أذهب لأرى طفليّ، يا ألمودوفار. كان شوقي إليهما يُبكيني. لكني كنتُ أعيش على لا شيء تقريباً. عندما بدأتُ العمل في الصيدلية كنتُ متأخراً عن دفع قسط شهرين من قرض الشقة التي لم تعُد في

ملكي ولم يتبقَّ لي غير مئة وخمسين يورو أعيش عليها حتى أتقاضى أول أجرة. وحدها تذكرة السفر إلى فيانا دو كاشتيلو قد تكلّفني نصف هذا المبلغ.

- لا أستطيع نهاية هذا الأسبوع، لأنني أشتغل - أجبتُها.

- حسناً، يا دانييل. تدبّر أمرك. عليك أن تأتي، لأن الأمور ليست بخير.

- ما الذي حدث؟

- ما حدث هو أنني عدتُ إلى البيت فوجدت أن ابنك قد حلق رأسه، وأنا لا أتحدث هنا عن حلاقة عادية تليق به وتناسب وجهه المُدوّر، لا، إنه قد صار أصلع تماماً. استعمَلَ شفرة حلاقة، من تلك التي أستعملُها شخصياً، وساعدَه في ذلك أحد زملائه في القسم.

- ولماذا فعَلَ ذلك؟

- حين سألتُه أجابني إنه يريد أن يصبح بوذياً وأن ذلك يشكّل جزءاً من هذا المسلسل.

تذكرتُ ذلك الحديث الذي كان لي مع ماتيوس في ذلك الصباح، قبل أن أحصل على العمل في الصيدلية. لم نعُد لنتحدث عن الموضوع مرة أخرى.

- إنه يريد أن يكون أكثر سعادة - قلتُ لها.

- إنني لا أفهم ما تقول.

- إنه يريد أن يصبح بوذياً لأنه يظن أنه بذلك يستطيع أن يكون أكثر سعادة.

- هو مَن قال لكَ ذلك؟

- نعم.

- متى؟

- قبل شهر تقريباً.

- ولماذا لم تُخبِرني بأيّ شيء؟

- ظننتُ أنّ الأمر لم يكن ضرورياً.

- ابنك يقول إنه يريد أن يكون أكثر سعادة وأنتَ تظن أنه...

- ماتيوس لم يقُل إنه شقي. في الحقيقة، قال إنه سعيد جداً. لكنه كان يريد مزيداً من السعادة، ويصبح سعيداً مئة في المئة.

- وأنت، ماذا قلتَ له؟

- شرحتُ له أنه لا يمكن لأيّ أحد أن يكون سعيداً مئة في المئة.

- لماذا قلتَ له هذا، يا دانييل؟

- لأنّ هذه هي الحقيقة. يستحيل أن يكون المرء سعيداً مئة في المئة. ثمة دائماً شيء ما يخفّض هذا الرقم.

- عن أيّ رقم تتحدث، يا دانييل؟ إنني لستُ متأكدة تماماً ممّا تقوله. وحتى لو كان ذلك حقيقة، فإنّ ماتيوس عمره تسع سنوات، وليس بحاجة إلى أن يعرف ما هو مستحيل في هذا العالم.

وكانت على حقّ فعلاً، يا ألمودوفار. لذلك اكتفيتُ بالقول:

- لا داعي للقلق، الشعر ينمو بسرعة.

- هناك شيء آخر. فلور لا تريد أن تذهب إلى المدرسة - قالت متنهدة.

- ماذا تقولين؟

- قالت لي إنها قد تحدّثت معكَ في هذا الموضوع.

- لا أذكر هذا الحديث.

- تقول إنه لا جدوى من الذهاب إلى المدرسة.

- كيف لها أن تقول إنه لا جدوى من المدرسة؟ إنها أحسن تلميذة في القسم. وكانت دائماً أحسن تلميذة في المؤسسة. لو شاءت يمكنها أن تكون عالمة كبيرة وتكتشف مصلاً ضدّ الموت.

- لقد قالت لي بالحرف: في المستقبل سنكون جميعاً عبيداً.

- هل ذهبَت لتنام أم لا تزال مستيقظة؟

- إنها لا تزال مستيقظة.

- إذاً، نادي عليها.

سمعتُ مارتا تنادي عليها وتقول اسمها بصوتٍ خفيض، كما لو أنها كانت هناك، على بُعد مترين أو ثلاثة أمتار. لكن مرّت أكثر من ثلاثين ثانية قبل أن تتكلّم فلور. فكّرتُ فيما سأقول لها، وما سأوجّهه لها من كلمات بصفتي والدها، وكيف ستنظر لكلّ ذلك. كانت أمامها كلّ الاختيارات الممكنة، وتستطيع أن تقوم بأيّ شيء وكل ما تنوي القيام به يمكن أن يتحقّق. كنتُ على يقين تامّ من نجاحها.

- هل يمكنكِ أن تشرحي لي ما يحدث؟ - سألتُها.

- ممكن.

تملكُ فلور قدرة على التحكّم في صوتها، من دون تغيير نبرته أبداً، مهما كان الوضع، وتؤمن إيماناً قوياً بقيمة كلماتها لدرجة أنها تحتقر أيّ نوع من أنواع نبرات الصوت.

- حسناً. ستنقطعين عن الدراسة، وماذا ستفعلين؟ هل ستشتغلين؟

- لن أنقطع عن الدراسة، لكني لن أدرس كثيراً. لأنّ ذلك لا يستحق العناء...

- الدراسة تستحق العناء، فعلاً، يا فلور.

- لماذا تستحق العناء؟

- لماذا؟ لأنّ كلّ ما تتعلمينه اليوم سوف ينفعك غداً في حلّ أيّ مشكل يواجهك في العمل، في الأسرة، وفي ذهنك أيضاً. سيكون لديكِ عدة خيارات، وستكونين شخصاً قادراً على مواجهة الصعاب في هذه الحياة.

- هذا ليس صحيحاً. هناك ملايين الناس في هذا العالم درسوا وهم الآن معطّلون، أو أشقياء، أو يائسون، أو يعيشون لوحدهم. . .

- لكن هناك أيضاً الملايين من الأشخاص درسوا، واجتهدوا في الوصول بعيداً، ولذلك فهم اليوم يتمتعون بحياة سعيدة.

- ربما. لكن العالم يتغيّر يا أبي. بعد عشر سنوات لن يتمتع أحد بحياة سعيدة. . . إلّا إذا كان صينياً.

- صينياً؟

- نعم. الصينيون سيتحكّمون في كلّ شيء. ولن يكون أمامنا من خيار غير طاعتهم. سينتهي بنا المطاف عبيداً للصينيين.

- من أين جئتِ بمثل هذه الأفكار؟

- شيء معروف اطَّلَعتُ عليه.

- سوف آتي قريباً إلى فيانا دو كاشتيلو، ونتحدّث في الأمر.

- ها نحن نتحدث معاً.

ودّعتُها وعدتُ لأتحدث مع مارتا في الهاتف.

- ماذا إذاً؟ - قالت.

- ماذا تعنين؟

- هل أعوّل عليك نهاية هذا الأسبوع؟

- لا أستطيع، يا مارتا. لا أستطيع فعلاً. في الأسبوع القادم، أعدكِ بذلك. سأكون معكم هناك.

- وفي انتظار ذلك، ماذا أفعل لو ارتكبا حماقات؟
- لن يرتكبا أي حماقات. سيتصرّفان بشكلٍ جيد.

لكني، يا ألمودوفار، لم أكُن متيقناً. كنت أتمنى أنهما سيتصرّفان جيداً. لكن ألا تفعل أنت أيضاً الأمر نفسه هناك؟ ترغم نفسك على الاعتقاد بأنّ كلّ شيء لا يزال على ما يرام هنا في الخارج؟ بل، كما أعرفك، هل أنت قادر على محو كلّ السيناريوهات السيئة من خيالك؟

لا تلُمني، يا دانييل. كلّ واحد يفعل ما في وسعه حتى لا يُصاب بالجنون.

إنك مجرد حثالة وجبان ذو دم بارد. لا بُدّ أنك من فصيلة الزواحف.

لم تذهب لزيارة طفلَيْك منذ شهور وتسمح لنفسك بـ. . .

لكننا كنّا نتحدث كلّ يوم تقريباً، وكنت على علمٍ بما يجري.

لكنك لم تذهب لزيارتهم منذ ثلاثة أشهر.

لم يكُن ذلك بوسعي. لم يكُن معي المال. أظنّ أنّ الأمر لا يستعصي على الفهم.

طبعاً كان بوسعك أن تقوم بذلك. ما كان عليك سوى أن

تطلب من مارتا أن تدفع ثمن التذكرة أو تطلب ذلك من شافيير، أو حتى من كلارا.

هذا صحيح. لكني كنت أقول في نفسي: **أنتظر أسبوعاً آخر وأستلم أَجْري من الصيدلية، أسبوعاً آخر وسأذهب لأرى ابنيّ.**

وهل ذهبتَ؟ هل ذهبت في نهاية الأسبوع الموالي لزيارة طفلَيْك؟

تباً لك، يا ألمودوفار. إنك لا تعرف ما تقول. ونبرتك الساخرة هاته ليست في محلها.

مرّ ذلك الأسبوع بسرعة كبيرة. كنت منهمكاً في العمل، أحاول ألّا أفكر في فاسكو أو شافيير، تكاد الأيام لا تلمسني، هدفي الوحيد كلّ صباح هو أن أنهي يومي وذهني سليم تماماً. لكني كنت أتكلم مع مارتا التي تُخبرني بما يجري في جُمَل معدودة، وأنا أكرِّر لها وَعدي بأن أكون هناك في غضون أيام قليلة فلا تقول شيئاً، وهي لا تثقُ بوعدي. فأقول في نفسي: **ما الذي حدث؟ إنها تعرفني حق المعرفة. عشنا معاً ثلث حياتنا، تعرف جيداً مَن أكون وأيّ شيء أستطيع القيام به. فما الذي تغيّر فجأة؟**
كانت خطّتي أن آخذ القطار المتوجّه إلى فيانا دو كاشتيلو يوم السبت صباحاً، أصل عند ساعة الغداء، أقضي يومين مع مارتا والطفلَيْن، وأعود يوم الاثنين صباحاً. كان كلّ شيء يبدو بسيطاً، يا ألمودوفار، لكن لم يحصل أي شيء من هذا.

في ذلك اليوم، رنّ الهاتف مبكراً جداً، بُعَيْد الساعة السادسة صباحاً. كنتُ مستيقظاً، أرتدي ملابسي وأستعدّ للخروج. على شاشة الهاتف كان هناك رقم فقط، من دون اسم. قلتُ في نفسي: **لا بدّ أنها فرصة عمل**، رغم أنّ الوقت كان يوم السبت صباحاً ولا أحد يتصل في هذا التوقيت ليعرض عملاً. لكني ما أن أجبتُ على الهاتف حتى سمعت صوتَ ريح، ونَفَساً حاداً وطويلاً. بعد ذلك، خلف صوت الريح، قال أحدهم:

- دانييل؟

- نعم.

- أنا فاسكو. ابن ألمودوفار.

- هل حدث شيء ما لوالدك؟

- كلا. لستُ أدري... أنتَ قلت لي إنه بإمكاني أن أتصل بك إن كنتُ بحاجة إلى مساعدة.

- أين أنتَ الآن؟

- لا أعرف. في أحد الشواطئ.

- في أحد الشواطئ؟ أي شاطئ؟

- لا أعرف. على ساحل كاباريكا. هل يمكنك أن تأتي لتبحث عني؟

هل تصدق هذا الأمر يا ألمودوفار؟ كان ابنك. على الفور، قلت في نفسي: **لن أقوم بهذا، وليتدبّر المراهق أمره لوحده، لديّ حياتي الخاصة ومشاكلي الشخصية.**

- اتّصل بأمك - قلت له - إن شئتَ، أتّصل بها أنا.

- لقد اتصلتُ بها، لكنها لا تجيب.

وبدأ يبكي. ذلك المراهق اللعين بدأ يبكي.

- فاسكو، اسمع يا فاسكو، دعكَ من البكاء وأنصِتْ إليّ. ابحَث عن مقهى أو مطعم، اجلس هناك وحاول أن تتصل بأمك. عندما تُجيبك، اشرح لها كل شيء وستأتي لتبحث عنك. أنا لا أستطيع أن أساعدك.

- هناك مطعم... أستطيع أن أراه من هذا المكان، لكن...

- اذهَب إلى هناك. الوقت باكر، لكن ربما يكون هناك أحد ما. وإن لم يكن هناك أحد، فانتظر حتى يأتي...

- ...

- فاسكو؟ هل أنت هناك؟

- إنني... لا أستطيع.

- لا تستطيع ماذا؟

- أن أذهب إلى المطعم. لا أستطيع أن أمشي...

- لا تستطيع أن تمشي؟

- هناك قطع زجاج في قدميّ... ودمٌ و...

- تباً لك، يا فاسكو!

هل سمعْتَ هذا يا ألمودوفار؟ هل تستطيع أن تفهم ما كان يحدث؟ في حالة عدم قدرتك على فهمه، سأشرح لك: كان ابنك اللعين يُنغّصُ عليّ حياتي، لأنك لم تكن هناك في ذلك الصباح حتى يتّصل بك ويطلب منك المساعدة. ولذلك كان يُنغّصُ علي حياتي، أي أنك أنتَ مَن كان يُنغّصُ عليّ حياتي. الناس يطلبون من المرء مساعدة وهم لا يعلمون ما يترتب عن ذلك الفعل من عواقب، واثقين من أنه سيترك للتو ما يقوم به ويهبّ لمساعدتهم. وإن لم يفعل ينعتونه بالقاسي وابن العاهرة و...

- أين أنت يا فاسكو؟ - سألتُه - في أيّ شاطئ؟

- إنني في شاطئ من شواطئ كاباريكا، لكني لا أعرف اسمه.
- هل تستطيع أن تقاوم إلى أن أصل؟
- نعم. أظنّ أنني أستطيع ذلك.

ألمودوفار، لحْظَتَها قلتُ في نفسي: **يمكن أن أقوم بهذا الأمر. أنسى قطار الصباح، آخذ السيارة مع الحقيبة، وفي أقلّ من خمس عشرة دقيقة أعبر القنطرة وأصل إلى الضفة الجنوبية لنهر التاج، ويمكن أن أكون في كاباريكا قبل السابعة صباحاً. بعد ذلك، أبحث عن المراهق، وبشيء من الحظ أعثر عليه بسرعة ثم أعود بسرعة إلى لشبونة قُبيْل التاسعة صباحاً، أتركه في بيته، ثم أتوجّه مباشرة إلى المحطة لآخذ قطار الساعة التاسعة.**

وهل ذهبت؟

طبعاً، ذهبتُ.

مكتبة
t.me/t_pdf

شكراً.

تباً لك، يا ألمودوفار!

بينما كنتُ أقود السيارة عبر المدينة، اتصلتُ بكلارا ولم تُجِبْني، فبعثتُ لها ثلاث رسائل نصّية. لم أكن أريدها أن تقلق لكني، في الوقت ذاته، كنت أرغب في ذلك. عندما بلغتُ الجسر، اتصلت بفاسكو وطلبتُ منه أن يحاول أن يعرف في أيّ شاطئ هو، واسم المطعم، أو أيّ إشارة أو لوحة أو نقطة مرجعية.

بعد خمس دقائق، اتصلتُ به مرة أخرى. أجابني وهو يئنّ مثل

حيوان يقلّد إنساناً يتكلّم. لم أفهم تماماً ما قاله، لكني أدركتُ أنه كان يزحفُ فوق الرمل نحو المطعم.

- هل أنتَ بعيد عن المطعم؟ - سألتُه.

- نعم.

- هل تظنّ أنك يمكن أن تصل إلى هناك زحْفاً؟

- لا أظنّ ذلك. هناك أيضاً قطع زجاجية في يديّ وفي ركبتيّ.

- هل تتحدّث بجد؟ تباً لك يا فاسكو!

- . . .

- أعطني نقطة مرجعية تدلّني على مكانك. هل ترى بنايات؟

- كلا. ليست هناك بنايات.

- ماذا ترى، إذاً؟

- المطعم. . . إنه أزرق وأبيض. . . وهناك سارية أعلام لا عَلَم فوقها. . . وقنطرة خشبية صغيرة. . .

- حسناً. فهمتُ - قلتُ له وقطعتُ المكالمة مرة أخرى.

كان يقدّم وصفاً يناسب كلّ المطاعم على شاطئ كاباريكا.

رفعتُ السرعة. عندما بلغتُ قرية كاباريكا، لم أتوقف لأنه إن لم يكُن فاسكو يرى بنايات فإنّ الشاطئ يوجد في الساحل جنوباً. بلغتُ أول شاطئ بُعيْد العاشرة صباحاً. في موقف السيارات كانت هناك سيارتان ومقطورة. ركنتُ السيارة، وجريت فوق الممر الخشبي حتى بلغت المطعم. ثم لمحت الرمال، والبحر الهائج، والشمس التي تلامس المياه عند الأفق الذي كان لا يزال مظلماً. كان هناك شاب يجري على الشاطئ، وامرأة تجلس قريباً جداً من مياه البحر، هادئة، تشبك ساقيها تنظر إلى الأمواج. رأيتُ أيضاً شخصين من راكبي أمواج البحر يقومان ببعض الإحماءات، وهما يستعدان لولوج

البحر. مسحتُ كلّ الشاطئ بعينيّ ولم أرَ فاسكو. اتصلتُ به مرة أخرى.

- هل ترى أحداً من هناك حيث أنت؟

- كلا. لا أرى أحداً.

ثم قطعنا الاتصال.

ركضتُ نحو السيارة وتابعتُ سفري حتى بلغتُ الشاطئ الموالي. قطعتُ الممرّ الخشبي حتى وصلتُ إلى المطعم، ونظرتُ نحو الشاطئ الرملي. كانت امرأة ستينية تتجول حافية القدمين، والحذاء في يدها. رجعتُ إلى السيارة. في الشاطئ الموالي، لم يكن هناك أحد، وكانت الرمال الممتدة بين الكثبان والماء كأنها لم تطأها أقدام بشر قط. تخيلتُ فاسكو ممدّداً، وجسده مُغطى بالرمال التي تحملها الريح، وقد اختفى ولم يعُد يُرى. بقيتُ دقيقتين أبحث عن جسد ابنك. ثم اتصلتُ به.

- إذا كنت تولي ظهرك للبحر، ففي أي جهة يقع المطعم؟

- على اليسار.

تفحّصتُ الجهة اليسرى من الشاطئ. لم يكن هناك. ذهبتُ إلى الشاطئ الموالي، حيث لم يكن هناك أيضاً. بعد ذلك، تابعتُ السير على الطريق، أتوقّف عند كلّ شاطئ بحثاً عن ابنك. حوالي الثامنة صباحاً، اتصلتُ به من جديد.

- هل أنتَ واثق أنك على ساحل كاباريكا؟

- أظن ذلك.

- هل أنت واثق فعلاً؟

- لا.

- تباً لك يا فاسكو!

أذكر أنني فكرتُ لحظة: **ماذا إن لم أجدهُ؟** يمكن أن أمضي هنا بقية اليوم أنتقل من شاطئ إلى آخر، أدور حول سواحل البرتغال. لم يكن ذلك ممكناً، يا ألمودوفار. لا أستطيع أن أقول متى بالضبط، لكن، في لحظة ما، كان عليّ أن أتخلى عن الأمر، ثم أعود أدراجي وأتركه هناك حيثما كان.

بعد ذلك، ركنتُ السيارة في أحد المواقف وتابعت السير فوق ممرّ خشبي يتشعّب إلى ممرّيْن على بُعد خمسين متراً. تابعتُ السير عبر الممر اليساري ثم مشيت لمسافة مئة متر وبلغت الشاطئ. كان المطعم مغلقاً ويبدو مهجوراً. كان هناك شخص ما ممدّد على بُعد مئتي متر من المطعم. لا يتحرَّك، يمكن أن يكون شخصاً، يمكن أن يكون لباس شخص ما ذهب ليغطس في الماء. في الجهة الأمامية للمطعم، قبالة البحر، كانت هناك شرفة واسعة ذات أرضية غير مستوية. صعدتُ الأدراج ودنوت من السياج لأرى بشكلٍ أفضل. صحتُ:

- فاسكو! ... فاسكو! ... فاسكو! ...

ظلّ الشخص الممدّد فوق الرمال جامداً.

اتصلتُ بفاسكو.

أخيراً، تحرك ذلك الشخص، ورفع يده نحو رأسه.

- دانييل؟

- ألا تسمعني وأنا أصيحُ باسمك؟

رفع الشخص الممدّد على الرمال رأسه ثم رفع جذعه واستدار نحوي. كان فاسكو.

- سامحني - قال - لقد نمتُ.

- ألا تريدني أن أنقذك؟

- طبعاً. هذا ما أريده.

- لا يبدو لي ذلك.

قطعتُ المكالمة ومشيت حتى وصلتُ إلى جانبه. لم يتحرك، بل ظلّ ينظر إليّ وأنا أقترب.

ألمودوفار، إن لم يكُن قلبك مستعداً، فلا تنصت لما سأقوله لأنّ ابنك كان عبارة عن حُطام. كان حافياً وقدماه ممتلئتين بالجروح، بعض قطع الزجاج منغرسة عميقاً في لحمه، وجلده مغطى بقشرة من الدم والرمال. كان هناك أيضاً دم في سرواله، عند مستوى ركبتيه وفي كفَّيْ يدَيْه. كان قميصُه ممزقاً. كان وجهه، وبشرة وجهه أبيضين، شفتاه بنفسجيتين ومحجرا عينيه سوداوين، كما لو أنه كان ميتاً منذ عدة ساعات.

ومن حوله، لم يكن هناك أيّ شيء، إلّا دائرة سوداء تدلّ على آثار نار، كرسي شرفة ساقط، وبعيداً بعض الشيء ممرّ حقيقي من الزجاج -عشرون أو ثلاثون قنينة جعة مكسرة- ومترين من قطع الزجاج تلمع تحت الشمس باتجاه البحر. هل تتصور هذا المشهد، يا ألمودوفار؟ ابنك، فاسكو المدلّل، ذلك الطفل الذكي الذي ربّيتُمانه، فقَدَ عقله وحسب نفسه ناسكاً فمشى على الزجاج وأهلَكَ رجلَيْه، ويديه وركبتَيْه.

خلعتُ المعطف ووضعته على كتفيه كي يشعر بالدفء، لأنه ربما كان قريباً من انخفاض حادّ في درجة حرارة الجسم. ساعدته لينهض، فأطلق أنيناً واحداً ثم صَمَت، وابتلع ألمه. سألتُه أين الحذاء فأجابني أنه لا يعرف وأنه ربما رماه في البحر.

- لماذا؟ - سألتُه.

فهزّ كتفيه.

أمسكتُ به من تحت ذراعه لأساعده على المشي، لكن كلما وطأت قدماه الأرض، وخصوصاً قدمه اليمنى، كان يطلق صيحة وتخارُ ركبتاهُ. لذلك أمسكتُ به، ورفعتُه فوق كتفي ثم حملته نحو السيارة. مددتُه على الكرسي الخلفي، فوق الملاءة التي كانت تغطي الثقب وما خلّفته تلك النار من أضرار. قدمتُ له ماء، فشرب ما يزيد عن نصف قنينة، ليتراً كاملاً تقريباً. وبينما هو يعبّ الماء، اتصلتُ مرة أخرى بِكلارا.

- أمك لا تجيب.

- أعرف. إنها تشتغل.

فقلت في نفسي: **اللعنة! وماذا أصنع الآن بهذا المراهق؟**

صعدتُ إلى السيارة وتوجّهت نحو لشبونة. عندما بلغنا الجسر، فوق نهر التاج، لاحظتُ أن فاسكو كان نائماً. كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة والنصف صباحاً. قمت بعملية حسابية فأدركتُ أنني لن أستطيع أن ألحق قطار التاسعة والنصف. ولا قطار العاشرة صباحاً، لكن يمكنني أن ألحق قطار الثانية عشرة والنصف.

دخلنا إلى مدينة لشبونة وتوجهنا إلى المستشفى على الفور. ركنتُ السيارة في الموقف. كنّا بعيدَيْن جداً عن باب المستعجلات. رجْجتُ فاسكو فاستيقظ على الفور وامتعض وجهه ألماً. ساعدته على الخروج من السيارة، ثم حملتُه مرة أخرى على كتفيّ وأخذته إلى المستعجلات.

كان هناك عدة أشخاص ينتظرون، فنهضت امرأة بدينة وتركت مكانها لفاسكو، الذي انكمش فوق الكرسي، قدماه جانباً حتى لا تلمسا كفّا يديه الأرض، وعيناه مغمضتين. كانت هناك امرأة عجوز -نصف وجهها الأيمن منتفخ وبنفسجيّ اللون، يكاد يكون أسود،

كما لو أنها تلقّت ضربة مقلاة على وجهها- نظرت إلى فاسكو ثم حدجتني بنظرة استنكار، كما لو أنها تُحمِّلني مسؤولية حالة ابنكَ. جلستُ في الكرسي الوحيد المتوفر في القاعة، ثلاثة صفوف خلف فاسكو. بعثتُ رسالة نصية إلى كلارا أخبرها بما وقع، وأخرى إلى مارتا أشرح فيها أسباب تأخّري. لم تُجِبْني أي واحدة منهما.

انقضت ساعة، وقد يكون من الصعب جداً أن أكون في محطة القطار عند منتصف النهار. قلتُ في نفسي: آخذ قطار الساعة الثانية زوالاً.

نادوا على فاسكو. جلبوا كرسياً متحرّكاً. رفعتُه وأجلسْتُه فوق الكرسي. كان نائماً ولم يستيقظ. دفعتُ الكرسي حتى قاعة الفرز. جاء ممرض ورجّ ذراعه فلم يُبدِ أيّ ردة فعل. بعد ذلك، نظر إليّ وسألني ما به. فقلتُ:

- قطع زجاج في قدميه، وركبتيه ويديه.

- لا أعني هذا - قال الممرض - لكن لماذا لم يستيقظ؟

- أظنّ أنه شرب كثيراً. أظن أنه قد سَكِرَ.

نهض الممرّض وأخرَجَ من جيب وزرته الزرقاء مصباحاً يدوياً صغيراً. ثم قال:

- أمسِكْهُ من رأسه.

قمتُ بما أمرني به. انحنى وأخذ يفحص عيني فاسكو بالمصباح الصغير، كما لو أنه يريد أن يرى ما بداخل دماغه. فجأة، رفع رأسه ثم نظر إليّ وقال:

- لقد فقد الوعي. هل شرب فقط أم أنه تناول شيئاً آخر؟

- شيئاً آخر؟

- مخدرات، مثلاً.

- لستُ أدري.

لم أتمكن من قول أيّ شيء. وقف الممرض بيني وبين الكرسي المتحرك ثم دفع فاسكو عبر باب دوّار.

مرت ساعة أخرى، ولم يأتِ أحد ليُخبرني بما يجري. بدأتُ أفكر، وأسترجع كلّ حركة قمتُ بها خلال ذلك الصباح. هل كان من الممكن أن أصل أسرع من ذلك إلى الشاطئ الذي كان فيه فاسكو؟ طبعاً، كان ذلك ممكناً. وماذا لو أنني وصلتُ بسرعة؟ ربما كان الوضع مختلفاً الآن، ربما لم يصبح الوضع خطيراً كما كان. فهل كان الذنب ذنبي؟ اللعنة! طبعاً، لا. ماذا لو أنني تحدّثت معه في ذلك اليوم، وتركتُ السيارة تحترق لأقول له إن الأمور ليست سيئة إلى ذلك الحدّ أو إن كانت سيئة فإنّ احتمال تحسّنها كبير، وأن... اللعنة! الذَّنْبُ لم يكن ذنبي. هل تفهم هذا الأمر، يا ألمودوفار؟ الذنب لم يكُن ذنبي. لستُ مُجبَراً على سدّ ما خلّفتَه وراءكَ من ثقوب.

تحدَّثتُ مع إحدى الممرضات. دون أن تنظر إليّ، أجابتني أنها ستحاول أن تعرف ما جرى. بعد أربعين دقيقة، ظهرت وقالت:

- أجروا له غسيل معدة. لقد استيقظ.

- وقطع الزجاج؟

لا أعرف شيئاً عن قطع الزجاج.

- هل يمكنني أن أراه؟

- يمكنك ذلك. سآخذك إليه. انتظِرْ هنا، سأعود إليك.

مرَّت نصف ساعة. لن أتمكّن من اللحاق بقطار الساعة الثانية زوالاً.

رنّ هاتفي. كانت كلارا، صوتها سريع، كأنها تعاني من صعوبة في التنفس.

- كيف حاله؟ - سألتني.

- لا أعرف. لم يسمحوا لي برؤيته بعد.

- أنا قادمة إلى المستعجلات.

جاءت الممرضة تمصّ قطعة حلوى، وأحدُ خدّيْها مُدوّر ومنتفخ أكثر من الآخر.

- أستسمحك - قالت - ذهبتُ لأتناول الغداء. لم آكُل طعاماً منذ الثامنة صباحاً.

كانت الساعة تشير إلى الواحدة والنصف زوالاً. دخلنا إلى رِواق طويل جداً، يمتدّ لأكثر من مئة متر. كان هناك صف من النقّالات فوقها مرضى على امتداد الجدار. كان فاسكو مستلقياً فوق إحدى النقّالات، أمام مكتبٍ ليس فيه أيّ أحد. كان مستيقظاً، نظراته مضطربة، وشكله فظيع، كما لو أنه مات بالفعل ثم بعثوه إلى الحياة للتو. فوقه كان هناك كيس مصل ولست أدري أيّ شيء آخر مربوط مباشرة بعرق في ذراعه الأيسر. طلبت مني الممرضةُ أن أنتظر الطبيب هناك ثم انصرَفَت. أغمض فاسكو عينَيْه. بقينا صامتَيْن لبضع دقائق. بعد ذلك، تكلّم فاسكو. هل تعرف ما قاله، يا ألمودوفار؟ قال:

- لا تقُلْ شيئاً لأبي.

انتظِرْ، لم يقُلْ كذلك، بل سألني:

- هل سأموت؟

- لا، لن تموت - أجبتُه.

فطلب مني:

- لا تُخبِر أبي بأيّ شيء.

ثم بقينا صامتَيْن مرة أخرى. بعد عشر دقائق مرت طبيبة وقفت إلى جانبي لتنظر إلى ورقة في يدها. ثم قالت:

- باريتورات. لم تكُن الكمية مفرطة، لكن نظراً إلى أنه شرب كحولاً فقد كان ذلك كافياً لتقضي عليه. كان من المحتمل أن يكون الأمر أسوأ من هذا.

قالت ذلك بتثاقل وألقَت عليّ نظرة حازمة، كما لو أنّ كلمة «أسوأ» كانت مصطلحاً طبياً.

- متى سيغادر المستشفى؟

- حالاً.

- الآن؟

- نعم. حالاً. ليس هناك من سبب ليقضي الليلة هنا. حالته تبعث على الاطمئنان، لأن الأسوأ قد مرّ. إنه بحاجة إلى الراحة. هذا كلّ ما في الأمر.

- أظنّ أنه من الأحسن أن يبقى في المستشفى.

- لا. ليس هناك من سبب لذلك.

ثم انصرَفَت.

ساعدتني ممرضةٌ فنقلتُ فاسكو إلى كرسي متحرك. اتصلَتْ بي كلارا. كانت قد وصلت إلى المستشفى. اتفقتُ معها أن نلتقي عند باب المستعجلات.

نظرَتْ كلارا إلى ابنكَ، يا ألمودوفار، ثم جثَت على ركبتيها أمام الكرسي المتحرك لتُعانقه. رفع فاسكو ذراعيه، في حركة وقائية، خوفاً من أن تؤلمه يداهُ. بكت لبضع دقائق وهي ممسكةٌ بفاسكو. بعد ذلك، كفكفت دموعها، نهضت ونظرت إليه في

صمت، كما لو أنها تستطيع بذلك أن تفهم كلّ ما جرى. ثم التفتَت نحوي.

- شكراً دانييل.

- لا داعي لتشكريني. أنتِ وفاسكو تعرفان أنه يمكنكما أن تعتمدا عليّ.

- لهذا ينبغي أن أشكركَ. لا أريد أن أتخيَّل ما كان سيقع لو لم تذهب لتبحث عنه.

- لا داعي للتفكير في ذلك. إنه الآن بخير. عليه أن يخلد إلى الراحة. وغداً سوف يقف على رجليه كأنّ شيئاً لم يكُن.

نظرَتْ إلى ابنها، ويبدو كأنها تحاول أن تفهم إن كان ما كنتُ أقوله أمراً ممكناً. ثم سألتْهُ:

- هل تستطيع أن تمشي؟

أومأ فاسكو بحركة نفي من رأسه.

ظلت كلارا تنظر إليه لوقت طويل، جامدة، ذراعاها تتدليان على امتداد جسدها، وشفتاها مزمومتين. بعد ذلك، التفتت نحوي مرة أخرى وقالت:

- دانييل، يجب أن أعود إلى العمل. هل يمكنكَ أن تأخذه إلى البيت؟

- هل تشتغلين في العيادة يوم السبت كذلك؟ - سألتُها.

- لا. لكن سأذهب إلى بيت امرأة عجوز، سبعة وثمانون سنة، لم تعُد تبرح فراشها تقريباً وهي بحاجة لمن يعتني بها. أنا مَن يقوم بذلك ليلاً وفي نهاية الأسبوع.

نظرتُ إلى فاسكو، فحاولتُ أن أتخيله وحيداً كلّ ليلة وكلّ

سبت وأحد. شيء يستحيل تصوره، لكن قد تكون له عواقب على ما تبقى من حياته.

- هل يمكنكَ أن تأخذه إلى البيت؟ - قالت كلارا مرة أخرى.

ألقيتُ نظرة على الساعة. كانت تشير إلى الثانية زوالاً، والقطار الموالي سيغادر المحطة عند الساعة السابعة مساء.

- هذا ممكن - قلتُ.

- وهل تستطيع أن تبقى معه هناك؟

- حتى الساعة السادسة والنصف مساء. بعد ذلك، عليّ أن أغادر لأنني سأذهب إلى فيانا دو كاشتيلو اليوم.

أومأت بحركة من رأسها واكتفت بالقول:

- شكراً.

وصلنا إلى بيتكَ حوالي الساعة الثالثة زوالاً. ساعدتُ فاسكو في خلع تلك الملابس الممزّقة، المبلَّلة والمتّسخة. كان يبدو منهكاً. لم يستطِعْ ارتداء المنامة لوحده كما لو أنّ يداه مكبّلتان. نظفتُ ما علق بشعره من رمل ودم. ثم نام على الفور.

جلستُ فوق أريكة الصالة واتصلت بمارتا. حكيتُ لها تفاصيل الحادث، دقيقة بدقيقة حتى تدرك أنني لا أتحمل أيّ مسؤولية في تلك الوضعية.

- إنني في انتظار كلارا - قلتُ لها - عندما تصل سأغادر. وسأكون هناك حوالي الحادية عشرة ليلاً.

بدا لي ذلك وعداً معقولاً، يا ألمودوفار، لكني لحظتها لم أكُن أعلم أنّ كلارا لن تصل.

انتظرتُ حوالي ثلاث ساعات ثم اتصلتُ بكلارا.

- دانييل، لا أستطيع أن أخرج قبل أن يأتي شخص آخر ليُعوّضني - قالت لي - والسيدة لا يمكن أن تبقى لوحدها.

- ومتى سيأتي من سيعوّضك؟

- لا أعرف. ابنة السيدة تسكن في سيتوبال. أخبرتني أنها سوف تتحدث مع الممرضة التي تعتني بأمها خلال أيام الأسبوع.

- عليّ أن أذهب، يا كلارا. وفاسكو لا يمكن أن يبقى لوحده.

- أعرف ذلك. لكني لا أستطيع أن أترك عملي. لا يمكن أن أفقد هذه الوظيفة ولا يمكنني أن أترك السيدة لوحدها. لو حدث لها أيّ مكروه فأنا المسؤولة.

- لكن فاسكو ابنك. وأنا ينبغي أن أغادر الآن.

- أعرف - قالت ثانية - سأكون هناك في أقرب وقت.

ثم قطعنا المكالمة.

بقيتُ في انتظارها، وأنا أظن أن ذلك ممكن. أن كلارا ستأتي وأنني سأطير على وجه السرعة عبر المدينة لأبلغ المحطة في آخر دقيقة قبل أن ينطلق القطار.

قبل السابعة مساء بعشرين دقيقة، اتصلتُ بكلارا مرة أخرى.

- إنني أغادر البيت الآن - قلتُ لها - سأترك فاسكو لوحده بضع ساعات في انتظار أن تصلي. متى ستصلين؟

- لا أعرف، يا دانييل. لم يخبروني بأيّ شيء بعد. لكن اذهب. سآتي إلى البيت متى استطعتُ.

ألمودوفار، ليكن في علمك أنّ كلارا لم تعُد إلى البيت إلّا يوم الاثنين. لكن ابنكَ لم يبقَ لوحده طوال تلك المدة. لم أغادر وبقيتُ إلى جانبه.

.5,7
جيبوتي، مصر، منغوليا، نيجيريا، البرتغال، رومانيا.

من الممكن، يا ألمودوفار، أن تكون في هذه اللحظة من الحكاية بحاجة إلى أن أقدّم لك تذكيراً بما وقع بالفعل. إليك ملخص الأحداث:

في ربيع سنة 1966، كان والدُك، وهو شاب أندلسي، ابن إسكافي، يعيش حياة ليلية مضطربة، ويحبّ أن يقطع الحدود ليقتنص فتيات برتغاليات، «وهن محلقات في الجو»، بحسب التعبير الذي كان يحلو له. وجدوه ذات ليلة في لشبونة، مستلقياً على سرير صلب وبارد في غرفة ضيقة داخل فندق قرب نهر التاج تستقبل فيه بنات الهوى الرخيصات زبائنهن. كان يئنّ من حمى شديدة بعد ليلة قضاها في معاقرة الخمرة فبالغ في الشرب. لم يكُن يعرف أحداً في هذه المدينة، على الأقل شخصاً ثقة يمكنه أن يلجأ إليه في تلك الشدّة. ولم يخطر على باله أن يتّصل بإشبيلية ليطلب المساعدة من والده. ظلَّ لساعات طويلة يسبح في هذيان راكد، يعيش على بعض الأقراص التي يحملها معه في الحقيبة وقوة تحمُّل يبدو لي أنك لم

تَرِثْها عنه. وبعد يومين من الحمى، وحتى لا يموت وفي ذمته ديون لم يؤدّها -كانت النزاهة دائماً من شيمه- نزل إلى بهو الاستقبال في الفندق ودفع مستحقات خمسة أيام قضاها هناك، ثم أضاف مصاريف ثلاثة أيام أخرى وهو ما قدَّرهُ من وقت قد يصمد خلاله قبل أن تهزمه الحمى وتقضي عليه.

أعرف الحكاية يا دانييل.

أعرف ذلك، لكني أريد أن أُذكِّرك بها.

أدى والدُك المصاريف ثم بدأ يصعد الأدراج عائداً إلى غرفته. فجأة، وهو يطأ الدرج الثالث، ألمّت به دوخة جعلته يفقد التوازن. لم يتحمّل الصدمة وانهار كأنه من رمل. لم يستطِعْ أن ينهض. كان الشاب المكلّف بالاستقبال يومئذٍ شخصاً نزيهاً، فأخذ جزءاً ممّا أدّاه والدك من مصاريف ودفع ثمن سيارة أجرة حملته إلى المستشفى.

كانت تلك بداية التهاب رئوي حادّ. بقي في المستشفى مدة عشرة أيام. ورغم الحمى التي لم تنزل حرارتها، ورغم تلك الغرفة التي يتقاسمها مع سبعة رجال آخرين يعانون من أمراض مختلفة، ورغم أنه لا يعرف تماماً كيف سيعود إلى إسبانيا -لأن ما كان معه من مال بالكاد يكفي لعبور نهر التاج- لم تكُن تلك الأيام التي قضاها هناك أياماً سيئة تماماً. فخلالها تعرَّف على أمك، ممرّضة حنون لا تبتسم أبداً، خصّتْهُ بساعات أكثر من اللازم وساعدته على ترجمة عبارات تَغزُّله الإسبانية إلى اللغة البرتغالية، فسقط في غرامها وانساقت وراء عشقه. فكيف يمكن أن تكون أياماً سيئة؟ هناك بدأ كلّ شيء.

تزوّجا بعد خمسة أشهر، ذات يوم ماطر. أتذكّر تلك الصورة في بيت والديك، فوق المنضدة قرب الهاتف: والدك بأسعد وجه في الكون، وأمك إلى جانبه، تكاد لا تبتسم، وهي تسند رأسها إلى كتفه، كأنّ إيماناً راسخاً بكلّ فضائل الكون يُحرّكها. ثم هناك متجر الأحذية. فوالدك، على ما يبدو، رغم شبابه العاصف، تعلّم شيئاً ما من حرفة جَدك. وعلاوة على هذا، كانت والدتك تملك دائماً برودة دم عرفت كيف تكبَح بها جموح زوجها: كانت شريكة حياة مثالية لا يمكنه إلّا أن ينجح وهي إلى جانبه، لعدّة سنوات على الأقل. قضيتَ طفولة مليئة بالأبهة، لأنك كنت ابن صاحب متجر الأحذية، ذلك الطفل الذي يأتي كلّ شهر إلى المدرسة بأحذية جديدة ويسافر مرة أو مرتين كلّ سنة إلى إيطاليا، وفرنسا، وبوينوس آيرس، يرافق والده إلى أشهر معارض الأحذية عبر العالم. ورغم كلّ تلك الأبهة، لم تكُن غبياً. بل، على العكس من ذلك، كنت شاباً رائعاً تحظى بحبّ الجميع. كنتُ أشعر بفخر كبير لأنني كنت صديقَك، أتجوّل معك عبر أروقة المدرسة، أجلس إلى جانبك في القسم، وتستضيفني في بيتك.

بدورك كنتَ تؤمن بمتجر الأحذية، ودوام تجارتها. كنت تقول، وأنت تكرِّر تعابير والدك: «لا أحد يمشي حافي القدمين». ثم أصيب والدك بمرضٍ فهرعتَ لمتابعة دروس في التدبير والتجارة لمدّة نصف سنة. تعلّمْتَ كلّ الأمور التي ينبغي أن يعرفها أيّ بائع ماهر، كلّ تقنيات التسويق وأعقد أساليب تمويل المقاولة. كما لو أنّ ذلك المتجر كان مشروعاً يساوي الملايين. ربما كنت تراه كذلك في ذهنك. بطريقة ما، نقلَ إليك والدُك اليقين الراسخ بنجاح متجر الأحذية. لكن، عندما بدأوا يشيدون مركزاً تجارياً على بُعد خمسة

أزقة من متجركم، سخرتم من الأمر. كنتُ يومها معك في بيتكم، نتناول لحماً مشوياً حضّرته والدتُك. اعتقدتم يومئذٍ أنّ مركزاً تجارياً قد يساهم في الرقي بالتجارة في الحي، وأن الجميع سيستفيد منه. كانت سذاجتكم لطيفة. أو ربما كنتم تعرفون ما سيقع ولم تكونوا قادرين على أن تجدوا بديلاً لتلك الثقة المفرطة التي كنتم تضعونها في نجاح تجارتكم.

كان موتاً بطيئاً جداً. صمدت تجارتُك لمدة عقدين تقريباً. في السنوات الأخيرة، بعد وفاة والدك، وتسريح كلّ المستخدمين، تحملتَ لوحدك كلّ عبء المتجر. عملٌ بطولي من دون مجد ولا نجاح. لكنك، لم تشتكِ قط؛ بل، على العكس من ذلك، كنت تعرف كيف تستمتع بكلّ ما تمنحك الحياة. كنت تعرف كيف تجعل من نفسك شخصاً متعدّداً، دائماً في خدمة الجميع ورهن إشارتهم: بالنسبة إلى كلارا، وإلى فاسكو، وإلى أمك، وإلى شافيير، ولي أنا، وإلى كل الأصدقاء الذين ظلوا أوفياء لك. كنت دائماً تجد الوقت اللازم الذي تخصّ به كلّ مَن قَصَدَك وسأل عنك.

وذات يوم، خطرَت عليك فكرة الموقع الإلكتروني، فأقنعتنا أنا وشافيير. واستثمرتَ في هذا المشروع كلّ ما وفرته من أموال قليلة في البنك، دون أن نعلم بذلك. كانت تلك الفكرة تمثِّل الخلاص بالنسبة لك، بل كانت أكثر من ذلك لأن الموقع سيسمح للناس بأن يساعدوا بعضهم بعضاً. كانت تلك طريقة في النظر إلى الأمور في مستوى لا تسمح به إلّا التكنولوجيات الحديثة في عصرنا. إلّا أنّ الموقع كان فشلاً ذريعاً فجنّ جنونك وقررت أن تسطو على محطة للوقود. لكنهم ضبطوك متلبساً بتلك الجريمة وزجّوا بك في السجن.

لقد أغلق متجر الأحذية أبوابه - هل كنت تعرف ذلك؟ -،

ورغم أنك لم تترك ديوناً كثيرة وراءك، فإنّ كلارا لم تعرف كيف تُدير تلك التجارة. لا أعرف إن كانت قد أعلنت عن إفلاس المشروع، لكني رأيتُ أوراق الجرائد تغطي زجاج الواجهة والرفوف فارغة هناك بالداخل. لا أعرف ما فعلوه بما تبقّى من الأحذية. على أيّ حال، ذلك المال القليل الذي كنتَ تجنيه من المتجر قبل أن يقبضوا عليك أصبح غائباً في بيتك. صارت كلارا تشتغل لساعات إضافية في المصحة، ولما أدركَتْ أنّ ذلك لا يكفي لسدّ مصاريف الشهر، وجدت عملاً ثانياً، فصارت تشتغل ليلاً وعند نهاية الأسبوع في منزل امرأة عجوز لا تغادر بيتها إلّا لِماماً: تساعدها في الأشغال اليومية، تحمّمها، تقدّم لها الأدوية، وترافقها. تغادر المصحّة، وتهرول نحو المنزل لتناول العشاء مع فاسكو، وعند الساعة التاسعة تكون قرب سرير العجوز، تستمعان معاً إلى إحدى الإذاعات الكاثوليكية. لا تنام في البيت إلّا ليلة أو ليلتين في الأسبوع.

هكذا، أصبح ابنك وحيداً فتعرَّف على أشخاص غير لائقين -كما يحدث عادة في أثناء المراهقة- وأخذ يتصرَّف من دون حسيب ولا رقيب حتى انتهى به الأمر في شاطئ من شواطئ كاباريكا حيث سقط حطاماً بشرياً. اتّصل بأمه، فلمّا لم تُجِبه اتّصل بي. بعد ذلك، كانت المسألة شبه منطقية: نظراً إلى الجروح في قدميه، لم يكن فاسكو قادراً على المشي، وبسبب الجروح في يديه، لم يكن قادراً على تناول الطعام أو الذهاب إلى المرحاض. أي أنه لم يعُد قادراً على تدبّر أموره والبقاء لوحده. أما كلارا، فلم تكن قادرة على الاعتناء بابنك لأنها تعتني بامرأة عجوز تجد صعوبة في التشبّث بالحياة. كنتُ هناك، فبقيت، ولهذا السبب لم أتمكّن من الذهاب إلى فيانا دو كاشتيلو لأرى مارتا والطفلَيْن.

ألمودوفار، هل تستطيع أن ترى ذلك الخيط الرفيع الذي يجمع بين هذه الأحداث الممتدة على مدى أربعين سنة؟ إنها تبدو بسيطة ومترابطة. لو أنك توقّفت في أيّ لحظة من اللحظات لتنظر أمامك، أنا متأكد أنك كنت سترى ما سيأتي من دون عناء. ولأوقفتَ في الوقت المناسب هذه السلسلة من الأسباب والنتائج، ولربما خرجنا منها سالمين. لكنك لم تقُم بذلك.

في ذلك السبت، في بيتك، وبينما كان فاسكو نائماً وضوء النهار ينقضي بسرعة داخل الشقة، اتصلتُ بمارتا وحكيتُ لها ما جرى. تحدّثتُ بسخط كبير: تحدثتُ عن حيف تلك الوضعية، عن إهمال كلارا لابنها، كما تكلّمتُ عنك وعن غيابك العبثي، وعن انحراف فاسكو. كنتُ أريدها أن تعلم أننا نقف معاً على الجانب نفسه. لم يكُن ذلك أمراً صعباً، لأنّ سخطي كان حقيقياً. بقيت أنتظر منها أن تدعمني فيما قلتُ لها للتو، لكنها حين تكلّمت، في الأخير، لم تسألني سوى عن حالة فاسكو. فكررتُ عليها ما قالته لي الطبيبة في المستشفى، واجتهدتُ في استعمال كلّ المصطلحات الطبية التي كنتُ أذكرها. بدا لي ذلك مهماً لتبرير عدم قدرتي على الذهاب إلى فيانا دو كاشتيلو. وبما أنها ظلّت صامتة سألتُها:

- هل أنتِ مستاءة؟

- نعم.

- مستاءة مني؟

- لا أريد أن أتحدث عن هذا الأمر الآن، يا دانييل.

- أحبك.

- أعرف ذلك.

ثم قطعنا المكالمة. ولأول مرة فكرتُ في إمكانية أن تكون الأمور بيني وبين مارتا قد وصلت إلى نهايتها منذ مدة طويلة دون أن ينتبه إلى ذلك أيّ واحد منّا.

حوالي الساعة التاسعة مساء، فتحتُ الثلاجة. كانت فارغة. في المُجمّد، كان هناك عشرون أو ثلاثون وجبة محضرة ومُجمّدة. سخّنتُ في المايكرويف وجبة لازانيا نباتية أكلتُها واقفاً وأنا أستند إلى طاولة المطبخ. عندما انتهيتُ من تناول العشاء، ذهبتُ لأرى فاسكو. كان ابنُك لا يزال يغطّ في النوم كأنه لن يستيقظ أبداً. وضعتُ يدي على جبينه؛ كانت به حمى. لم ينتبه لحضوري، ولم يتحرك حين أدخلتُ قرصين من الدواء في فمه -قرص لتخفيف آلام المعدة وآخر لتخفيض درجة الحمى- ثم قدمتُ له ماء لأساعده على ابتلاعهما. بعد ذلك، بسطتُ ملاءة فوق السجاد قرب سريره ثم تمدّدت فوقها، وغطيت نفسي بلحاف وجدته في دولاب غرفتك. لم أنَم نوماً جيداً، فاستيقظتُ أكثر تعباً ممّا كنتُ عليه قبل النوم.

في الصباح الباكر، تحدثتُ مع كلارا في الهاتف. أخبرتني أنها لا تزال لوحدها مع العجوز، وأنها ربما تجد مَن يعوّضها لبضع ساعات حتى تتمكّن في المساء من القدوم إلى البيت لتناول العشاء.

تمطّط ذلك الأحدُ ولم ينقضِ بسرعة. لم أكُن أرغب في البقاء هناك، لأنّ ذلك البيت كان مليئاً بحضورك، يا ألمودوفار، وأنا كنتُ أرغب في أن أمضي قُدُماً، وأتركك خلفي. أشعلتُ التلفاز. أخذت أغيّر القنوات تباعاً، ولم أتوقف عند أيّ قناة بعينها. لم يكُن أيّ شيء يثير اهتمامي، أو ربما لم أعُد أعرف كيف أشاهد التلفاز. اتصلتُ بمارتا. فلور هي مَن أجابت على مكالمتي. اعتذرتُ لها لأنني لم أتمكّن من الذهاب إلى فيانا دو كاشتيلو. ضحكت وقالت:

- نحن مَن كان علينا أن نكون معك هناك.

لم تكُن مستاءة مني، يا ألمودوفار. ربما كانت مستاءة، لكنها كانت ترغب عن قول ذلك. ابنتي لها تلك القدرة على أن تكون بخير مع العالم، وهي ميزة أحسدها عليها ولطالما تمنيتُ أن تكون من ميزاتي. فلور لا تطالب بما ليس في ملكها وتبكي قليلاً عمّا تفقده. تعرف أنّ الحياة تدوم لما يكفي من الوقت حتى يكون كلّ شيء في النهاية أمراً يستحق العناء.

نام فاسكو حتى الساعة السادسة مساء. وحين استيقظ، قدّمتُ له طبقاً من سمك القدّ بالقشدة ثم أعطيته قرصاً آخر من الباراسيتامول. ثم أخذته على ذراعيّ إلى الحمام. ساعدته كي يخلع سرواله ويجلس فوق حوض المرحاض. بعد ذلك، نظّفته. لم ينطق أيّ واحد منا بكلمة. ثم أرقدتُه في السرير فنام بعد دقائق معدودة.

وصلت كلارا بُعيد الساعة الثامنة مساء. كان شكل وجهها فظيعاً، ملامحها مشدودة وهالتان حول عينَيْها. عانقتني وشكرتني. ظلّت لوقت طويل متمسكة بي، كما لو أنها ستنام هناك، واقفة، جبينُها على كتفي والحقيبة متدلية في يدها. كنتُ أريد أن أقول لها إن الأمور قد تفاقمت كثيراً، وإن ابنك قد أصبح تائهاً، وإنّ ما حدث في الشاطئ كان من المحتمل أن ينتهي بشكل سيئ، وإن عليها أن تتكلم معه كي ترشده وتدلّه إلى الطريق الصحيح. لكنها، بعد ذلك، انصرفت وذهبت إلى غرفة فاسكو. دخلت، جلست على السرير وظلّت تنظر إليه فقط. بعد مرور دقيقة واحدة، اضطجعَتْ إلى جانبه ووضعت رأسها على الوسادة. كنتُ عند باب الغرفة، وقبل أن تغمض عينيها همست لي أن أوقظها حوالي الساعة العاشرة مساء. بقيت لحظة. قلتُ في نفسي: **إنها لن تتحدث معه أبداً، ما دام**

ألمودوفار غائباً، ولن تجد القوة لتُضفي معنى على حياة ابنها. فالذّنْب ليس ذنبها.

أيقظتُها عند الساعة العاشرة. قبّلَتْ جبين فاسكو وانسحبت بهدوء من السرير. وحين بلغت الرواق، قالت لي:

- أحتاجك لكي تبقى هنا ليلة أخرى. هل تستطيع ذلك؟

- أين أنت ذاهبة؟

- عليّ أن أعود إلى العمل. هل تستطيع أن تبقى هنا؟

- أستطيع ذلك.

- أَخْبِرْهُ أنني كنتُ هنا.

ثم شكرتني وخرجت.

استيقظ فاسكو بعد ذلك بقليل. كانت الدهشة تعلو محياه، كما لو أنه لم يتعرّف غرفته الخاصة. بيد أنه كان يبدو متعافى ومنتعشاً، بعد أن خفّت الحمى. قال لي إنه يشعر بالجوع مرة أخرى، فسخّنتُ طبق باييلا كان في الثلاجة. ساعدتُه على أن يجلس فوق السرير ووضعتُ الطبق فوق حجره. وبينما كنتُ أمدّ ملاعق الأكل إلى فمه، تحدثنا لبضع دقائق. تحدثنا عنكَ. حكيت له عن ذلك الفجر يوم قفزنا أنا وأنت فوق سور حديقة الحيوانات ورحنا نتجوّل في الظلام قرب كلّ تلك الحيوانات. حكيتُ له كيف صافحك الشامبانزي عبر قضبان القفص، وكيف تعالت أصوات تلك الببغاوات بالصياح حين رأتنا نقترب، وعن الخوف الذي تملّكنا عندما ظهر حارسان فظننّا أنهما دُبّان هربا من قفصيهما. ضحك فاسكو لمدة ثانية، وبعد ذلك غاصَ في صمتٍ طويل، ثم قال:

- ماذا تظنّ أنه سيحدث حين يغادر والدي السجن؟

فكرتُ: **سنموت جميعاً شيئاً ما**. لكني أجبتُه:

- سوف نُقيم حفلة. ثم تستمرّ الحياة.

أومأ برأسه لوقت طويل، كما لو أنه يرغب في أن يصدق تماماً ما قلتُه، لكنه لا يستطيع ذلك.

- لقد كانت أمك هنا - قلتُ له - اضطجعَتْ إلى جانبك ونامت.

- ثم انصرفَت لحال سبيلها، قال مُهمهماً.

- لا تقُل ذلك. إنها تفعل كلّ ما في وسعها.

- **كلّ ما في وسعها**؟ إذاً هذا غير كافٍ.

- لا تكُن مجحفاً في حقّها. في انتظار أن يعود والدك، عليها أن تتحمّل كلّ الأعباء. البيت، والمؤونة، والفواتير التي ينبغي تسديدها كلّ شهر. وأنت.

- أنا؟

- نعم، أنت. إن لم تكُن راضياً على ما تقوم به، فما عليك سوى أن تبدأ في مساعدتها. سوف تكمل ست عشرة سنة، أليس كذلك؟ يمكنك أن تشتغل وتكسب مالاً. هذا خير لك من أن تظلّ تتسكع وتقوم بأمور غبية.

ألمودوفار، أشاحَ ابنُك بوجهه عني كما لو أنه لا يريد أن يسمع كلامي، وتابعتُ أمدّ ملاعق الأكل إلى فمه. بقينا صامتَيْن حتى انتهى من الأكل. بعد ذلك، سألتُه:

- هل تريد أن تحكي لي ما وقع في الشاطئ؟

- لا.

- مَن كان صاحب فكرة المشي بأقدام حافية فوق الزجاج؟

- كان ذلك رهاناً.

- رهاناً؟ - ضحكتُ - هل ربحت، على الأقل؟

نهض وأراني الضمادات التي تلفّ ذراعيه. ثم سألني:

- ما رأيك؟

- كنتُ أظنك أذكى من هذا. تباً لك! ماذا كنت تفعل مع هؤلاء الأشخاص في ساحل كاباريكا؟

- إنهم أصدقائي.

- هل هم الأشخاص نفسهم الذين كانوا معك في موقف السيارات؟

لم يُجِبْني، فتابعتُ:

- إنني لا أفهم، يا فاسكو. أتريد أن تكون صديقاً لأولئك المراهقين الذين يقضون وقتهم في ضرب وإذلال المشرّدين والسكارى؟ لا أفهم.

- أنا كنتُ فوق الشاحنة الصغيرة. ألم ترَ ذلك؟ لم أضرب أحداً.

- يومها لم تضرب أحداً. لكني شاهدتُ الفيديوهات الأخرى. تباً لك! قمتَ بفظاعات أخرى. الآن، على الأقل، لا تكُن جباناً واعترِفْ بما حدث.

ألمودوفار، لقد ارتعشت عينا ابنكَ ورمشت، وبذل مجهوداً كبيراً كي لا يبكي. كان يهمّ بالكلام، فمنعته.

- إنك لم تكُن هكذا، يا فاسكو. لكن الآن، بسبب أصدقائك، ضربت رجالاً عُزّلاً. بسبب أصدقائك، أصبحت شخصاً من هذا النوع. أفهم أنك غاضب. والدك ليس هنا. وأمك تكاد لا تتوقف في البيت. الحياة صارت أصعب ممّا كانت عليه. لكن، لا شيء من هذا يبرِّر ما تقوم به رفقَة أولئك المراهقين.

- إننا لا نقضي كلّ الوقت في ارتكاب الفظاعات، نحن أصدقاء...

- اللعنة! إنهم ليسوا أصدقاءك. لقد تركوك في الشاطئ. انصرفوا لحال سبيلهم وتركوك هناك عرضة للبرد، لا تستطيع استعمال يديك ولا قدميك.

هزّ كتفيه. كنتُ أستطيع أن أقول أشياء كثيرة، خطاباً كاملاً حول الأصدقاء الحقيقيين، أطروحة تقريباً أحدّثه فيها عن أنفسنا، عني وعنك وعن شافيير، عن الثقة والاحترام وأشياء أخرى من هذا القبيل. لكني لخّصتُ الأمر في جملة واحدة:

- إنهم أبناء عاهرات.

ضحكَ. كانت ضحكة قصيرة خرجت من أنفه. وبعد لحظة صمت، قال:

- إنهم غاضبون مني.

- لماذا؟

- لأنني أخذتُ شيئاً في ملكهم... فاكتشفوا الأمر.

- شيئاً؟ أي شيء؟

- لا يهم.

- الأمر مهم، فعلاً. أي شيء؟

- مال.

- كم من المال، يا فاسكو؟

- ثلاثمئة يورو، تقريباً.

- ثلاثمئة يورو؟ كنتُ أظنّ أنهم أصدقاؤك. لا يصحّ أن تسرق أصدقاءك. كيف اختلست ثلاثمئة يورو؟

- أخذتها من محفظة مراهق يبيع الأقراص أمام أبواب المدارس للتلاميذ.

- رائع! أمك سوف تحبّ هذه الحكاية. ناهيكَ عن والدك.

- لا. من فضلك! لا يمكن أن تحكي لهم هذا الأمر.

- سنرى ذلك. والآن؟

- الآن، إنه يريد أن أعيد له المال.

- ألهذا السبب تخلّوا عنك وتركوك في الشاطئ؟

- نعم.

- فاسكو، أرجِعْ له المال ولا تَعُد لمُعاشرة هؤلاء الأشخاص مرة أخرى.

- لا أستطيع. لقد أنفقتُ المال.

- في أيّ شيء أنفقته؟

- اشتريتُ هاتفاً خلوياً وجهاز ألعاب فيديو.

- تباً لك! هل تتحدّث بجد...؟ إنّ البلد يغرق، وكلّ واحدٍ منّا يحاول أن يرفع رأسه فوق سطح الماء، في صراعٍ يومي وغير عادل، وأنت تأخذ ثلاثمئة يورو، ليست حتى في ملكك، وتشتري هاتفاً خلوياً وجهاز ألعاب فيديو. إنه بسبب تصرّفات أشخاص مثلك وصل العالم إلى هذه اللحظة الحزينة من تاريخه. أتعرف كم من الوقت يستطيع الناس أن يعيشوا على ثلاثمئة يورو؟ شهوراً. هل فكّرت في كلّ المشاكل التي يمكن لأمك أن تحلّها بهذا القدر من المال؟

لم يُجِبْني. حدجني فقط بنظرة مِلْؤُها الضعف.

- لا أستطيع مساعدتك - قلتُ له. أستسمحكَ. حتى لو أردتُ

ذلك فلن أستطيع، لأنّ ظروفي صعبة، وليس معي هذا القدر من المال.

أومأ موافقاً بحركة من رأسه، فأضفتُ:

- بِعْ الهاتف وجهاز ألعاب الفيديو. في الإنترنت. في المدرسة. بِعْهُما بسرعة وأعِدْ لهم مالهم. بعد ذلك، ركِّز على أمورك الخاصة لأنّ الحياة أهم ممّا تظن. لو كان والدك هنا...

- لكنه ليس هنا.

- نعم، إنه ليس هنا. لكني أنا هنا. سوف تُعيد هذه الأشياء اللعينَة إلى أصحابها، يا فاسكو. لا أريد أن أعلم أنك ارتكبتَ أموراً غبية أخرى. إنّ العالم والناس يستحقون منك احتراماً أكبر.

ألمودوفار، فجأة، بدا لي أنّ ابنك قد صار صغيراً، طفلاً بالكاد يمشي على رجليه. لم يكُن لديّ ما أضيفه، وكان عليه أن يتعلّم لوحده كيف يعتني بنفسه ويدبّر أموره. لذلك سكتُّ وغادرت الغرفة، ثم أمهلته وقتاً كي تَنْفذ كلماتي إلى ذهنه.

حوالي الواحدة صباحاً، ألمّت به الحمى من جديد. قدّمتُ له أقراصاً، وماء وبسكويت. طلب مني أن أبقى إلى جانبه حتى ينام. فبقيتُ.

في صباح اليوم الموالي، وصلت كلارا باكراً جداً، لم تكُن الساعة الثامنة بعد، لتقضي اليوم مع ابنها. كان يوم اثنين لكنها طلبت يوم إجازة من العيادة. كانت جدّ متعبَة، بالكاد تكلمت. لكنها كانت هناك، فملأت بيتكما بأمل كان يفتقده.

عندما ودعتُ فاسكو لم أقُل له شيئاً عمّا دار بيني وبينه ليلة أمس. نظرَ إليّ نظرة قلق وشيء من الخجل. بقينا كذلك لحظة، ثم ذهبتُ لحالي.

يوم الجمعة، بعد أن قضيتُ أربع ساعات من العمل في توصيل الأدوية، أخذتُ السيارة وقطعتُ أربعمئة كيلومتر حتى بلغت فيانا دو كاشتيلو. كان ذلك حماقة، بالطبع، لأن السفر على متن القطار كان سيكلّفني نصف ما أنفقته في الوقود وواجبات الطريق السيار. لكن في تلك الساعة لم يعُد هناك من قطار نحو فيانا دو كاشتيلو وأنا لم أكُن أرغب في الانتظار ليلة أخرى. كنت أريد أن أستعيد ثقة مارتا وأجعلها تعرف أنني أحاول كلّ ما في وسعي من أجلنا جميعاً، وأنني لم أتخلَّ عنهم، عنها وعن الطفلَيْن، وأنهم ما زالوا أهم شيء في حياتي. خلال الأسبوع لم نتحدّث عن إمكانية أن أزورهم يومَي السبت والأحد، فقط حين كنت على بُعد مئة كيلومتر من لشبونة بعثتُ إليها رسالة نصّية أخبرها أنني في الطريق إلى فيانا دو كاشتيلو. كنتُ أعرف أنها تنتظر مني شيئاً ما، كلمة تحلّ كلّ المشاكل، أن أنظر إليها من دون عجلة من أمري وأساعدها على أن تجد في عينيّ الثقة بأنّ العالم، على الأقل عالمنا الخاص، ما زال أمامه حلّ. لكني كنت جدّ متعب، يا ألمودوفار. لم أكُن أرغب في أن أجد حلاً لأيّ شيء. فقط كنت أريد أن أكون معهم، أضحك معهم، وألمسهم؛ لحظتها، كان هذا كافياً لأشعر من جديد أنني إنسان عادي.

وصلتُ إلى فيانا دو كاشتيلو بُعَيْد منتصف الليل. كانت مارتا مستيقظة تنتظرني. أخذتني إلى المطبخ وقبّلتني بتثاقل على فمي، كما لو أنها ظلّت تتدرّب على تلك اللحظة. اعتقدتُ أنها ربما لم تعُد مستاءة مني، وأنه ابتداء من تلك القبلة يمكن أن تعود الأمور إلى سابق عهدها. جاء ماتيوس، بعينين شبه مغمضتين من النوم. كان رأسه حليقاً، ولم يكن أصلع تماماً، بل بدأ شعره ينمو خشناً.

عانقني وهو يشدّ على خصري ويدفن وجهه في صدري. دون أن ينبس ببنت شفة، جلس إلى مائدة المطبخ وفتح الحاسوب. استعمل الفأرة لبضع دقائق دون أن يرفع عينيه عن الشاشة. ثم قال بعد ذلك:

- ليلة سعيدة.

ثم عاد إلى السرير. قالت لي مارتا إنه منذ عدة أسابيع بدأ يلعب على الخط مباشرة. تتمثّل اللعبة في تدبير قطيع مفترض من الدواجن، لذلك يتعين عليه في أيّ ساعة من الليل أو النهار أن يكون مستعداً لمراقبة قطيع لا يكفّ عدد رؤوسه، من دجاج وبط وديك حبشي، عن التزايد. يعتني بإنتاج البيض، ويتفاوض بخصوص أثمان المنتوج حتى يحصل على أحسن الأرقام وتشتغل تجارتُه بشكلٍ فعال. إلى غاية تلك اللحظة، لعب حوالي ثمانين ساعة، وكان يحتلّ، وفق ما حصل عليه من نقاط، المرتبة السادسة ضمن لائحة تضم أكثر من مئة وعشرين لاعباً. كان يملك اثنين وثلاثين مَطْيرة وأكثر من مليونين من الدواجن. كما أنه خلق تحالفات قوية مع بعض اللاعبين الأكثر قوة في المسابقة وبدأ ما ينتجُه يؤثر على تحديد ثمن البيض في السوق الافتراضية. بينما كانت مارتا تتحدّث، شعرتُ بقلبي يخفق بقوة، كما لو أنّ ابني قفز للتو وارتمى في بحرٍ هائج به أمواج عاتية.

في الصباح الموالي، وجدتُ فلور في الفناء قبالة بيت أهل زوجتي، ممدّدة فوق كرسي طويل تقرأ كتاباً من صنف الكتب الصعبة. ابتسمَت لي، لكنها لم تنهض، فانحنيتُ لأقبِّل جبينها. جلستُ إلى جانبها فوق الأرض. تحدّثنا عن عملي في الصيدلية، وعن حادثة السير بين ستّ عربات ضمنها سيارة الأستاذة التي تُدرسها اللغة البرتغالية، كما تحدّثنا عن تسريحة شعرها الجديدة،

عن حنينها لدفء الجو، عن ريح فيانا دو كاشتيلو، وعن الأصدقاء الطيبين الذين اكتسبتهم في وقت وجيز. عموماً، كان كلّ شيء يبدو جيداً. بعد ذلك، أشرتُ بأصبعي إلى الكتاب الذي كانت تقرأه وهي تضعه على حجرها.

- ماذا تقرئين؟

- رواية.

- والجرائد؟

- لم أعُد أقرأ الجرائد. لم أعُد أقرأ أيّ شيء يتحدّث عن الواقع.

- لماذا؟

- لأنني أعرف كيف تنتهي القصص الواقعية.

- وكيف تكون نهايتها؟

- إنها لا تنتهي أبداً بشكلٍ جيد.

ألمودوفار، كانت فقط طفلة في الثالثة عشرة هي من يتحدّث بهذه الطريقة، ابنتي. وهذا ما أصابني بالخوف. كنتُ أريد أن أردّ عليها بأي شيء يقوّض ما جاء في كلامها. لكن وجودي معها هناك أستمعُ لصوتها كان شيئاً جميلاً، لم أكُن قادراً على أن أضيّعه. ولاحقاً، في ذلك اليوم، أخبرتني مارتا أنه في الأسبوع الماضي لم تفتح فلور كتبها المدرسية تقريباً. كان الموسم الدراسي يُشرف على نهايته ومن المحتمَل ألّا تكون نتائج الامتحانات جيدة كالعادة. حين تحدثت مع فلور في الموضوع، اكتفت بالقول:

- إنْ كان هذا هو كلّ ما يهمُّكما، فسأحصل على نقاط جيدة في الامتحان، لكن ذلك لن يغيّر في الأمر شيئاً.

كان ذلك هو الجواب الذي كنتُ أتمنى سماعه، لكنه جواب أقلقني أيضاً.

بعد العشاء، أشعل ماتيوس الحاسوب وأخذني في رحلة مستفيضة عبر بيوت الدواجن الافتراضية. كان ثمة شيء من الفخر المتكلّف في طريقة إشارته إلى كلّ الإحصائيات الخاصة بتجارته الملونيرية، وإلى أهم العمليات وأقوى لحظات الإنتاج. بعد ساعة تقريباً، أسندت وجهي إلى رأسه، وقلت له:

- يعجبني شعْرُك بهذا الشكل وهو شائك مثل لحية لم تُحلق.

أطلق الفأرة ونظرَ إليّ.

- هذا ليس كافٍ - قال متنهداً.

- ليس كافٍ، لماذا؟

- ليصبح المرء بوذياً. ويكون أكثر سعادة.

- ما الذي ينقصك؟

- ينقصني الشيء الكثير. بدأتُ أقرأ مدوّنة تتحدث عن الموضوع. المسألة معقدة. حين أعرف المزيد سأخبرك.

- اتفقنا - أجبتُه.

لكني لم أُخبرهُ بما كنتُ أفكّر فيه. أن ينسى البوذية والسعادة، وأنه لا يزال طفلاً صغيراً وأن الأطفال لا ينبغي لهم أن يفكّروا بتلك الطريقة، ما عليهم سوى أن يعيشوا كلّ يوم كمن يولَد دائماً، وأنّ كلّ شيء جيد، السعادة والشقاء، الغضب والحب. كلّ شيء له معنى.

لم تعُد مارتا لتقبّلني مرة أخرى لما تبقى من الأسبوع. لم يبدُ لي أنها كانت تتحاشاني أو أنها لا تزال مستاءة مني، لكنها، في الحقيقة، لم تقبّلني مرة أخرى. يوم الأحد ليلاً، كنا مضطجعَيْن على

السرير، والأضواء مطفأة، فقالت، كأنها تقرأ الكلمات في سبورة الظلام:

- لا يمكن أن نستمرّ هكذا.

انتظرتُ بضع ثوان، وأصوات تنفّسنا تملأ الظلام، ثم أجبتُها:

- معك حق. لا نستطيع أن نستمر هكذا.

بقينا صامتَيْن. فكرتُ فيما أقوله بعد ذلك، كان عليّ أن أقدّم لها شيئاً ما، كان عليّ أن أقول لها شيئاً ما. لكن مارتا سبقتني وقالت:

- لا أعرف مَن منا كان المخطئ. كلّ هذا لم يعُد له أيّ معنى. اعتقدت أننا نستطيع تجاوز هذا الوضع، وظننتُ أننا أقوى من كلّ هذا، لكن، في الحقيقة، وبشكلٍ مفاجئ، لم يعُد للأمر أيّ معنى.

- أيّ أمر لم يعُد له أيّ معنى؟

- نحن. أنت وأنا. هذا الوضع الذي نعيشه، أنا هنا مع الطفلَيْن وأنت هناك بعيداً في لشبونة. لا نرى بعضنا لعدة شهور.

- أعرف ذلك. معك حق. لكن الوضع لن يستمر إلى الأبد. سيتغيّر كلّ شي تماماً يوم أحصل على عمل لائق. سوف نشتري بيتاً آخر أو نكتريه، أو ما يبدو لنا مناسباً، وستعودون معي إلى لشبونة، ويجتمع شملنا مرة أخرى. يوم أحصل على عمل. . .

- ومتى سيحدث هذا، يا دانييل؟

- لست أدري. إنها مسألة وقت فقط. لقد أخذَت الأمور تتغيّر.

- إن الأمور لا تتغير. هل تتابع نشرات الأخبار التلفزية؟ إن الأمور، بالأحرى، تسير من سيئ إلى أسوأ.

- أعرف ذلك، لكني لن أظلّ عاطلاً عن العمل إلى الأبد.

كنتُ أتقنُ ما أقوم به من عمل سابقاً، لا بدّ أن هناك مَن سينْتبِهُ لذلك.

- يمكنك أن تأتي إلى فيانا دو كاشتيلو، تبحث عن عمل هنا، وهكذا يجتمع شملنا مرة أخرى.

صدّقني، يا ألمودوفار، شعرتُ بالهواء ينضب من حولنا. لم تعُد مارتا تؤمن بأنه يمكن أن نعود إلى تلك الحياة التي كنّا نعيشها من قبل.

- صحيح. يمكنني أن أفعل ذلك. لكن، في لشبونة هناك عروض عمل تُلائمني، وهنا لا بدّ أنّ فرص العمل أقل.

- يمكنك أن تبحث عن عملٍ في مجال آخر.

- مارتا، إنّ عملي يشكّل جزءاً مهماً من هويتي ولا يمكنني أن أكون شخصاً آخر.

- إنك تشتغل الآن في توصيل الدواء إلى المرضى، يا دانييل.

- أنت تعرفين جيداً أنّ هذا عمل مؤقت.

- عفواً، لكن عِدْني أنك ستفكر جيداً فيما أقول لكَ الآن.

قلتُ لها نعم. أومأتُ موافقاً بحركة من رأسي ولم أنبس بكلمة. لستُ أدري إن كانت قد رأتني في الظلام. بعد ذلك، عانقتها، فتحرّكت ثم نامت على الفور. بقيتُ مستيقظاً لثلاث ساعات، دون أن أغيّر وضعي، إلى أن استيقظت مارتا. ثم مارسنا الحب. وساعدتنا في ذلك ظلمة الفجر التي جعلت كلّ شيء أكثر سهولة.

في اليوم الموالي، بعد وجبة الغداء، ركبتُ السيارة وعدت إلى لشبونة.

أنا لم أكُن بحاجة إلى أن أفكر، يا ألمودوفار. ما قلتُه لمارتا بخصوص عملي، وأنه جزء مهم من هويتي، هذا صحيح؛ لكنني في النهاية كنتُ مستعداً لأتنازل عن هذه المُسلّمة في أيّ وقت فقط من أجل أن أكون معها ومع الطفلَيْن.

في هذه الحالة، لماذا لم تُخبرها بذلك قبل عودتك إلى لشبونة؟

لأن الحلّ، بالنسبة إليها، كان بديهياً، لأنها لم تعُد تؤمن بأنني سأجد عملاً آخر في مجال اختصاصي. أمّا أنا، فكنتُ أؤمن بذلك ولم ينقطع أملي. كنتُ أريدها أن تفهم ذلك. كنتُ أريد أن أجعلها تُدرك أنني لو استقررت في فيانا دو كاشتيلو، فإنّ ذلك يعني أنني أتخلى عن أَمَلي، وأن ما كانت تطلبه مني كان تضحية عظيمة.

دانييل، إنك غبي. منذ سنوات وأمَلُكَ هذا يجعل حياتك جحيماً وأنت لم تنتبه للأمر.

هذا الأمل، يا ألمودوفار، هو الشيء الوحيد الذي يُبقيني على قيد الحياة. ومع ذلك، كنت مستعداً لأتخلى عنه حتى تستعيد مارتا أمَلَها.

في ذلك الاثنين، وصلتُ إلى لشبونة وفي ذهني **خطة** جديدة: أشتغل في الصيدلية حتى نهاية الشهر، أحصل على أجري، أصفي كلّ الحسابات العالقة مع ساكادورا وابنَيْه، أضع كلّ شيء في السيارة وأعود إلى فيانا دو كاشتيلو، أستقرّ هناك وأبحث عن عمل. المسألة

بسيطة. وفي انتظار ذلك، سأستمر في النوم داخل الوكالة، أقضي النهار بين المقاهي، والمكتبات، والحدائق، والمراكز التجارية الكبرى. ألمودوفار، لم أحدِّثك بعد عن الساعات التي كنتُ أقضيها داخل المراكز التجارية الكبرى. كنتُ أدفع عربة تسوُّق أملأها بالشّامبو، ومواد الغسيل الخاصة بكلّ أنواع الأرضيات، وأشكال من الجبن المستورد، والخمور، والمصبرات، والجمبري المجمّد كما لو أنني أشتري المؤونة لعائلة كبيرة، أقف لساعات وأنا أنظر إلى بطاقات المواد، أقرأ العناوين، أحتار في اختيار أجود قطع اللحم، وأصناف السمك الطري، والفواكه الطازجة، أتحدث مع المستخدمين وأبتسم للزبناء، وبعد ذلك، فجأة، ألجُ أيّ رواق في المتجر ثم أركن عربة التسوُّق الممتلئة بمئات اليوروات من السلع، ثم أبتعد وأغادر المتجر خاوي اليدين دون أن أشتري شيئاً. على أيّ حال، كنت أقوم بما يرى كلّ شخص أنه يجب عليه أن يقوم به حتى يشعر أنه إنسان **عادي**.

لكن، لنعُد إلى ما كنتُ أقول. حسناً، كانت أمامي ثلاثة أسابيع كي أنهي رحلة قطار حياتي في لشبونة وأشدّ الرحال إلى فيانا دو كاشتيلو. لم أَعِدْ مارتا بأيّ شيء، ولم أخبرها بما قررتُ. لم أكُن أريد أن أخلق لديها ذلك الانتظار. لكني في الحقيقة، مع أنني كنتُ مصمّماً على الأمر. بَيد أنه حدث شيء ما أجبرني على إعادة النظر في قراري.

ألمودوفار، بعد بضعة أيام على عودتي من فيانا دو كاشتيلو، توصلتُ بمكالمة هاتفية من وكالة تشغيل أودَعتهم سيرتي قبل سنة تقريباً. وكنتُ حصلتُ من خلالهم على أربع مقابلات تشغيل لم تسفِر عن أيّ نتيجة. كان أول شيء سألتني عنه المرأة في الجهة

الأخرى من الخط هو إن كنت لا أزال أبحث عن عمل. فأجبتها بنعم وأنا أقول في نفسي: وأخيراً! بدأَتْ تحدّثني عن وظيفة شاغرة في مقاولة تُعَدُّ زبوناً لهم منذ عقد من الزمن، وهي مقاولة متخصّصة في مجال السياحة تبحث عن شخص يتميّز بالتنافسية، والحماس والدينامية، ومقابل ذلك يعرضون عملاً محفزاً وأجراً مغرياً. ثم تحدّثَتْ عن مواصفاتي، ومؤهلاتي وتجربتي المهنية، كما أثنَت على إتقاني لثلاث لغات أجنبية بالإضافة إلى اللغة البرتغالية وعلَّقَت على ما يعتري سيرتي من هفوات على مستوى التمكّن من الإعلاميات. بعد ذلك، طرحَت عليّ ثلاثة أو أربعة أسئلة حول ما أودّ القيام به مهنياً، وفي الأخير قالت إنها تظنّ أنني مرشّح مثالي للحصول على تلك الوظيفة. سألتُها عن اسم الشركة فاكتفَت بالقول:

- في هذه المرحلة من عملية التوظيف، لا أستطيع أن أقول لك شيئاً.

وفور ذلك، أخبَرتني بعجالة عن مهام الوظيفة: خلقُ وتنفيذ منتوجات سياحية، تنسيق عمل فريق من التجاريين، تدبير المحتويات على الإنترنت، والمشاركة، بصفة استشارية، في القرارت الاستراتيجية للشركة. سألتني إن كنت مهتماً بالوظيفة، فأجبتها:

- طبعاً.

عندئذٍ، قالت لي إنها سوف تُقيّم باهتمام أكبر مواصفاتي، وفي غضون أسبوع، بناء على نتائج التقييم، ستُخبرني إن كنت أمرُّ أم لا إلى المرحلة الموالية من مسلسل الانتقاء، الذي يتمثّل في إجراء مقابلة مع شخص مكلّف بالموارد البشرية في الشركة المذكورة.

خبر سار، في نهاية الأمر.

ألمودوفار، لم يكن ذلك سوى هراء. يمكن أن يكون بداية شيء ما، هذا صحيح، لكنه لحظتها لم يكُن أي شيء. ثم إنه لم تكُن تلك هي المرة الأولى. هل لديك فكرة عن عدد المكالمات الهاتفية المماثلة التي تلقيت سابقاً؟ وهل تعلَم كم مرة كنتُ مضطراً لشرح تطلّعاتي المهنية؟

لكن كانت هناك إمكانية إجراء مقابلة في الشركة نفسها. وهم كانوا في مرحلة توظيف. كان أمراً جيداً.

ألمودوفار، هذا النوع من الشركات دائماً في مرحلة توظيف. حتى إنْ لم يكُن لديهم أي وظيفة شاغرة. لا يكلّفهم أي شيء إجراءُ مقابلات مع مرشحين، واكتشاف أي نوع من الأشخاص يبحثون عن عمل دون أن يتعاقدوا فعلاً مع أيّ كان. إنه تصرف لا يختلف كثيراً عمّا كنتُ أقوم به شخصياً في المتاجر الممتازة، وأنا أملأ عربة التسوّق بالسلع لأتخلى عنها في النهاية من دون شراء أيّ شيء.

إذاً، لم يكُن ذلك مهماً بالنسبة لك؟

لا.

لكنك قلت إنه لهذا السبب أعدت النظر في قرار ذهابك إلى فيانا دو كاشتيلو والاستقرار فيها.

لم يكُن ذلك مهماً، يا ألمودوفار، لكنه كان شيئاً ما على

الأقل. وفي قرارة نفسي، لم أكُن أستطيع أن أتخلى عن شيء كهذا. كيف أستطيع أن أتخلى عن شيء كهذا؟ لم يُربّونا على أن نتصرّف بهذا الشكل. فكّرْ معي: قبل أربعين عاماً، لم يكُن هذا البلد أيّ شيء، وكانت الدكتاتورية تخنقنا حتى أننا لم نعُد نتنفس ولم يعُد العالم ينتبه أننا هناك، نُحْتضر. بعد ذلك، جاءت الديمقراطية، فنجونا، وعاد للحياة معنى، وأصبحنا من جديد جزءاً من الخارطة. قدّموا لنا يد العون، ساعدونا، راهنوا علينا، وقالوا لنا أنتم قادرون فصدّقناهم. ولماذا لا نصدّقهم؟ فجأة، بدأ كلّ شيء يتحرك، وتناسلت كلمات كثيرة مثل «تكوين»، «استثمار»، «تنمية»، فبلغت البلاد مستوى من الثروة لم تعرفه على مرّ القرون، وربما لم نكن مهيئين لتدبير كلّ هذه الخيرات، لكن هذا النمو جعلنا نشعر بالثقة والأمان. ثم قالوا لنا إن المستقبل سيكون امتداداً لتلك اللحظة من تاريخنا، وأنه سيكون أحسَن من ذلك. لم نكُن نعرف ما يقصدون، ولم نكُن ندري أنهم لا يعرفون شيئاً. لذلك تعلّمنا كيف نصدِّقهم، فاقتنينا سيارات ومنازل، وأرسلنا أبناءنا ليدرسوا في جامعات تتطلب مصاريف عالية أحياناً، واستثمرنا أموالنا في أسهم وقروض وما إلى ذلك، وشيّدنا بلداً جديداً لأنّ البلد القديم لن ينفعنا في شيء مستقبلاً. إنّ العقل البشري قابل للاختراق بشكلٍ كبير، يا ألمودوفار: كانت أربعة عقود من الزمن كافية لتقنعنا أنه يمكننا أن نصدّق بأنّ مصير الإنسانية عبارة عن تطور مستمر، وأن المستقبل مكان أحسن من الحاضر. كم كان بودّي أن أكون قادراً على رفض فكرة أن تلك المكالمة كانت بداية إمكانية عمل ملموسة. لكني لم أستطِع ذلك. لذلك قررت ألّا أغادر لشبونة إلّا بعد أن أعرف إن مررتُ أم لا إلى المرحلة الثانية من مسلسل التوظيف.

حدث ذلك ذات جمعة. بقيت أنتظر مكالمة من وكالة التشغيل طوال الأسبوع. لم يتصلوا. ورغم ذلك، أخبرتهم في الصيدلية أنني سأتوقف عن العمل معهم عند نهاية الشهر. نظر إليّ العجوز ساكادورا، مرتبكاً طبعاً بسبب هذا الخبر، ثم قال متعجباً:

- كنتُ أعرف أن مسألة توصيل الدواء هذه لن تجلب لنا غير المشاكل.

ولم يعُد ليكلمني مرة أخرى حتى آخر يوم من العمل، كأنني أفسدتُ تجارته.

جمعتُ أغراضي الخاصة في حقيبة وعلبة كبيرة، واحتفظتُ خارجهما بما أحتاجه لقضاء حاجاتي اليومية. كنت مستعداً للذهاب. لو توصلت بمكالمة من الوكالة، سأذهب لإجراء المقابلة وبعد ذلك أضع الحقيبة والعلبة في السيارة وأنصرف.

كما قلتُ، لم تتصل بي موظفة الوكالة خلال ذلك الأسبوع، لكن شافيير اتصل بي. لم نتحدّث منذ أكثر من شهر، وما إن أجبته حتى بادرني بالقول:

- هناك شخص بحاجة إلى مساعدة، يا دانييل.

- أهلاً، شافيير.

وكأنه لم يسمَع تحيتي، قال مرة أخرى:

- هناك شخص بحاجة إلى مساعدة، يا دانييل.

- شخص واحد فقط؟

- تباً لك يا دانييل! إنها امرأة. تسكُن في سويسرا.

- امرأة تسكن في سويسرا؟ كيف عرفت ذلك؟

- تركَت رسالة في موقعنا على الإنترنت.

- على موقعنا؟

- إنها بحاجة إلى مساعدة كي تذهب وتزور شقيقها في المستشفى.

- هدئ من روعك، يا شافيير. متى تركَتْ رسالة تطلبُ فيها المساعدة؟

- قبل أربعة أيام. لكني لم أنتبه للأمر سوى هذا اليوم.

- أوليسَتْ مَزْحة؟

- طبعاً، لا. كيف لهذه المرأة أن تمزح في أمرٍ خطير كهذا؟

- لست أدري... هل ردّ عليها أحد ما؟

- لا أحد.

- كم من الأشخاص قرؤوا تلك الرسالة؟

- سبعة وثلاثون.

- هل الرسالة باللغة البرتغالية؟

- بالبرتغالية والفرنسية.

- لكنها تسكن في سويسرا؟

- على الأقل هذا ما أدلَت به حين سجلت اسمها في الموقع في الخانة الخاصة بالعنوان. وهو ما تؤكده في طلب المساعدة.

- هل هناك من شخص آخر مسجّل في الموقع ويسكن في سويسرا؟

- ليس هناك من شخص آخر.

- ...

- ما رأيك؟

- ماذا تعني؟

- ما العمل الآن؟

- لن نقوم بأيّ شيء، يا شافيير. ننتظر أن يُجيب أحدهم ويتطوّع لتقديم المساعدة.

- وإن لم يُجِبْها أيّ أحد؟

- سوف ننتظر...

- إنّ احتمال ألّا يجيبها أيّ أحد احتمال جدّ مرتفع، يا دانييل.

- إنْ لم يُجِبْها أي أحد، لا نستطيع القيام بأيّ شيء. شافيير، لقد وضعنا حلقة الوصل هذه حتى يتمكّن الناس من أن يساعدوا بعضهم بعضاً، وخلقنا لهم طريقاً لم يكن له وجود من قبل، لكن لو قرّر الناس ألّا يستعملوا هذه الحلقة فلن نُجبرهم على ذلك.

- وماذا سيكون مصير هذه السيدة؟

- لا أعرف. عليها أن تتدبّر أمرها بطريقة أخرى. نحن قدّمنا لها إمكانية أخرى للحصول على مساعدة.

- هكذا نكون قد أوهمناها بأملٍ زائف في الحصول على مساعدة.

- أنت لا تعرف شيئاً عن هذا الآن. علينا أن ننتظر. تباً لك يا شافيير! هكذا هي الأمور في هذا العالم...

- ...

- سننتظر. سننتظر.

حالما قطعنا المكالمة، أشعلتُ الحاسوب وولجتُ إلى الموقع. كانت رسالة تلك المرأة هي الإشارة الوحيدة على نشاط الموقع في الأيام العشرة الأخيرة. تقول رسالتها:

اسمي دوروتيا ماركش. أنا فرنسية وأتحدّر من أبوين برتغاليين. عمري 68 سنة، وأعيش في مدينة جنيف في سويسرا منذ أن بلغت 33 سنة. أنا مشلولة منذ ست سنوات.

عشتُ حياة جميلة. ما أحتفظ به من ذكريات عن طفولتي يمدّني بقوة السعادة. بيتُنا ذو الطابقين في ضواحي باريس، أخواي الشابين، أحدهما أكبر مني سناً، والآخر أصغر مني. تزوجتُ رجلاً كان يحبّني حباً كثيراً، يعاملني معاملة لطيفة ويعتني بي كلما احتجت إليه. مات مبكراً جداً، لكني، بطريقة ما، تعلمتُ كيف أعيش في الفضاء الذي تركه فارغاً وراءه. فراغ مهول. اشتغلتُ لمدة أربعين سنة أستاذة لمادة الجغرافيا؛ أولاً في ثانوية بمدينة مونبيلييه، ثم في إعدادية هنا في جنيف. درستُ، وتعلّمت عدة لغات. سافرتُ عبر العالم عدة مرات. كنتُ دائماً متحفظة، ولم أكسب أصدقاء كثيرين، خلافاً لزَوْجي، الذي كان قادراً على ربط علاقات صداقات حتى وهو في طابور الانتظار في مصلحة البريد، لكني لم أندم قط على ذلك، بل إنني كنتُ دائماً أعتبر الوحدة مكاناً جميلاً ليعيش فيه المرء. أتعايش مع أمواتي –والديّ، شقيقي الأصغر، زوجي، وبعض الأصدقاء– وهو أمر أساسي بالنظر إلى سنّي. تركني الشلل فوق كرسي متحرّك، لا أستطيع مغادرة البيت لوحدي، لكن، لحسن حظي، أتمتع بقدرة على المقاومة جعلتني لا أفقد طعم الحياة لهذا السبب. لدي الإنترنت، كُتُبي وقططي. وهذا يكفيني.

أكتبُ إليكم بخصوص شقيقي. إنه يسكن في مارسيليا رفقة زوجته وابنه الأكبر. لديه حانة كاريوكي. فجْرَ يوم السادس عشر من مايو (قبل ثلاثة أيام) أغلق هو وزوجته وابنه الحانة ثم ركبوا السيارة باتجاه البيت. تعرضوا لحادثة سير مروعة: صدمتهم سيارة قادمة من الاتجاه المعاكس يقودها شخص في حالة سكر. لقي سائق السيارة الأخرى حتفه على الفور. كما توفيت زوجة أخي ومات ابنها بعد بضع دقائق وهو في

سيارة الإسعاف. أما أخي، فنقلوه إلى المستشفى. وهو لا يزال هناك. يقول الأطباء إنه سيموت هو أيضاً على الأرجح.

أريد أن أذهب لأراه. أريد أن أرى أخي. ربما سيموت، لذا أريد أن أراه قبل فوات الأوان. لكني لا أستطيع. لست قادرة على أن أذهب لوحدي، بكرسي متحرك، من جنيف إلى مارسيليا. أحتاج إلى مساعدة. لو استطاع أحد أن يساعدني، فسأكون ممتنة له إلى الأبد.

ألمودوفار، هل أنتَ سعيد بهذا الخبر؟ أخيراً، هناك مَن يستعمل الموقع ليطلب مساعدة، ويحقّق ما كنتَ تصبو إليه من إنشاء تلك الصفحة، لكن ربما كانت فكرتك ذكية. ألا يُسعدك قلق هذه السيدة؟

لا تكُن غبياً، يا دانييل، وأخبرني بما حدث. هل اقترح عليها أحدهم أن يأخذها لترى شقيقها؟

على رِسْلك، يا ألمودوفار. لديّ أشياء أخرى يجب أن أخبركَ بها قبل هذا. لأنه خلال ذلك الأسبوع اتصل بي فاسكو أيضاً.

كان على أحرّ من الجمر. في اليومين الأخيرين، لم يكفّ المراهق الذي اختلس منه شافيير المال في الاتصال ببيتكم، تارة يهدّد، تارة يصمت، وتارة يصيح. كانت كلارا قد عادت إلى العمل ولذلك لم تنتبه للأمر، لكنها أدركت ذلك في النهاية.

– هل معكَ المال؟ – سألتُه.

– معي جزء منه. صعب أن أحصل على مال من دون مغادرة البيت. تمكنتُ من بيع الهاتف الخلوي، لكني لم أبعْ جهاز ألعاب الفيديو بعد.

- سلّمْهُ ما لديك من مال. وقُل له إنك ستدفع البقية فيما بعد.

- اقترحتُ عليه ذلك، لكنه رفض رفضاً تاماً. يريد كلّ المال فوراً. ويقول إنه سيأتي إلى البيت، يا دانييل.

- فاسكو، إنه لا يستطيع أن يقتحم بيتكم.

- أعرف ذلك. لكنه يقول إنه سيظلّ هناك خارج البيت، في الشارع، ينتظرني أن أخرج. وفي يوم من الأيام، سأكون مضطراً لأخرج.

- اللعنة! كم بقي لك أن تدفع له من مال؟

- مئة وثمانون يورو.

ألمودوفار، إن لحظات مثل هذه هي التي يمكن أن تجعل حياتنا جحيماً من حيث لا ندري. نستجيب لنداء القلب ونفعل ما نظنّه صحيحاً، دون أن يهمنا إن فقدنا البوصلة وتهنا في لحظة من اللحظات. لم أكُن أملك مئة وثمانين يورو في حسابي البنكي، وربما لا أملك حتى نصف هذا المبلغ. ورغم ذلك، قلتُ له:

- أنا أعيرك المال.

- بجدّ؟

- لكن بشرط. تعدُني ألا تخالط أولئك المراهقين مرة أخرى.

- أعدُك.

- سوف أذهب معك. عندما تُعيد له المال، سوف أذهب معك بنفسي.

- . . .

- فاسكو؟ هل ما زلت هناك؟

- حسناً. يمكنك أن تذهب معي.

في صباح اليوم الموالي، تحدثتُ مع الدكتور ساكادورا. قلتُ له إنه على حق، وإنني لا يمكن أن أستمرّ في قيادة سيارتي وهي على تلك الحالة المؤسفة، وإنني مستعد للقيام ببعض الإصلاحات فوراً، لكن للقيام بذلك عليه أن يقدّم لي جزءاً من أجري الشهري. كان يدقّق لائحة من طلبيات الأدوية ولم ينظر إليّ. قال:

- الآن، وأنت تغادر الصيدلية، قرَّرت أن تصلح السيارة؟

لم أجِبْه. بقيت أنتظر. استمرّ فيما كان يقوم به، في صمت، لمدة دقيقة تقريباً. بعد ذلك، ودون أن ينبس ببنت شفة، نهض وتوجّه إلى دُرج النقود، أخرج منه 200 يورو ورقية وسلّمها إليّ كما لو أنني أجبره على ذلك وأنا أسطو على المحل.

اتفق فاسكو مع المراهق على أن يلتقيا في ذلك اليوم بعد الغداء. ذهبتُ إلى بيتك لأبحث عنه. كانت لا تزال هناك ضمادات في يديه ويمشي بصعوبة كبيرة. لذلك استغرق وقتاً طويلاً في قطع عشرين متراً التي تفصل باب البناية عن سيارتي. لكنه بدا أحسن حالاً وأكثر حيوية، وصار طفلاً مرة أخرى، يرتدي سروال جينز وقبعة ويحملُ حقيبة تتدلى من فوق كتفه. كان وجهه يشعّ طاقة وحماساً. تظاهر مازحاً أنه يصعد إلى السيارة عبر النافذة ذات الزجاج المكسّر، ثم ضحك بعد ذلك:

- كما في ذلك الفيلم - قال.

جلس إلى جانبي وخلع قبعته. سألتُه عن الوجهة التي ينبغي أن نأخذها بالسيارة، فقال:

- هل تذكر ذلك الشارع حيث وجدْتَني؟ ذلك الشارع حيث بدأت سيارتك تحترق؟

- كيف لي أن أنسى ذلك؟

- ماذا يوجد هناك؟

- هناك شقة في الطابق الثالث. سنتوجه إليها.

ألمودوفار، هذه هي الأحداث كما رواها لي فاسكو:

كانت الشقة في ملكية سيدة ألمانية استقرّت بالبرتغال قبل عشر سنوات بحثاً عن شيء من الشمس والدفء في حياتها. على ما يبدو، هناك عدة صور داخل جارور دُرْج في الغرفة تظهر فيها امرأة أربعينية، فارعة القامة، طويلة العظام، يغطي رأسها شعرٌ قصير أسود، تعلو وجهها ابتسامة صغيرة ويبرز من تقويرة صدرها نهدان مكتنزان. ربما قامت لمدة طويلة بإعطاء دروس في اللغة الألمانية في بيتها لفائدة تلاميذ الثانويات وطلاب الجامعات، ويُقال إنّ الشبان كانوا مهتمين بشكلها أكثر من كفاءتها التعليمية... هل تتخيل المشهد؟ ذات يوم، ذهب أحد الطلبة إلى المرحاض، وعندما عاد، كانت الألمانية ممدّدة على الأرض، جامدة، جاحظة العينين، تكشيرةُ ألم تعلو وجهها وكرسي ساقط إلى جانبها. كانت ميتة، نتيجة صدمة قلبيةٍ أو شيء من هذا القبيل، لأن شافيير لم يكن دقيقاً. اتصل الشاب بالشرطة ثم بوالديه. لكن، هل تريد أن تعرف ماذا فعل في انتظار أن يصلَ أحدهم؟ جثا على ركبتيه قرب الجثة، فتح أزرار قميصها، وأخذ ينظر إلى جسدها. كم يمكننا أن نكون أغبياء في هذا العمر! بعد ذلك، دسّ في جيبه مفاتيح الشقة وباب العمارة. حضرت الشرطة، وأدلى الشاب بتصريحاته، ثم أخذوا الجثة من الشقة التي ظلّت مهجورة مع كلّ ما تركته الألمانية من أغراض داخلها. بحسب ما قال لي فاسكو، عادَ الشاب إلى الشقة بعد ثلاثة أشهر ليتأكّد من أنهم لم يغيّروا القفل. ثم ربما يكون قد أعطى مفتاح الشقة لشقيقين له كانا ينامان في الشارع مقابل هندام ولوحة تزلّج على الأمواج.

بحسب ما حكى لي فاسكو، فقد دخل الشقيقان إلى شقة السيدة الألمانية لأول مرة السنة الماضية. في البداية، كانا يذهبان إلى هناك من حين لآخر، بعد نهاية الدروس، صحبة خطيبتيهما، وبعض الأصدقاء، يتسلون بألعاب الفيديو، يدخنون الحشيش، يشربون الجعة ويحتفلون. لم يظهر أيّ أحد قط ليُطالب بحقّه في ملكية الشقة، لا من الورثة ولا من البنك. حين كانت تصل فواتير الماء والكهرباء، كانوا يساهمون فيما بينهم ويؤدّونها. وعلاوة على ذلك، يا ألمودوفار، كانت البناية قديمة وجلّ الشقق الأخرى فارغة، معظمها بحاجة إلى إصلاحات كبيرة، فقط في الطابق الأخير كان يسكن رجل عجوز لا يغادر شقته إلّا لماماً. هكذا، كان بإمكانهم أن يدخلوا ويخرجوا كما يحلو لهم، ويأتوا ما شاؤوا من ضجيج وصخب، من دون حسيب ولا رقيب. وبالنسبة إلى أيّ مراهق في الخامسة عشرة من عمره، هذا المكان يمثّل حرية رائعة. أما بالنسبة إلى مُراهق مثل فاسكو، والده في السجن، أمه تشتغل على الدوام، ومشاكله عديدة في المدرسة، كانت تلك الشقة هي آخر ملاذٍ فوق الأرض. في تلك الشقّة، يا ألمودوفار، كان ابنك يقضي عدّة أوقات من فترات الزوال، بل وحتى بعض الليالي. وهناك كان مختبئاً عندما أمضيتُ عدّة أسابيع وأنا أبحث عنه في كلّ أرجاء الحيّ.

ركنتُ السيارة في المكان نفسه حيث كانت يوم ألقى عليها أولئك المراهقون غصناً محترقاً. كان شارعاً قليل الحركة، به محلات تجارية متناثرة هنا وهناك، وورشة لإصلاح السيارات، متجر عقاقير قرب البناية، ورجلٌ يجلس على مقعد عند باب المتجر هو الرجل نفسه الذي أطفأ النار التي اندلعت داخل سيارتي. وفوقنا أشجار ضخمة خضراء تعلوها سماء ربيعية زرقاء. سألتُ فاسكو:

- كيف تعرف أنّ هناك أحد ما في الشقة؟

- هناك دائماً أحد ما في الشقة.

- هل هناك من تجارة مشبوهة هناك في الشقة؟

- أي تجارة مشبوهة؟

- نبات القنب الهندي، حشيش، أشياء من هذا القبيل.

- طبعاً، لا.

- لماذا لا؟ قلت إنّ المال الذي اختلستَه قد كسبوه من بيع الأقراص المهلوسة.

- نعم، الشاب الذي اختلستُ منه المال يقوم بذلك. لكن، ليس هنا، بل في الملاهي الليلية.

- هل هناك أسلحة؟

- إنك لا تفهم. هذا مكان هادئ. هناك فقط شبّان يريدون أن يلتقوا فيما بينهم، بعيداً عن آبائهم وأساتذتهم. بعيداً عن أشخاص راشدين يزعجونهم طوال الوقت.

- مكان هادئ؟

هزّ فاسكو كتفيه، وقال:

- دعني أصعد أولاً. إن لم يكُن هناك أيّ مشكل أتصل بك فتصعد بدورك.

- يستحيل. سآتي معك.

- سوف يشعرون بالاستياء.

- إنهم مستاؤون أصلاً.

دخلنا إلى البناية. كانت الرطوبة منتشرة في كلّ مكان؛ في الهواء، فوق الأرضية الخشبية للسلالم، وعلى الجدران المتآكلة. صعدنا بسرعة، نقطع درجتين أو ثلاث درجات عند كل خطوة،

صامتين، تكاد خطواتنا لا تُحدث صوتاً. عند رواق الطابق الثالث كانت هناك دراجتان هوائيتان واقفتان قرب نبتة تذبل بسب انعدام الضوء. باستثناء الدراجتين، لم يكن هناك من شيء يشي بوجود مراهقين في أيّ شقة من تلك الشقق.

دقّ فاسكو جرس الباب فشعرتُ بكتفيّ ترتجفان. ألمودوفار، إنني لم أنتبه إلى حدّ تلك اللحظة أنني كنتُ خائفاً. بعد ثلاثين ثانية، فُتح الباب، فظهر شاب بدين وفارع، بقصّة شعر طويلة تنزل فوق عينَيْه، ووجه تغطيه البثور، يرتدي قميصاً به رَسم يمثل «هومير سيمسون» يجلس بملابسه الداخلية على أريكة في بيته، وقنينة جعة في يده. كان قوي البنية، ويستطيع لوحده أن يقضي عليّ وعلى ابنكَ في دقائق معدودة. نظر إلى فاسكو وضحك. ثم قال:

- يا إلهي! إنك في حالة سيئة.

بعد ذلك، رآني فتوقف عن الضحك.

- ماذا يفعل هذا الرجل هنا؟ - سأل.

- بوتو، أقدِّم لك دانييل. دانييل، أقدِّم لك بوتو - قال فاسكو.

- هل جئتَ مع والدك؟

- إنه ليس والدي - أجابه فاسكو. وأفسح لي الطريق لأمرّ. لا تُزعجني.

كما لو أنّ الطبيعة وهَبَته قوة جبارة، أزاح فاسكو الشابَّ بوتو من طريقه ودخل إلى الشقة. مررتُ بدوري متسلّلاً عبر الفضاء الضيّق بين جسد بوتو وعضادة الباب. نظر إليّ بوتو وهمس قائلاً:

- لن يكون أنيبال راضياً عن هذا الأمر.

ألمودوفار، إنّ ذلك الشاب بجسد فيل ضخم كان مسالماً تماماً، ربما لم يكُن يتجاوز سنه الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة.

كان مدخل الشقة ضيقاً ومليئاً بالملابس، وألواح التزلج المكسرة، وعربة تسوّق. كانت تفوح منه رائحة الحشيش، ليست كرائحة تصدر عن شخص يدخن، بل عطراً عليلاً وخفيفاً، كما لو أنّ هناك نبتة غُرست في إحدى الغرف. ربما يكون فاسكو قد كذب عليّ بهذا الخصوص. كانت الجدران مغطاة بخربشات تمثل عبارات، رسائل شخصية، وكلمات متناثرة، تنتشر أيضاً فوق السقف المغطى بالجصّ وعلى الأرضية الخشبية. كانت الشقة كتاباً مفتوحاً. كانت هناك موسيقى إلكترونية غير عالية، تعزف إيقاعاً صاخباً.

هل تستطيع، يا ألمودوفار، أن تتخيّل ابنك في مكان كهذا؟

سرتُ وراء فاسكو، وبوتو يتبعني. دخلنا إلى صالة كبيرة تتوسّطها بقايا نار أقيمت فوق الأرضية: رماد، فحم خشبي، بل وبعض قطع الخشب التي كان الدخان لا يزال يتصاعد منها. كان السقف أسود تماماً. والأثاث الوحيد عبارة عن أريكة ضخمة ودولاب أوانٍ من دون أبواب. كانت هناك أيضاً شاشة مسطّحة معلّقة بحبل غسيل شدّ إلى قضبان الستائر. كانت الشاشة مشغلة ومنقسمة إلى شطرَيْن، صورة ملاكم في كلّ شطر، وكلا الملاكمين بملابس داخلية وصدرٍ عارٍ وقفازين يدويين. وأمام الشاشة مراهقان، جنباً إلى جنب، يوجّهان إلى الهواء ضربات بسرعة جنونية. وفي اللعبة، كان الملاكمان يكرّران الحركة، لكن بإيقاعٍ أكثر بطئاً وبغضبٍ أقلّ حدّة من غضب الشابَّيْن.

كانا يديران ظهريهما للباب، وحين دخلنا لم ينتبها لذلك. بقينا هادئين خلفهما، حتى انتهت اللعبة فنهض أحد الشابين ورفع ذراعيه وهو يهتف بالنصر، يقفز على رجليه كما لو كان ملاكماً حقيقياً شارك للتو في نِزال خرج منه منتصراً. وفي خضمّ ذلك الاحتفال التفَتَ إلينا

وتوقف فجأة، وهو يجهد نفسه ليستعيد نَفَسه. كان هو، يا ألمودوفار، ذلك المراهق الذي كان يتبوّل على آفيلا في ذلك اليوم داخل موقف السيارات بالمركز التجاري. تعرّفني بدوره، ولحظتها انفتحت عيناهُ أكثر. رآني الشاب الثاني بدوره. كان مراهقاً أسود البشرة، وشارب مبتدئ يكبر فوق شفته العليا وفكّ ناتئ. كان منحنياً، يداه على ركبتَيْه، يتنفّس كما لو أنه سيبصقُ رئتيه. ورغم ذلك قال:

- تباً! . . . مَن. . . هو. . . هذا الرجل؟

قال فاسكو اسمي، ثم أردف:

- إنه صديقي.

ضحك المراهقان. جلس المنتصرُ في لعبة الملاكمة على الأريكة، وقال:

- إن كان صديقَك فهو صديقُنا.

ثم ضحك بوتو والشاب الأسود مرة أخرى.

- لقد أحضرتُ المال، يا أنيبال - قال فاسكو.

- هذا أمر جيد. . .

- فاسكو - قلتُ مقاطعاً - أعطِه المال وهيا نذهب إلى حال سبيلنا.

رفع أنيبال أصبعه مشيراً إليّ، ثم قال:

- اسمع، يا عزيزي، إنك لستَ هنا لتُعطي الأوامر. أنتَ لستَ في بيتك.

رفعت ذراعيّ لأقول له إنني لم آتِ بحثاً عن المشاكل. وأمَرَ أنيبال فاسكو أن يجلس بدوره على الأريكة، فامتثل لأمره وجلس.

ألمودوفار، كانت خطّتي هي أن أدخل إلى الشقة، أحيي

الجميع، أترك المال فوق الطاولة وأخرج. أمرٌ قد لا يتطلب أكثر من دقيقتَيْن. كنت أعتقد أن حضوري -حضور رجل راشد- قد يزرع الخوف في قلوب شرذمة من المراهقين، مهما كانوا متهورين، وأن فاسكو سيجد المجال فسيحاً أمامه وأنا إلى جانبه. لكني كنتُ مخطئاً أيّما خطأ، يا ألمودوفار.

- مثل هذه الأشياء القبيحة تحدث أحياناً، - بدأ أنيبال كلامه - وأنا أفهم ذلك. ترى المال فينظرُ إليك وكأنه يتحدثُ معك، كما لو كان فتاة جميلة تغازلُك بعينيها في الجهة الأخرى من الشارع، وعليك أن تذهب لتُكلّمها. وبينما أنتما تتبادلان القبل، لا تفكّر سوى في أن تأخذها إلى البيت وتحتفظ بها إلى الأبد. أفهم ذلك. اللعنة! إنني أفهم ذلك. وقد حدث لي الأمر نفسه، صدِّقْني. لكن عليك أن تكون حذراً، يا عزيزي. عليك أن تكون حذراً، لأن الفتاة الجميلة قد يكون وراءها قوّاد يتحكّم فيها. ولو اكتشف القواد أنك تريد أن تأخذها معك إلى البيت، فسينفضح سرّك. بعد ذلك، حين تنتبه للأمر، تجد نفسك وحيداً على الشاطئ في عزّ الليل. الظلام يخيّم على المكان، البرد قارس، قدماك ويداك تنزف، وقد غطّتها الجروح، فتضطر أن تمشي زاحفاً على مرفقيك لتخرج من هناك كي لا تموت مُتجمّداً.

إلى جانبي، كان بوتو منهمكاً في لفّ سيجارة حشيش فضحك دون أن يرفع عينيه عن الورقة المترعة بالعشب.

- كُنْتَ... مجنوناً - همهَمَ الشاب الأسود. وهو يوجّه من جديد لكمات إلى الهواء بينه وبين الشاشة.

- تباً لك، يا فاسكو. لا تعُد لتناول مثل هذه الأشياء السيئة دون أن تعرف ما اسمها ولأيّ شيء تصلح - صاح بوتو.

ضحك أنيبال، فضحك فاسكو بدوره.

- فاسكو - قلتُ - ضَع النقود فوق الطاولة، وهيا بنا.

- إنني أفهم الموقف الذي وضعت نفسك فيه - قال أنيبال - لكن، عليك أنت أيضاً أن تفهم موقفي.

- أفهم ذلك - أردف فاسكو.

- لستُ متأكداً - قال أنيبال.

- طبعاً، أنا أفهم. أستسمحك. ما كان عليّ أن أفعل ذلك.

ألمودوفار، لست أدري إن كنت تفهم، لكن، بعد كلّ ما جرى كان ابنك لا يريد أن يستمر أصدقاؤه غاضبين منه، ويرغب في أن يتصالح معهم.

- إنْ كنتَ تفهم الموقف الذي وضعتَ نفسك فيه - قال أنيبال - فعليك أن تعلم أن قدومك إلى هنا لتسليم النقود لا يكفي. عليك أن تقدّم المزيد.

نظر إليّ فاسكو لثانية واحدة فقط. لم أفهم إن كان يريدني أن أساعده ليغادر ذلك المكان أو أن أنصرف وأتركه هناك. ثم أخرَجَ من حقيبة ظهره ظرفاً بداخله ثلاثمئة يورو التي كان يدين بها لأنيبال.

- هذا هو المبلغ كاملاً، ولا أستطيع أن أقدِّم لك أكثر من هذا، لأنني لا أملكه.

أخذ أنيبال النقود ووضع قَدَماً فوق الأريكة. بعد ذلك، رفع سرواله حتى الركبة واحتفظ بالنقود داخل الجَوْرب.

- أعرف أنك لا تملك أكثر من هذا. لو كان معك ما كنتَ لتختلس نقودي. لكن، يمكنك أن تساهم بطريقة أخرى، أليس كذلك؟

قال ذلك ونظرَ إليّ، بابتسامة مهادنة تعلو محياه، كما لو أنه ينتظر مني أن أدعم ما كان يقوله.

- انهض يا فاسكو، هيا بنا - قلتُ.

لم يتحرك فاسكو من مكانه، وظلّ ينتظر. فأضاف أنيبال:

- تساعدني في بيع الكميات الفائضة في ثانويتك وانتهى الأمر.

- اللعنة! - صحتُ - دَعهُ وشأنه. يكفي أنه أعاد لك المال.

مدّ بوتو سيجارة الحشيش الملفوفة لأنيبال، الذي أمسكَ بها كما لو كانت قلماً وهو يستعدّ للكتابة على الهواء برأسها المتوهج. ألمودوفار، إن حضوري في تلك الشقة لم يكن له أيّ وقع يُذكر، فهم لم يكونوا خائفين مني، بل ولا يشعرون بأيّ خجل في وجودهم هناك وهم يسمعون كلّ شيء. سحَبَ أنيبال نَفَساً طويلاً من سيجارة الحشيش، ثم احتفظ بالدخان في صدره، وقال:

- إنها الطريقة الوحيدة أمامك كي تكسب شيئاً من المال، وأنت تعرف كم أنت بحاجة إليه.

أومأ فاسكو موافقاً بحركة من رأسه. سحبتُه من ذراعه فنهض.

- هيا بنا - قلتُ له.

- ليس من الضروري أن تُجيبني الآن - أضافَ أنيبال.

قال ذلك بصوتٍ أكثر نعومة، يكاد يكون موسيقياً، ففهمتُ أنه لن يلحق بنا أيّ أذى، على الأقل في ذلك اليوم. فقط كان يريد أن يعرض اقتراحه. تلك هي طريقتة في التفاوض.

كانت هناك سحابة دخان تلف بوتو، وداخل السحابة لم يكُن العالم هو العالَم نفسه. كما أنه داخل تلك الشقة لم يكُن العالم هو العالم نفسه. هناك، في تلك الصالة، حتى الأشياء المستحيلة تبدو ممكنة. كان ثمة اندفاع في حركات كلّ أولئك الشبان تجعلهم لا

يُقهرون. الضحك يبدو شيئاً سهلاً للغاية. وربما تكون السعادة شيئاً سهلاً. لأنه لا وجود للوقت بالنسبة إليهم، يعيشون كلّ لحظة، كما لو أنّ الماضي والحاضر لا وجود لهما. وفاسكو يتوفر على كلّ الأسباب ليبقى هناك.

ومع ذلك، عندما غادرتُ الصالة، تبعني ابنُك. ربما لم يكن يريد أن يخيّب ظنّي، ربما كان يفكّر في أنه سيعود لاحقاً. ونحن نتوجّه نحو باب الشقة، في الجهة الأخرى من الرواق، فُتح باب آخر. ومن الحمام، على صوت الطرّادة، وخرج رجلٌ يترنّحُ.

كان هو آفيلا، يا ألمودوفار. نعم، الوغد آفيلا، سكران حتى النخاع، يحاول أن يشدّ أزرار سرواله، وأصابعه تصطدم بعضها ببعض.

رآنا، فرفع إحدى يديه ليحيينا واتكأ بالأخرى على الجدار. نزل سرواله حتى الكاحلَيْن. ظلّ ينظر إلى رجليه كما لو أنه يحاول أن يفهم ما وقع له. كان منظره يشبه مشهداً من تلك الأفلام الكوميدية الخاصة بالمراهقين التي يقدّمونها على شاشة التلفزيون أيام الأحد زوالاً. لم يكُن مشهداً كوميدياً، لكنه في الوقت ذاته لم يكُن مأساة. كلّ شيء يجري في أذهاننا، يا ألمودوفار. ننظر إلى العالم، ونقرّر إن كنّا سنبكي أم سنضحك ممّا نرى. فالعالم لا يكون جميلاً أو قبيحاً إلّا عندما ننظر إليه. إن لم يكن هناك من أحد ينظر إلى العالم، فإنه مجرد عالم كما هو. لذلك خرجنا من هناك.

وتركت آفيلا هناك مع أولئك المراهقين؟

كلا، بل هو مَن اختار أن يبقى معهم.

كان سكران. ولا بد أنّ هؤلاء المراهقين قد أخذوه إلى هناك ليسخروا منه ويعتدوا عليه.

لا يمكنني أن أتحمّل مسؤولية ما وقع له.

كنت تستطيع أن تقوم بشيء ما.

لقد قمتُ بذلك. يوم وقع ما وقع في موقف السيارات، حين تخليتُ عن مكنسة كهربائية كلّفتني مبلغاً مالياً كبيراً وعملي أيضاً من أجل إنقاذ حياة رجل لم يكن يرغب حتى في النجاة.

صحيح. لكن ذلك لم يكن كافياً.

ولن يكون كافياً أبداً. يمكننا دائماً أن نقوم بما هو أكثر من ذلك. نعرف أن هناك أشخاصاً يموتون من الجوع، وأن هناك من الأمراض ما يمكن علاجه بأدوية بسيطة وعادية. وهناك من يموتون من البرد، والحرارة واليأس. لكننا لا نفعل أي شيء. وأنا أسألك: لماذا لا نفعل أي شيء؟ لأن لدينا حياتنا الخاصة التي ينبغي أن نعيشها، وهذا لا يمكن اعتباره أمراً سيئاً.

تباً لك، يا دانييل! على الأقل كنتَ تستطيع أن تبلّغ الشرطة.

وفاسكو؟ ألم تفهم الموقف بعد؟ لو أن المراهقين اكتشفوا أنني تكلمت مع الشرطة عن الشقة، فلن يغفروا لي ذلك. ثم إنّ ابنك

يظهر في عدة شرائط فيديو وهو يضرب المتشردين ويُسيء معاملتهم.

خرجتُ، إذاً، من الشقة فتبعني فاسكو. ينبغي أن تكون سعيداً لهذا الأمر.

عندما تركتُ ابنك في البيت، قلت له إنه لا يمكن أن يعود ليدخل مرة أخرى إلى تلك الشقة، وإنه لا يمكن أن يلتقي بأولئك المراهقين من جديد. أومأ موافقاً بحركة غير مُقْنِعَة من رأسه. ولم أكُن واثقاً من أنه سيفعل ما كنتُ أقول له. كان يهمّ بمغادرة السيارة، حين أمسكتُه وقلتُ له:

– بِعْ بسرعة جهاز ألعاب الفيديو. إنك تدين لي بمالٍ كثير.

فانفجر ضاحكاً، وضحكتُ أنا أيضاً.

ليْلَتها، حين اضطجعتُ فوق سريري تحت المكتب، أعدتُ النظر في مؤشّر سعادتي.

قلتُ في نفسي: **8,9، لا. طبعاً.**

بعد ذلك فكرتُ: **7,5؟ لا.**

ثم قلتُ: **4,5؟ هذا ممكن. لكن، لا.**

كان شافيير على حق: السعادة مسألة معقّدة تستوجب تفكيراً عميقاً. لذلك فكرتُ:

طفلاي يعيشان بعيداً عني؛

أنا مشتاق إلى مارتا؛

أنْتَ، سجين وتلوذ بالصمت؛

أيامي تمضي فارغة؛
مئات النسخ من سيرتي التي أرسلتُها؛
وكلّ مقابلات العمل التي أجريتُها؛
بيتي داخل وكالتي القديمة؛
سريري تحت مكتبي القديم؛
أربع ساعات أعمل كلّ يوم في توصيل الدواء؛
المال الذي لم أعُد أملكه؛
إمكانية توصلي بمكالمة من طرف تلك السيدة في وكالة التشغيل؛
قرار ذهابي إلى فيانا دو كاشتيلو الذي طالما أجّلتُه؛
أملي اللامشروط في المستقبل؛
أنا، أنتَ وشافيير والذكريات التي تجمعنا إلى الأبد؛
يقيني بأنّ شافيير لن يتحمّل هذه الحياة أكثر من هذا؛
الليالي التي لا يغمض لي فيها جفن؛
أطراف جسدي المختلفة التي تتغير باستمرار وتشيخ؛
آلامي؛
ما أبذلُه من مجهود لأضحك؛
موتي، ذات يوم؛
موتُ والديّ السابق لأوانه؛
العالم بأسره يتهاوى على مهل؛
شيخوختي إلى جانب مارتا؛
أبناءُ أبنائي؛
دمي المسافر دوماً عبر جسدي؛
كلّ عام من سنوات عمري الثمانية والثلاثين؛
فاسكو في تلك الفيديوهات؛

احتقارُ فلور لقدراتها الطبيعية؛
ماتيوس ودواجنُه الافتراضية؛
الشمس؛
جسدُ مارتا عارياً فوق جسدي؛
رغبتي في القيام بما يبدو لي صحيحاً؛
كلّ أخطائي.

وهناك المزيد، طبعاً، لأنّ اللائحة لن تكون نهائية أبداً. لكنها بدت لي كافية للشروع في التقييم. أعطيتُ نقاطاً تقييمية لكلّ شيء. جمعتُ كلّ القطع فحصلتُ على معدّل 5,7. نعم مؤشّر سعادتي الجديد هو 5,7. لم يكن رقماً يُسعدني، لأنه منخفض أكثر من اللازم، لكن يبدو أنه يعكسني جيداً. أعدتُ الحساب، وحاولت أن أفهم أيّ نقاط يمكن أن أعدّلها حتى أرفع من النتيجة، لكن بدا لي أنه يستحيل تغيير شيء كثير.

اتصلتُ بشافيير.

- ليس هناك أي جديد - قال ما إن أجاب على مكالمتي.

- عن أيّ جديد تتحدث؟

- عن السيدة التي تسكن في سويسرا. لم يُجِبْها أيّ أحد بعد. غداً تكون قد مرّت عشرة أيام منذ أن دخل شقيقها إلى المستشفى، والوقتُ يمرّ بسرعة، يا دانييل. ربما يكون قد مات ونحن لا نعرف شيئاً. وأنا لا أستطيع أن أتوقف عن التفكير فيها. كلما فتحتُ الحاسوب صباحاً أكتشف أنه لا أحد مستعدّ لمساعدتها.

- شافيير، نحن غير مسؤولين عن وضعيتها.

- طبعاً، نحن مسؤولون عن وضعيتها. ما كان لها أن تغذّي

الأمل في زيارة شقيقها لولا وجود موقعنا. نحن مسؤولون عن أمل هذه المرأة.

- كما تشاء، يا شافيير. أريد أن أطلب منك شيئاً.

- ماذا؟

- لائحة مؤشّر السعادة. هل يمكنك أن تُرسلها إليّ؟

- هل حصلتَ على نقطة جديدة لمؤشّر رضاك عن حياتك؟

- هذا لا يهمك.

- هل أنتَ أقرب كثيراً من عشرة؟

- هل سترسل لي اللائحة أم لا؟

ثلاث دقائق بعد ذلك، توصّلت برسالة إلكترونية مع اللائحة. فتحتُها ومرّرت أصبعي على الشاشة حتى وجدتُ رقمي. ألمودوفار، كانت هناك خمسة بلدان يساوي معدّل مؤشّر السعادة فيها 5,7: جيبوتي، مصر، مونغوليا، نيجيريا، البرتغال ورومانيا. يا لسخرية القدر! كانت البرتغال من بين تلك البلدان. كان معدّل رضاي عن الحياة في تلك اللحظة يساوي معدّل الرضا عن الحياة في بلدنا. فكرتُ في الأشخاص الذين أعرفهم؛ في أصدقائي، في مارتا، وفي الطفلَيْن. ثم حاولتُ أن أتذكّر كلّ الأشخاص الذين أراهم كلّ يوم، وأذكر وجوههم وما نتبادله من كلمات. هؤلاء الأشخاص لا تتجاوز نسبة رضاهم عن الحياة 57%. هذا قليل جداً. فهل هُم واعون، على الأقل، أنّ هذا الرقم قليل جداً؟ هل يعرفون أن هناك إمكانية أن يكونوا أكثر سعادة وأن هذه الإمكانية حقيقية؟ هل يقومون بأيّ شيء ليجعلوا هذا الأمر ممكناً؟ هل لديهم **خطة**؟ لا بدّ أنّ هناك **خطة** ما. أنا متأكد أنه من دون مجهود كبير يمكننا أن نرتقي في ترتيب اللائحة، ونصل إلى معدّل 6,0. وإن بقينا مركزين، قد نصل في

سنوات قليلة إلى 7,0. أنا على يقين أن 7,0 رقم مشرف، لكن 5,7؟ 5,7 رقم لا يعكس درجة رضانا عن الحياة. 5,7 هو درجة عدم رضانا عن الحياة.

اتصلَتْ بي مارتا عند نهاية الأسبوع. في الأسبوع الموالي، سيكون ماتيوس وفلور في عطلة وتريدني أن أبقى معهما لأسبوع أو أسبوعين. بسبب الأشغال الجارية في المقهى، لا تستطيع هي كما لا يستطيع أبواها أن يعتنوا بالطفلَيْن.

- لقد كبرا - قلتُ - يمكنهما أن يبقيا لوحدهما. فلور مسؤولة.

- ربما، لكن ليس لوقت طويل.

- أنتِ تعرفين أنني أشتغل.

- أنت تشتغل أربع ساعات في اليوم. بإمكانهما أن يبقيا لوحدهما أربع ساعات في اليوم. ثم إنهما بحاجة ليكونا معك، يا دانييل. لقد اشتاقا إليك كثيراً.

ألمودوفار، قلتُ لها نعم. لأنه رغم أنّ مارتا لا تعرف ذلك، فمن المرجّح أنني في الأسبوع الموالي سأكون في فيانا دو كاشتيلو. ثم إنّ وكالة التشغيل لم تتّصل بي بعد وكنتُ مستعداً للذهاب.

اتّصلت بي سيدة وكالة التشغيل يوم الاثنين الموالي. قالت:

- لقد تمّ انتقاؤك لتمرّ إلى المرحلة الموالية من مسلسل اختيار المستخدمين.

- وماذا يجري في المرحلة الثانية؟

- هناك مقابلة هنا في الوكالة مع شخص مسؤول عن الموارد البشرية في المقاولة المُشَغِّلة.

- متى ستجري المقابلة؟

- لا نعرف بعد. سأتصل بك حالما أتوصّل بالتاريخ.

عندما قطعنا المكالمة، قلتُ في نفسي: **إنها تظنّ أنني يمكن أن أنتظر، وأنني سأكون دائماً رهن الإشارة.**

توصلتُ برسالة إلكترونية من شافيير. في الحقيقة، لم يكن البريد موجّهاً لي أنا، بل إلى السيدة دوروتيا ماركش، تلك الفرنسية التي تحتاج إلى مساعدة كي تزور شقيقها في المستشفى. وقد بعث لي شافيير بنسخة منه حتى يُطلعني على ما يجري. كان بريداً قصيراً، كُتب بلغة جدّ مهذبة، يقدّم من خلاله شافيير نفسه بوصفه مسيراً للموقع، كما لو أنّ الأمر يتعلق بإجراء روتيني يقوم به كلما طلب أحدهم مساعدة. يستهلّ رسالته بتهنئة السيدة على شجاعتها في الإقدام على طلب المساعدة؛ ثم يسأل عن أحوال شقيقها ويتمنى له الشفاء العاجل. كلّ ذلك في جملة واحدة. وفي الأخير، ينبّهها إلى أنه من الممكن ألّا يستجيب أيّ أحد لندائها.

اتصلتُ بشافيير.

- لماذا فعلت هذا؟

- يجب عليها أن تعلم أنه من الممكن ألّا يسفر طلبها عن أي نتيجة.

- إنها تعرف ذلك، يا شافيير. هذه هي الحياة. لا يخاف كلّ الناس من الحياة كما تخاف أنت. ثم إنه ليس من المفترض أن نتدخل نحن في الموقع إلّا إذا حدث شيء خطير.

- وهذا الأمر خطير. لولا وجود موقعنا، لكانت مكتفية الآن بالبكاء على شقيقها. أما اليوم، فقد صارت حبيسة أملٍ لقائه. وحين

ستُدرك أنه لا أحد سيساعدها سيكون ذلك صدمة فظيعة بالنسبة لها.

- الذنبُ ليس ذنبنا.

- إننا نتحمّل كلّ الذنب.

- ...

- يمكننا أن نذهب لنساعدها.

- نحن؟

- نعم، نحن. أنت وأنا.

- هل جُننتَ؟ إنها تسكن في سويسرا. هل تريد أن تذهب إلى جنيف؟ أنت لا تجرؤ حتى على عبور الشارع أمام بيتك.

- لكن لو قررتُ أن أذهب هل ترافقني؟

- كفّ عن هذا يا شافيير. هذا أمر لن يحدث.

- لو رافقْتَني، أظن أنني سأملك الشجاعة وأذهب إلى سويسرا.

- حتى لو رغبتُ في مرافقتك يا شافيير، فإنني لا أملك مالاً للذهاب إلى سويسرا. ولأكون صريحاً، أنا لا أملك حتى سيارة ملائمة للقيام برحلة إلى سويسرا؟

- وماذا لو حصلتُ على مال وسيارة؟

- تباً لك، يا شافيير! إنك تزعجني بأفكارك.

ثم قطعنا المكالمة.

بعد ساعة على ذلك، ردّت السيدة دوروتيا ماركش على الرسالة. قالت إنّ حالة شقيقها خطيرة لكنها مستقرّة، وإنها كانت دائماً امرأة قوية طوال حياتها، وليس هناك من سبب لتفقد الأمل في ظهور شخص ليأخذها إلى مارسيليا. كانت كلماتها بسيطة، مفعَمَة بالأمل، وكنت أستطيع أن أتخيلها تكتبُها وابتسامة تعلو محياها.

اتصلت بي سيدة وكالة التشغيل مرة أخرى يوم الخميس. سألتني:

- هل يمكنك أن تحضر إلى هنا غداً صباحاً من أجل إجراء المقابلة.

- قبل أن أجيبك، أودّ أن أعرف شيئاً ما - قلتُ - هل تأخذون ترشيحي بشكلٍ جدّي، فعلاً؟

- كيف بشكلٍ جدّي، فعلاً؟

- أعني هل هناك إمكانية حقيقية كي أشغَل هذا المنصب؟ أم أنني مجرّد مرشح مثل أيّ مرشح آخر لا حظوظ له تستدعونني فقط لملء اللائحة والرفع من قيمة المرشحين الحقيقيين؟

ألمودوفار، كنتُ أعرف ما أسألها عنه، لأنني قرأتُ كلّ ما ينبغي قراءته عن عملية الانتقاء ومقابلات التشغيل.

أجابتني:

- طبعاً، الأمر جدّي.

- أعطني دليلاً على ذلك.

- إنني لا أفهم.

- أعطني ضمانة على أنني لستُ مجرد ممثّل صامت أملأ ردح مسرحية يلعب أدوارها الرئيسة ممثلون حقيقيون.

ظلّت صامتة لبضع ثوان، فظننتُ أنها ستضع سماعة الهاتف، لكنها قالت:

- لديكَ تجربة كبيرة في تنظيم الأسفار السياحية، تفوق بكثير معدّل تجربة المرشحين الآخرين. وهذا شرط أساسي لمزاولة ما يتطلّبه العمل في المنصب المذكور. هل هذا أمر يطمئنك؟

قلت لها نعم، وشكَرتها على الجواب عن سؤالي ثم حدَّدنا موعد المقابلة في اليوم الموالي في الساعة العاشرة صباحاً. زودتني بعنوان الوكالة ثم أنهينا المكالمة.

يوم الجمعة، قبل أن أتوجّه إلى المقابلة، توصلتُ برسالة إلكترونية من شافيير. يقول فيها:

وجدتُ سيارة وسائقاً. ونفقات الرحلة على حسابي. يمكننا أن ننطلق بعد ثلاثة أيام.

لم أردّ عليه. كان الطفلان سيأتيان يوم الأحد مساء. لم أكُن أعرف ما أفعل بهما بعد. وفوق هذا كله، لم أكُن أعرف كيف أشرح لهما أنّ بيتي الجديد هو الوكالة القديمة التي كنتُ أشتغل فيها. كان الوضع معقداً، والذهاب إلى سويسرا هكذا لم يكُن أمراً وارداً.

وصلتُ إلى وكالة التشغيل قبل الموعد بنصف ساعة. كان هناك أربعة أشخاص ينتظرون في قاعة من دون نوافذ بها كراسي مسندة إلى الجدران وطاولة عُلوها نصف متر في الوسط فوقها عدة مجلات. كان المكان بارداً، كما لو أنهم لا يريدوننا أن نشعر بالراحة. كان الأشخاص الذين ينتظرون ثلاث نساء ورجل، كلهم يرتدون ملابس أنيقة كأنهم مقبلون على توقيع صفقة بملايين اليوروات، وأصابعهم تتحرك فوق شاشات هواتفهم الذكية. عندما دخلتُ، ألقوا عليّ التحية، لكنهم لم ينظروا إليّ بعد ذلك مرة أخرى. ثم سرعان ما نادوا على امرأة، فتمنى لها الرجل حظاً سعيداً، لكنها لم تُجِبْه. وفور ذلك، غفوتُ، يا ألمودوفار. كان نوماً جميلاً، وطويلاً، أو

هكذا بدا لي، على الأقل. لا أذكر أنني رأيتُ حلماً. كان شيئاً يشبه الإغماء، فشعرتُ كأنني فقدتُ كلّ حواسي فجأة.

حين استيقظتُ، لم يكُن هناك من أحد في القاعة. كانت هناك فتاة تناديني. نهضتُ وتبعتُها حتى بلغنا قاعة اجتماعات صغيرة بها طاولة تشغل كلّ الفضاء تقريباً. كان ثمة ثلاثة أشخاص يجلسون في جانب من تلك الطاولة: امرأة ورجُلان. وقفت المرأة، جذابة وهادئة، لتستقبلني. تعلو وجهها دائماً ابتسامة رائعة، جميلة، صريحة وحية. كانت هي المرأة التي تحدثتُ معها عدة مرات في الهاتف، فبدا لي من المستحيل أن تتعايش تلك الابتسامة مع النبرة الرسمية التي استعملتها معي في أثناء أحاديثنا. جلستُ على الكرسي الذي أشارت إليه، قبالة ثلاثتهم.

استغرقَت المقابلة حوالي عشرين دقيقة. كان أحد الرجلين، -أصغرهما، شديد السمرة، ويضع جلّاً على شعره- هو مَن أدار الحديث ولم يتدخّل الآخر سوى في مناسبتين ليطرح عليّ أسئلة لا علاقة لها بمجال عملي: سألني عن طفليّ، ما أقوم به في أوقات الفراغ، عن رأيي في أوضاع البلاد. لم تقُل المرأة أيّ شيء خلال المقابلة بكاملها. سألوني عن تجربتي المهنية وعن كلّ المهام التي كنتُ أقوم بها في وكالة الأسفار طوال أكثر من خمسة عشر عاماً، وعن فصلي عن العمل، وعن طموحاتي، ثم طلبوا مني أن أُقيّم مساري المهني وأن أعدّد أحسن خصالي وأقبح عيوب شخصيتي. ثم طلبوا مني أن أختار ثلاثة من أهم المشاريع التي انخرطتُ فيها قبل أن يسألوني عن انتظاراتي بخصوص عملية الانتقاء. تباً لهم يا ألمودوفار! لقد أجبتُ عن الأسئلة نفسها خلال مقابلات عمل أخرى. والأجوبة التي قدّمتها كانت هي الأجوبة نفسها التي

حضّرتُها قبل سنة، حين بدأتُ أبحث عن عمل، وقد اشتغلتُ عليها كلمةً كلمة، كما لو كانت شِعْراً تقريباً. كانت تلك أحسن أجوبة لديّ، ولا أعرف طريقة أنجع من ذلك لبيع خدماتي وتسويق مؤهلاتي. كانوا لطفاء معي، رغم أنّ أكثر مَن يجرون المقابلات ليسوا كذلك. وفي النهاية، عرضوا أهم الشروط التي ينبغي أن تتوفر في الشخص الذي سيتمّ انتقاؤه ليشغل المنصب: تجربة في خلق وتطوير المشاريع السياحية، قدرة على ممارسة دور القيادة، واستعداد للتنقل والسفر. لكنهم لم يقدّموا أدنى شيء عن نوع الشركة ولا عن طبيعة التعويضات، كما أنهم لم يحدّدوا بدقّة المهام المنوطة بالمنصب. بعد ذلك، نهض ثلاثتهم فجأة، في تزامن شبه خيالي، وأخبروني أنه بعد أسبوع سيقدّمون لي الجواب النهائي. كانوا يبدون متحمّسين.

كان بودّي أن أقول إنه لن يكون ممكناً، وإنه في الأسبوع الموالي لن أكون في المدينة، وإنني آسف، لكن حياتي سوف تستمر في مكان آخر. لم أقْدر، كنتُ أريد أن أعرف إن كان أولئك الأشخاص يضعون ثقتهم فيّ. كنتُ بحاجة إلى أن أتأكد أنني لم أكُن مخطئاً، وأن قراري بالبقاء في لشبونة لوحدي لأكثر من سنة لم يكن قراراً عبثياً.

بعد ذلك، زوال تلك الجمعة، وقبل أن أتوجّه إلى الصيدلية، ذهبتُ إلى وكالة عملي القديمة لأغير ملابسي، وأخلع عني ذلك الهندام الذي أرتديه من أجل مقابلات العمل، وأرتدي أيّ قطعة لباس مريحة. منذ بداية الشهر، لم أعُد أعير اهتماماً كبيراً للقواعد التي وضعتها بنفسي منذ البداية بألّا أدخل إلى هناك قبل حلول

الليل. لم أفكّر في الأمر، بل جاء هكذا تدريجياً، وأصبحت تلك الوكالة القديمة هي بيتي، وليس من الخطأ أن يدخل المرء إلى بيته متى يحلو له ذلك.

ما إن خرجتُ من المصعد حتى رأيتُ باب الوكالة مفتوحاً بضع سنتيميترات. ثم سرعان ما سمعتُ أصداء أصوات متداخلة قادمة من سقف الشقة. كان حديثاً مثيراً مع قهقهات جماعية. كان هناك أشخاص في بيتي، يا ألمودوفار. فكرتُ في كلّ ما كنتُ أضعه هناك. الحقيبة والصندوق اللذان أضعهما في دولاب كبير وفيهما أكبر قدر من أغراضي الخاصة، مخبّأين وسط علب أخرى. لكن كانت هناك أشياء خارج الدولاب. حاولت أن أذكر إن كنت قد رتّبتُ كلّ شيء في ذلك الصباح كما دأبت على ذلك منذ البداية، لأن النظام لم يعُد صارماً مع مرور الأيام، فكنت أحياناً، إمّا بدافع الكسل أو الإهمال، أغادر الوكالة دون ترتيب أيّ شيء. أترك الوسادات التي أتّخذ منها سريراً فوق أرضية تحت المكتب، أضع الملابس فوق كرسي وفرشاة الأسنان داخل كأس في الحمام. فكرتُ إن كنت قد نسيت شيئاً قد يراه كلّ مَن يدخل إلى المكتب الذي كنتُ أنام فيه منذ أكثر من شهرين. فكرتُ فيما قد يحدث لو أنّ شخصاً ما وجد جوْرَباً أو علبة تونَة لم تفتح بعد أو قلّامة أظافر.

مَن هم أولئك الأشخاص الذين فتحوا باب الوكالة، يا دانييل؟

لستُ أدري. ربما كانوا ملاكها القدامى، ربما ملاكها الجدد. ربما كانوا أشخاصاً مثلي، من دون مأوى، بحاجة إلى مكان ينامون

فيه. لست أدري. لم أقترب حتى أسمع ما كانوا يقولون. لم أنتظر لأرى وجوههم. بقيتُ واقفاً أمام الباب الموارب مدة خمس دقائق تقريباً. بعد ذلك، ولجتُ المصعد وانصرفتُ.

وتركْتَ أغراضك الشخصية هناك؟

كلا. ذهبتُ إلى الصيدلية وقمتُ بعملي. كان آخر يوم عمل لي؛ لكنه بدا لي مثل باقي الأيام. ودّعني العجوز ساكادورا كما لو أنه سيراني في اليوم الموالي. عند منتصف الليل، وأنا أغادر، بقيت لوقت طويل في الشارع، قرب بناية الوكالة القديمة، أنظر إلى نوافذ الطابق الرابع في انتظار أن يظهر أيّ أحد، أو أرى أيّ حركة، أي ضوء. لم يحدث أي شيء. حوالي الواحدة والنصف فجراً، دخلتُ إلى البناية وصعدت عبر السلالم حتى وصلت إلى الطابق الرابع. وضعتُ أذني على باب الوكالة. كان الصمت مطلقاً. أدخلتُ المفتاح في القفل وفتحت الباب. ثم مددتُ ذراعي في الظلام، وبحثتُ عن زرّ الضوء. عندما غمرَ الضوء الرواق، بقيت أنتظر لبضع ثوان، متسعداً للفرار إن خرجَ أحدهم فجأة من أحد المكاتب. لم يظهر أحد، فدخلتُ.

لم أمكث هناك بالداخل أكثر من عشر دقائق. ذهبتُ أبحث عن الحقيبة والصندوق. جمعتُ الملابس وزوجاً من الأحذية، وحقيبة النظافة، ودفتر **الخطة**، والملاءة، والوسادة. احتفظت بالملابس في الحقيبة ووضعت الباقي في حقيبة رياضية وجدتها قبل أسابيع في دولاب في المكتب قرب المكان الذي كنتُ أنام فيه. أدخلتُ كل ذلك في المصعد، ووضعت الصندوق أمام بابه ليمنعه من أن ينغلق.

عدتُ إلى الوكالة. دخلتُ إلى المكاتب، وقاعة الاجتماعات، والمطبخ، والحمام، لأتأكد من أنني لم أنسَ أيّ شيء. عندما انتهيتُ من ذلك، خرجتُ، أغلقت الباب بإحكام تام ونزلت رفقة أغراضي الخاصة في المصعد. في الشارع، وضعتُ الحقيبة والحقيبة الرياضية فوق الصندوق ثم مشيت قليلاً حتى بلغت المكان الذي تركتُ فيه السيارة. في الطريق، مررتُ قرب صندوق قمامة. وضعتُ كلّ شيء على الأرض مدة ثانية واحدة، فتحت باب صندوق القمامة وألقيت بمفاتيح الوكالة داخله.

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية صباحاً، والجو دافئ في ذلك اليوم من شهر يونيو. هكذا، قُدتُ السيارة حتى بلغتُ النهر وركنتُها في أقرب مكان من الماء، فدخل نسيم دافئ عبر النافذة ذات الزجاج المكسَّر. ليلتَها نمتُ من جديد داخل سيارتي.

في اليوم الموالي، يوم السبت، استيقظتُ باكراً وذهبتُ إلى السجن الذي تقضي فيه عقوبتَكَ. طلبتُ مقابلتَكَ. كان شيئاً قد قمت به مرات عديدة، خصوصاً خلال الشهور الأولى بعد دخولك إلى السجن. أحلُّ من دون سابق إنذار وقت الزيارة، ثم أطلب منهم أن ينادوا عليك وأظلّ أنتظر لبضع دقائق فيأتون ليخبروني أنك لا تريد أن تراني فأنصرف. قمتُ بذلك عدة مرات، ولم يكن ذلك من باب العناد. أدركتُ منذ البداية أنك لا تريد أن تستقبلني، لكن تلك كانت هي الطريقة الوحيدة لأجعلك تعرف أنني ما زلت هنا، في هذه الجهة من العالَم، ولم أتخلّ عنك. . . إنك ابن عاهرة، يا ألمودوفار! على أيّ حال، في ذلك السبت لست أدري لماذا بدأت أؤمن بأنني سأراك وأتحدّث معك. يومئذٍ، أكثر من أي يوم آخر منذ أن سُجنتَ، كان

الحديث معك سيريحني. وكالعادة، جاؤوا يخبرونني أنك لا تريد أن تراني.

فَكِّر في الأمر، يا ألمودوفار. فَكِّر أنني كنتُ معلقاً بيت حياة ماضية وحياة جديدة. لم يكن هناك من شيء يشدّني إلى لشبونة، ومع ذلك بقيت هناك أنتظر مكالمة هاتفية من شركة ما قد تكون مهتمة بأن تعرض عليّ عملاً، ولو أنني لم أكُن واثقاً إن كنتُ مستعداً لأقبل العرض. كانت مسألة بضعة أيام. وقد انتظرتُ كثيراً. يمكن أن أنتظر قليلاً. مشكلتي الوحيدة هي أنّ الطفلَيْن كانا سيصلان في الصباح الموالي.

عندما غادرتُ السجن، قصدتُ بيت شافيير.

فتح لي الباب، نظر إليّ لمدة ثلاث ثوان ثم ابتسم. كان عاري الصدر والوشم يغطي جلده، ويرتدي سروال جينز قصير. قال:

- إذاً، أنت موافق؟

ألمودوفار، هو كان يظنّ أنني جئتُ لأذهب معه إلى سويسرا كي نساعد تلك المرأة.

- جئتُ أطلب منك خدمة، يا شافيير - قلتُ له.

- ماذا؟

- هل أستطيع أن أبقى مع الطفلَيْن هنا ببيتك لبضعة أيام؟

- ما الذي حلّ ببيتك؟

- حجز عليه البنكُ.

- اللعنة! هل تتحدث بجدّ؟

- نعم. لن أمكث طويلاً، فقط في انتظار أن أرحل إلى فيانا دو كاشتيلو.

- وسترحل أيضاً؟

- لا شيء هنا يسير كما ينبغي بالنسبة لي، يا شافيير. مارتا والطفلان هناك. ليس هناك من سبب لأستمر في البقاء هنا. هل يمكن أن نمكث معك لبعضة أيام؟

لم يُجِبني. فقط أشار لي أن أتبعه عبر رواق نحو غرفة ليس فيها من شيء سوى أريكة بيضاء مليئة بالبقع ومكتبة عالية بها رفوف فارغة من الكتب.

- هل يناسبك هذا المكان؟

- إنه مناسب. طبعاً.

- انتظر هنا - قال وخرج.

جلستُ على الأريكة، وسرعان ما شعرت براحة غير معتادة. ولم يكُن ذلك بسبب الأريكة، بل لأنني كنتُ هناك مع شافيير. قلتُ في نفسي: **لماذا لم أجئ لأستقر معه من قبل؟**

جاء شافيير يسحب سريراً بفراش واسع، واضطر لرفعه عمودياً كي يمرّ عبر الباب. ثم تركه ليسقط على الأرض قرب الأريكة.

- يمكن لماتيوس وفلور أن يناما هنا - قال - أين هما الآن؟

- سيصلان غداً.

جلس شافيير إلى جانبي على الأريكة. بقينا صامتَيْن لبضع دقائق. أسندتُ رأسي إلى الخلف وأغمضتُ عينيّ. ذلك الصمتُ، يا ألمودوفار، ذلك الصمتُ العميق بيني وبين شافيير كان قوياً جداً، كأنه بَلْسم، كأنه ذاكرة ستبقى إلى الأبد، حتى بعد الموت، وكان يقيناً على أنّ ما كُنّاهُ قبل وقت طويل كان شيئاً حقيقياً، وأننا ما زلنا كما كُنّا ولم نتغيّر قيد أنملة رغم كلّ شيء. فجأة، قال شافيير:

- يجب أن نذهب إلى سويسرا. يجب أن نساعد تلك المرأة.

- لماذا، يا شافيير؟ - سألتُه هامساً من دون أن أفتح عينيّ.

- لأنها ليست مسؤولة عن عدم كفاءتنا، يا دانييل. بسبب موقعنا صارت تؤمن بإمكانية رؤية شقيقها مرة أخرى قبل أن يموت، دون أن تعرف، في الحقيقة، أن هذه الإمكانية لا وجود لها. إنّ موقعنا ليس مجدياً لسببٍ ما أجهله. كان علينا أن نغلقه منذ وقت طويل. لكننا لم نقُم بذلك، وقد وقع هذا الأمر. يجب أن نذهب إلى سويسرا، يا دانييل. من الممكن أن أذهب لوحدي، لكني لا أستطيع. عليك أن تأتي معي.

ألمودوفار، إنه كان على حق، وكان ذلك هو ما ينبغي القيام به. لذلك قلتُ له:

- حسناً. سوف نذهب.

وما إنْ قلتُ له ذلك حتى بدا لي كلّ شيء ممكناً، وفجأة صار للحياة كثير من المعنى. كنت أستطيع أن أحدس موجة السعادة التي كانت تتوجه نحوي بسرعة مجنونة. حدسٌ يكاد يكون خارقاً. وكنتُ موقناً بأنّ تلك الرحلة ستكون سلوى تُنقذني من كل شيء، وأن أي شيء لن يكون كما في السابق.

خطَّطْنا لكلّ شيء هناك ونحن جالسَيْن على الأريكة، أنا أغمض عينيّ، وشافيير يلفّ سيجارة. كنا نحلّ كلّ صغيرة وكبيرة تبرز أمامنا كما لو أنّ كلّ شيء في متناول الكلمات التي نقولها بصوت مرتفع.

مثلاً، كنتُ أقول: نحتاج إلى المال من أجل الوقود، وواجبات الطريق السيار، والمبيت، والأكل. فيُجيبني شافيير: لديّ مال ورثته عن جدّي بعد وفاته. أحتفظ به في البنك منذ أكثر من عشر سنوات ولم أستعمله لأنه لا حاجة لي به. ليس مالاً كثيراً، لكن أظن أنه

يكفي لتغطية هذه المصاريف. ثم أسأله: والسيارة؟ إننا بحاجة إلى سيارة. فيقول شافيير: هل تذكر ذاك الشخص الذي كتب إلينا في الموقع يعرض استعمال شاحنته الصغيرة ذات التسعة مقاعد؟ تحدثتُ معه. إنه مستعدّ ليأتي معنا شريطة أن يقود الشاحنة الصغيرة بنفسه.

هكذا، يا ألمودوفار، كأن العالم لم يكُن مكاناً معقداً، في نهاية المطاف.

بعد ذلك، اقترح شافيير أن ننطلق في اليوم الموالي. لم يكن ذلك ممكناً لأنّ ماتيوس وفلور كانا سيصلان في اليوم نفسه. فقال شافيير:

- يوم الاثنين، إذاً.

بقيتُ صامتاً لبضع دقائق. كان ماتيوس وفلور سيصلان إلى لشبونة، وأنا لا أستطيع أن أذهب. لكني سرعان ما قلتُ في نفسي: **هذا ليس مشكلاً. يأتيان معنا. ثم إنه أمر جيد لهما أن يشهدا ما سنقوم به. تلك المرأة بحاجة إلى مساعدتنا، أخوها على فراش الموت، ونحن سنقطع ألفين وخمسمئة كيلومتر لنساعدها. عليهما أن يأتيا معنا.**

بعد ذلك، كمَن يجمع قطع لعبة محيّرة، فكرتُ: وفاسكو، لماذا لا يأتي معنا؟ لدينا مقاعد في الشاحنة الصغيرة وهو أيضاً ينبغي أن يُعاين ما سنقوم به.

مكتبة
t.me/t_pdf

.6
كرواتيا، إستونيا
كوريا الجنوبية، أوزباكستان.

لم نستطِعْ أن ننطلق في رحلتنا يوم الاثنين لأنّ ابنك كان بحاجة إلى رخصة مغادرة التراب التي لم تتمكن كلارا من توقيعها إلّا يوم الاثنين مساء. لم يكُن من الصعب إقناعها. في الحقيقة، أظنّ أنها شعرت بارتياح كبير لأننا سنأخذ ابنها لبضعة أيام. هو كان مقبِلاً على العطلة، وهي لا تعرف ما تفعل به، وتخشى أن يرتكب حماقة أخرى. في البداية، كان شافيير يعارض فكرة ذهاب فاسكو معنا. كان قد تبادل بعض الرسائل الإلكترونية مع السيدة دوروتيا ماركش فأخبرته أنّ شقيقها ما زال يصارع الموت وأنه من الضروري أن نذهب في أقرب وقت ممكن. فكان شافيير يعتقد أنّ فاسكو قد يؤخرنا ومجيئه معنا ليس ضرورياً. تركتهُ يتكلم ثم قلتُ له إننا لن نذهب من دون ابنك. هكذا، بكلّ بساطة.

هكذا انطلقنا يوم الثلاثاء، قُبيْل الساعة السادسة صباحاً، أنا، وشافيير، وماتيوس، وفلور، وفاسكو. ويقود الشاحنة الصغيرة ذات التسعة مقاعد صاحبُها، ويدعى أليبيو. ألمودوفار، صحيح أنني كنتُ لا أزال غاضباً منك، لكني لم أستطِعْ أن أمتنع عن التفكير في أنه

كان عليك أن تكون معنا هناك داخل تلك الشاحنة الصغيرة، ونحن متوجّهون لأداء تلك المهمة الرائعة. لأنّ الموقع بدأ في ذهنك أنت، ومنه انطلقت فكرة أن يساعد الأشخاصُ بعضهم بعضاً. ومشاركتك كانت ستُعطي لتلك الرحلة كلّ معانيها. وعلاوة على هذا، ربما كنتَ تستطيع أن تحدس ما وقع فيما بعد، لأنني لم أكن قادراً على ذلك.

ألمودوفار، لقد حضّرْتُ لذلك السفر كما كنتُ أُحضّر رحلات الزبناء في أثناء عملي في وكالة الأسفار. قدّرتُ المسافة التي سنقطعها، وما تستوجبُه الشاحنة الصغيرة من وقود بحسب اختلاف ثمن البنزين من بلد إلى آخر، كما رسمتُ المسار الذي سنسلكه لنتفادى الأداء في بعض الطرق. بعثتُ، كذلك، رسائل إلكترونية لحجز غرف في الفنادق لمدة ثلاث ليالٍ سنقضيها في الطريق، ووضعتُ لائحة بأهمّ النقط المهمة التي يمكننا زيارتها في أثناء توقّفاتنا. كنتُ متيقّظاً، كما ترى. لا أدري كيف أشرح لك هذا، يا ألمودوفار، ولكن، فجأة، أصبح ذهني خالياً من كلّ شيء، كما لو أنّ مساعدة دوروتيا ماركش لتذهب وتزور شقيقها في المستشفى كانت الشيء الوحيد الذي لم أقُم به بعد في هذه الحياة. كأنّ تلك الرحلة كانت امتحاناً حقيقياً يزوّدني بالتجارب الضرورية لتجاوز كلّ ما يبرز من مشاكل.

لا أستطيعُ أن أقول إنْ كان الآخرون داخل الشاحنة الصغيرة يشعرون بالإحساس نفسه. ربما كان شافيير يشعر بذلك؛ لكنه كان خائفاً ولا يمكنني أن أعرف ما كان يدور في خلده خلال الساعات الأولى من الرحلة. ليلة انطلاق الرحلة، شرحتُ للطفلَيْن ما كنا عازمون على القيام به. سألتني فلور لماذا كان علينا نحن أن نذهب

إلى سويسرا، ولماذا لا يقوم بذلك شخص آخر يسكن قريباً من السيدة دوروتيا ماركش. قلتُ لها إنني لا أعرف، لكن، ما دام لم يتطوّع أحد للقيام بذلك فعلينا نحن أن نذهب لمساعدتها. سكتَتْ لكن لم يبدُ أنّ جوابي قد أقنعها. أما ماتيوس، فلم يطرح أسئلة حول السيدة دوروتيا ماركش وشقيقها؛ كان يريد أن يعرف أشياء عن سويسرا وفرنسا والمسافة الفاصلة بين كلّ محطة من محطات السفر. كان ثمة حسٌّ عملي مخيف في أسئلته، وبدا لي أنه ورث ذلك عني.

لم يقل فاسكو أي شيء. بعد العشاء، جاء بهدوء ليراني في المطبخ وأعاد لي ما كان يدينُ لي به من مال. كنت أرغب في أن أسأله كيف باع جهاز ألعاب الفيديو وإن كان قد عادَ إلى شقة السيدة الألمانية ليلتقي بأنيبال والآخرين. لكني في الوقت نفسه كنتُ أريده أن يعلم أنّ ثقتي به لم تتغيّر. قلتُ له إنه ينبغي أن يكون فخوراً بما يقوم به. فاكتفى بابتسامة محتشمة قبل أن يسألني:

- هل تحدّثتم مع والدي بخصوص هذه السيدة التي تسكن في سويسرا؟

أجبته أنه حتى لو حاولنا أن نُخبر والده فإنه كان سيرفض استقبالنا.

- مع الأسف، لكن لا بد أنه كان يودّ أن يعلم بذلك - قال فاسكو.

من الممكن، يا ألمودوفار، أنه في ذهني كان فاسكو يشغل مكانك في تلك الرحلة. لست أدري.

على أيّ حال، كنتُ أعتقد أنه حين سيعرفون دوروتيا ماركش، حين تصعد إلى الشاحنة الصغيرة وتحكي قصّتها، حين يرونها تصل إلى المستشفى، ربما يدركون أهمية تلك الرحلة.

ثم كان هناك أليبيو. رجلٌ قصير وبدين، يتجاوز الستين من عمره، سيجارٌ مطفأ دائماً لا يفارق شفتيه، واستعدادٌ مدهش للحديث عن أيّ شيء. ما إن انطلقنا حتى بدأ يتحدّث عن رحلات أخرى قام بها على متن الشاحنة الصغيرة رفقة زوجته بعد زواجهما، قبل ثلاثة عقود تقريباً فزارا معاً إيطاليا، وتشيكوسلوفاكيا، وألمانيا، والسويد، وبلجيكا، وإيرلندا، يوم كانت أوروبا شيئاً مختلفاً عمّا نعرفه اليوم. كنت أجلس في المقعد الأمامي إلى جانبه، ورغم أنه كان يتحدث مع الجميع، فمن الممكن أنني كنت الوحيد الذي ينصت إليه باهتمام.

حكى أنه اشتغل محاسباً في معمل للأحذية في ضواحي ماتوزينيوش لمدة أربعين عاماً تقريباً. بعد ذلك، اشترت مجموعةٌ ألمانية الشركة، ثم نقلت الإنتاج إلى بولندا، وأغلق المعملُ البرتغالي أبوابه. فوجد أكثر من مئة شخص أنفسهم في العطالة، ومن بينهم أليبيو. وبحسب ما قال لنا لم يكن ذلك نهاية العالم بالنسبة إليه؛ إذ إنه كان على بُعد سنوات قليلة من التقاعد، فوجد أنّ تلك الراحة السابقة لأوانها جاءت في الوقت المناسب. ثم إنه لم يبقَ عاطلاً تماماً، لأنّ زوجته، التي كانت تشتغل مساعدة في مطبخ بإعدادية في مدينة بورتو، اقترحت عليه أن يستعمل الشاحنة الصغيرة القديمة ذات التسعة مقاعد ليبدأ مشروعاً في مجال النقل المدرسي. كانت سيارة من نوع تويوتا تعود إلى سنة 1984، قطعت مسافة ثلاثين ألف كيلومتر لكنها تبدو حديثة الصنع. اشتراها أليبيو من صديق كان يمرّ بضائقة مالية عند بداية التسعينيات، وقام بذلك من أجل مساعدته أكثر من حاجته السيارة. ولم يستعمل أليبيو السيارة كثيراً، بل فقط في مناسبات خاصة عند نهاية الأسبوع عندما يكون الجو ملائماً أو

في أثناء العطل. ثم إنه أحاطها بعناية خاصة، فكان يفحصها سنوياً، يغطيها خلال المدة الطويلة التي يتركها رابضة في الشارع، ويغسلها بانتظام.

وقد لقي مشروع النقل المدرسي نجاحاً خلال السنوات الثلاث الأولى؛ فكانت الشاحنة الصغيرة تعجّ بالأطفال معظم الوقت. وكان يحبّ ذلك؛ يشتغل لمدة ساعة ونصف الساعة صباحاً وساعة أخرى عند المساء، يستمع إلى أحاديث الأطفال، وضحكاتهم، فيرتاح لذلك. بعد ذلك، أخذت الأحوال تسوء بالنسبة إلى الجميع، فبدأ الآباء يستغنون عن خدمات أليبيو، وبعد نصف سنة أخرى لم يتبق له سوى طفلَين أو ثلاثة أطفال كان يأخذهم كلّ يوم من البيت إلى المدرسة ومن المدرسة إلى البيت، لكن ذلك لم يكُن كافياً لتغطية مصاريف الوقود وصيانة الشاحنة الصغيرة... على أيّ حال، قصة أليبيو تشبه قصصاً أخرى كثيرة، لكن لا داعي للاستمرار في حكيها. كان يعيش هو وزوجته على القليل، أجرها هي وما كان يتقاضاه هو من تقاعد هزيل. ولكلّ قطعة يورو قيمتها.

عندما سألته كيف اهتدى إلى موقعنا، قال إنه لا يذكُر ذلك، لكن الأمر كان من تلك الصدف العجيبة التي تحدث في الإنترنت. بعد ذلك سألتُه لماذا جاء معنا، مستعداً لقَطع خمسة آلاف كيلومتر لمساعدة شخص لم يرَه قط، فقال:

- ينبغي للمرء أن يشغل نفسه بأي شيء.

شكرتُه على استعداده، وشرحت له أننا كنّا نراهن على أشخاص مثله عندما قرّرنا إنشاء الموقع، ولم نكُن نعرف وقتئذٍ أنّ أشخاصاً مثله كانوا قلة نادرة ثم جعلته يفهم أنه شخص رائع. فقال:

- أنا مَن ينبغي له أن يشكركم.

ما إن صعدنا إلى الشاحنة الصغيرة حتى تناول شافيير قرصَين -لم أرَ لأي دواء كانا- جعلاه ينام في الحين ولم يستيقظ ثانية إلّا بعد سبع أو ثمان ساعات، ونحن نغادر مدينة بلد الوليد في إسبانيا. ربما كانت نيته أن ينام طوال وقت الرحلة. أتصوّر أنه ربما فكر مرات عديدة أن يتراجع عن الذهاب معنا ويبقى في لشبونة، لكنه لم يقُل شيئاً. كان اللّعينُ مفزوعاً، وأنا أفهم ذلك. لكن كانت هناك أشياء أخرى ينبغي أن تشغَل بالي، أمّا مشاكل شافيير فيمكنها أن تنتظر، وليتناوَلْ كلّ ما في العلبة من أقراص إن شاء ذلك. ثم إنّ فكرة هذا السفر كانت من اقتراحه. اللعنة! ينبغي للمرء أن يكون في مستوى أفكاره.

كان ماتيوس وفلور يجلسان في المقعد الخلفي للسيارة. من حين إلى آخر، كنتُ ألتفت نحوهما لأراهما وأحاول أن أتكهّن بما يجول في خلديهما من أفكار. كنت أريد أن أعرف أيّ نوع من الشكوك تراودهما بخصوص ما كنّا نقوم به، وأيّ نوع من التساؤلات تؤرقهما. كانت فلور تضع السماعتين في أذنيها، وقدماها فوق المقعد فيما كتاب مفتوح فوق ركبتيها. كلما نظرتُ إليها، كانت تُخرج لسانها في وجهي، دون أن ترفع عينيها عن الصفحة التي تقرؤها.

كان ماتيوس يضع مرفقه على حافة النافذة، ذقنه مسند إلى ذراعه، وعيناه تنظران إلى أبعد نقطة في الأفق، كما لو أنّ ذهنه خالٍ من أي فكرة. ظلَّ في تلك الوضعية لوقت طويل. كنت أعرف ما كان يقوم به. ليلة أمس، أخبرني أنّ البوذي الحقيقي هو من يستطيع أن يقصي من جسده أيّ شكل من أشكال الرغبة، لأنّ الرغبة، وفق هذا المذهب، هي ما تجعلنا تعساء. فقلتُ له إنّ الرغبة، من جهة أخرى، هي ما تجعَل منا كائنات بشرية، فأجابني:

- أنا لا أريد أن أكون كائناً بشرياً. أنا أريد أن أكون سعيداً.

أدركتُ أنّ حرباً كانت تدور رحاها في ذهن ابني: إنه يصارع الرغبة، وخصوصاً الرغبة في ممارسة لعبة تدبير مشروع الدواجن الافتراضية. إلى غاية تلك اللحظة، كان قد خسر عدّة معارك، وخلال تلك الرحلة سوف يخسر مزيداً من المعارك. كنا على مشارف الحدود الإسبانية حين طلب مني الحاسوب. مددتُه إليه ففتحه فوق حجره. كان الاستياء بادياً على عينيه. استياء يكادُ يكون غضباً.

- ليس هناك إنترنت في هذا الحاسوب.

كان فاسكو يجلس في المقعد الأوسط، قرب شافيير، يقرأ مجلة موسيقية؛ ضحك من دون أن يرفع عينيه عن المجلة.

شرحتُ لماتيوس أنّ ذلك الحاسوب لا يتّصل بالإنترنت إلّا عبر ربط خطي أو ربط غير خطي لا يتوفر في تلك الشاحنة الصغيرة.

- لم تُخبرني بهذا الأمر - صاح، كما لو أنني خدعتُه عن قصد.

- لم يبدُ لي ذلك أمراً مهماً.

- هل يتوفّر أحدكم على هاتف مرتبط بالإنترنت؟

لا أحد كان يملك هاتفاً مرتبطاً بالإنترنت. بدأ ماتيوس يبكي. كان بكاء مكظوماً، صامتاً، ومع ذلك ملأ حزنُه أجواءَ الشاحنة الصغيرة. بقينا صامتين ننتظر. لمدة ثانية واحدة، رفع أليبيو عينيه عن الطريق ونظرَ إليّ. حينئذٍ قال فاسكو:

- إن أردتَ أن تلعب الفيديو، لديّ جهاز الألعاب في الحقيبة.

وأخرج من حقيبة الظهر جهاز ألعاب فيديو مدّه إلى ماتيوس من فوق المقعد الخلفي. توقف ماتيوس عن البكاء، في ردّ فعل آلي.

- ظننتُ أنك قد بعتَ جهاز ألعاب الفيديو - قلتُ لفاسكو.

- كلا. لم أبِعْه.

- لماذا؟

- لم أكن مضطراً لبيعه.

- ومن أين حصلتَ على المال؟

- لا أهمية لذلك.

- أنت سيئ، يا فاسكو.

- كفى، يا أبي - صاحت فلور.

ثم استدرتُ مرة أخرى نحو الطريق. لقد خدعني ابنك اللعين، يا ألمودوفار.

على أيّ حال، هدأ ماتيوس. لم أرَ اللعبة التي كانوا يلعبونها على الجهاز خلال الساعات الثلاث الموالية، وهم يمرّرون الجهاز بينهم من مقعد إلى آخر. لكن، من الكلمات القليلة التي تبادلوها، استنتجتُ أنّ الأمر كان يتعلق بجنود أميركيين وصينيين في أثناء حرب عالمية ثالثة افتراضية، كان يسيل فيها الدم كلما تعرّض أحدهم لطعنة أو إصابة رصاصة بندقية أو رشّاشة، ويُسمحُ بإصابة مدنيين إن ظهروا في خط النار. هكذا ظلوا منغمسين في ذلك العالم الافتراضي لمسافة مئتين أو ثلاثمئة كيلومتر، ولُبِّيت رغبة ماتيوس مؤقتاً.

وعندما وصلنا إلى إسبانيا، توقفنا عند محطة وقود. كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة صباحاً والجو حار لا يُطاق، كأنّ الأرض من حولنا بدأت تحترق فجأة. استمرّ شافيير في نومه. لم يرد ماتيوس أن يخرج من السيارة لأنه وجد في طريقه كتيبة من المرتزقة الأفغانيين وهو منهمك في تلك الحرب الافتراضية. وبينما

كان أليبيو منهمكاً في ملء الخزان بالوقود، خرجتُ من السيارة وأمرتُ فاسكو أن يخرج أيضاً. مشينا حتى بلغنا باب المقهى.

- من أين حصلت على المال؟

- دعكَ من هذا الأمر. إنه لا يهم.

- طبعاً يهمني. لقد كنتُ معك في تلك الشقة وأعرف ما يجري هناك. هل كنت تبيع المخدرات؟

- دانييل...

- هل كنتَ تبيع المخدرات؟

- إنك لا تفهم... كان أولئك المراهقون يراقبونني، ففضّلت أن أطاوعهم...

- إنني أفهم، يا فاسكو. أنت ترى أنه من الأسهل أن تخادع على أن تلعب كلّ ما يتوفر بين يديك من أوراق. تباً لك!

- كانت تلك آخر مرة. ذهبتُ لأهدّئهم. لن يتكرّر ذلك ثانية.

- إنك تكذب على نفسك.

- كلا. صدّقني.

- آسف، لكني لا أصدِّقك.

ألمودوفار، لقد قلتُ له ذلك وشعرتُ بأسى عميق. كما لو أنني أتخلّى عن ابنك. لكني كنت صريحاً معه، لأنه يستحيل ألّا يعود لارتكاب الحماقات نفسها مرة أخرى.

دخلتُ إلى المقهى. هبّ الهواء المنبعث من المكيّف واخترقني مثل ألمٍ جميل. جاءت فلور ووقفت إلى جانبي. اشترينا قنينات ماء وساندويشات بلحم العجل والجبن للجميع ثم طلبت قهوة لي. جلسنا إلى طاولة قرب النافذة. كان ضوء النهار ينزلق على الزجاج، شبه ملموس. نظرتُ إلى ابنتي، بحركاتها المحسوبة، ووجهها

الصادق. سألتُها إن كانت بخير، فسحبت السماعة من أذنها اليسرى وقالت:

- طبعاً.

- إننا نقوم بعمل جيد - قلتُ لها.

- أعرف ذلك.

- هذه المرأة في سويسرا تحتاج إلى مساعدة ونحن سنذهب لمساعدتها. إنه عمل جيد.

- أعرف ذلك.

- لذلك أنشأنا الموقع - تابعتُ - لكن لم يتطوّع أحد لمساعدتها.

- أعرف ذلك - قالت مرة أخرى وأشاحت عني بوجهها نحو النافذة، وعيناها تنكمشان بسبب الضوء الشديد.

ظلت كذلك لدقيقة تقريباً، ثم قالت:

- وماذا ستفعلون لو طلب شخص آخر مساعدة على الموقع؟

- نعم، وماذا؟

- هل ستذهبون لتقديم المساعدة لهذا الشخص؟

- لست أدري. لا يمكننا أن نساعد كلّ الناس.

- لكن، لو استطعْتَ هل تساعد كلّ الناس؟

نظرتُ إليها، يا ألمودوفار. كانت لحظة من تلك اللحظات التي يتعيّن فيها على الأب أن يقرّر ويختار إن كان سيقول لابنته كيف هو العالم حقاً أو كيف ينبغي له أن يكون.

- لا أظنّ ذلك - أجبتُها - أظنُّ أنني سآخذ بعض الأيام من العطلة لأرتاح، لأن مساعدة الآخرين يمكن أن تكون أمراً مُرْهِقاً جداً.

قلت ذلك وضحكتُ، فضحكت بدورها. ربما فهمَت ما أقصدُ، لكني لست متأكداً من ذلك.

عُدنا إلى الشاحنة الصغيرة. كان أليبيو جالساً وراء المقود من جديد. قفز فاسكو نحو المقعد الأخير وجلس مكان فلور قرب ماتيوس. هكذا، جلست فلور إلى جانب شافيير. سألتُ أليبيو إن كان يريد أن أعوّضه خلف المقود، فأجابني:

- لا. يستحيل. أنا الوحيد مَن يقود هذه الشاحنة الصغيرة.

ثم أدار المفتاح ليُشغّل المحرك. ألمودوفار، إنّ كل الناس، حتى أكثرهم اتزاناً وذكاء، في ذهنهم، من بين ملايير الأفكار والذكريات، فكرةٌ واحدة مجنونة، على الأقل. وعلى ما يبدو كانت فكرة أليبيو المتهوّرة هي الإصرار على عدم ترك مقود شاحنته للغير.

- سوف نقطع خمسة آلاف كيلومتر في خمسة أيام -قلتُ له- في لحظة ما من الرحلة يجب أن تتركني لأقود الشاحنة الصغيرة وأريحك شيئاً ما.

- تعجبني السياقة.

- إنّ الأمر لا يتعلق بذلك، يا أليبيو.

- لا تشغل بالك. أنا أتحمّل ذلك.

- إنها عشر أو اثنتا عشرة ساعة من السياقة كلّ يوم. لا أحد يتحمّل ذلك. ومعنا أطفال.

- لقد كنتم تعرفون أنّ هذا هو شَرطي كي أسافر معكم - قال.

ثم صمت ليبتسم قبل أن يضيف:

- شرحتُ كل شيء لصديقك في الهاتف.

- أعرف. لقد حدّثني في الأمر. ولكني ما كنت أظنّ أنها

قاعدة يستحيلُ انتهاكُها. في رحلة طويلة كهذه، يستحيلُ أن تكون هناك قاعدة من هذا النوع.

- لكن، في هذه الرحلة هناك قاعدة.
- وماذا لو شعرتَ بالحاجة إلى النوم؟
- لن أشعر بالحاجة إلى النوم.
- كل الناس يشعرون بالحاجة إلى النوم.
- لو شعرتُ بالحاجة إلى النوم سنتوقف.

رغبتُ عن الاستمرار في الحديث معه، يا ألمودوفار. ظَلّ مصرّاً على رأيه، لكنه كان يقدّم لنا مساعدة كبيرة. ومن دونه ما كنّا لنقوم بتلك الرحلة. لذلك، تركتُ الموضوع معلّقاً بشكلٍ مؤقت.

انتقل كيسُ الساندويشات من يدٍ إلى أخرى، فأخذَ كلّ واحد ساندويشاً، وفي الأخير وضعناهُ فوق حجر شافيير. قال أليبيو إنه كان أحسن ساندويش أكله منذ عشرين عاماً. كان مستعداً للحديث عن لحم العجل الإسباني وأنواعه، لكنه انتبه إلى أنه لا أحد كان يرغب في الاستماع إليه. أكلنا في صمت، وحين انتهينا من الأكل بقينا صامتين. وقطعنا ثلاثمئة كيلومتر تقريباً على تلك الحال، في صمت مُطبق ومريح. كانت معظم الطرق السيارة من دون أداء وأليبيو يقود الشاحنة الصغيرة بسرعة لا ينزل مؤشّرها عن مئة وعشرين كيلومتر في الساعة. في لحظة معينة، انتبهتُ إلى أنّ شافيير قد استيقظ وراح يفتح الكيس ليُخرج منه ساندويشه. التفتُّ نحوه فنظر إليّ كما لو أنه يغرق ولا أحد يستطيع القيام بأيّ شيء لإنقاذه. ومع ذلك، بدا لي متحكّماً في خوفه. انتهى من الأكل وتناول قرصَيْن آخرَيْن. وبعد خمسة عشر كيلومتراً أخرى، كان يغطّ في النوم من جديد.

فجأة، قال ماتيوس:

- ماذا حدث؟ لماذا انطفأت الشاشة؟

- انتهت البطارية - قال له فاسكو - انتظر.

سحب حقيبة الظهر التي كانت بين رجلَيْه ووضعها على حجره. فتحها وفتش ما كان بداخلها لمدة دقيقتين. بعد ذلك، سمعته يقول:

- اللعنة!

- ماذا هناك؟ - سأله ماتيوس.

- انتظر.

ثم فتش من جديد أغراضه قبل أن تعلو وجهه تكشيرة ويطلق زفير تذمر.

التفتُّ إلى الخلف، وقلت:

- ماذا يجري هناك؟

- اللعنة!

- كفّ عن هذا يا فاسكو. أخبِرْني بما يقع.

- ماذا هناك؟ - سأله ماتيوس، مرة أخرى.

- إنني لا أجد هنا البطارية الاحتياطية. كما لا أجد جهاز الشحن.

- ماذا؟ - صاح ماتيوس.

- هل تذكر أنك وضعت هذه الأشياء في حقيبة الظهر؟ - سألتُه.

- لست أدري. أظنّ ذلك. لست متأكداً. كان كلّ شيء داخل حقيبة صغيرة حمراء. والحقيبة ليست هنا.

بدأ ماتيوس يبكي. التفتَت فلور بدورها نحو الخلف وشدّت على يد شقيقها.

- هل فتّشتَ جيداً؟ - سألَتْ فاسكو.

- طبعاً فتشتُ جيداً - أجابها وكشّر في وجهها وهو يدمدم قليلاً.

- يمكنني أن أعيركما كتاباً - قالت فلور - لقد جلبتُ معي ثلاثة كتب.

- لا تكوني غبية - قال فاسكو. ثم عاد ليقوم بالتكشيرة نفسها.

- كفى يا فاسكو - قلتُ له.

فجأة، أصبح صوت العجلات فوق الزفت قوياً يصمّ الآذان. استمرّ ذلك حوالي مئة كيلومتر. من حين إلى آخر، كنتُ ألتفت نحو الخلف، من فوق كتفي. كان ماتيوس لا يزال عابساً، وفلور تشدّ على يده. كان فاسكو يسند رأسه إلى المقعد، ويشدّ جبهته بكلتا يديه، كما لو أنه يحاول أن يتجاوز خط الزمن. فقلتُ في نفسي، ربما لن نستطيع أن نصل في الوقت المناسب إلى مستشفى مارسيليا، ربما يموت شقيق دوروتيا ماركش قبل أن تتمكن من رؤيته لآخر مرة.

كانت الساعة قد تجاوزت السابعة مساء حين دخلنا إلى فرنسا والنهار بدأ يتلاشى من خلفنا. نظرتُ إلى أليبيو. كان حجماً بوجه تملأه الظلال، يداه تقبضان على المقود كما لو أنه آلة موسيقية. سألتُه إن كان يشعر بالتعب.

- فقط لأنني لا أسمعكم تتحدثون - أجابني - يا له من صمت! أتمنى أن يكون يوم غد أكثر نشاطاً.

منذ ثلاث عشرة ساعة ونحن مسافرون، وكلّ ما رأيناه كان هو داخلُ الشاحنة الصغيرة، والحمامات في أربع محطات وقود توقفنا عندها. لم نتحدّث مع أحد، ولم نرَ غير الطريق والحقول،

والجبال، وبعض القرى، لكن هذا يمكن أن يكون مكاناً في أيّ نقطة من العالم.

شعرتُ بيدٍ تلمس كتفي. كان شافيير الذي استيقظ من جديد، ويبدو منهكاً، كما لو أنه لم ينَم منذ أسابيع.

- علينا أن نتوقف، يا دانييل. لقد تعبتُ.

قلتُ له إنني قد حجزت ثلاث غرف في فندق بمدينة بايون، جنوب فرنسا، على بُعد ثلاثين أو أربعين كيلومتراً فقط.

زمّ شفتَيْه وتنفّس من أنفه بقوة.

- هذا الأمر ليس بالسهل، بالنسبة لي - قال متنهداً.

- هدئ من روعك، يا شافيير.

- هذا الأمر لا ينفعني في شيء.

- إذاً، افتح الباب وألقِ بنفسك.

- أبي، لا تقُل هذا - صاحت فلور.

نظرتُ إليها. كان رأسُها منحنياً جداً، تعضّ شفتها السفلى بأسنانها، ولا تبدو غاضبة، بل بالكاد حزينة أو خائبة. بعد ذلك، نظرتُ إلى داخل الشاحنة الصغيرة؛ كان فاسكو قد نام، وماتيوس يجثو على ركبته فوق المقعد، ينظر إلى الخلف، يرقب الطريق من الكرسي الخلفي.

وفجأة، أشارت فلور إلى ذراع شافيير الذي تتخلّله عشرات الوشوم المتداخلة التي تغطي جلده بالكامل، بدءاً من أصابعه ووصولاً إلى ذراعه حيث تختفي تحت كُمّ القميص. وبسبّابتها لمست دائرة في مكان مُحمرّ قرب المرفق. ثم قالت:

- ما هذا؟

رفع شافيير مرفقه لحظة وظلّ يتملّى وشْمهُ، كما لو أنه لم ينظُر إليه منذ زمان، كما لو أنه لا يذكره. بعد ذلك أجابها:

- إنه كوكب.

- أي كوكب؟ - سألته فلور.

- لا أعرف اسمه.

- ماذا يعني ذلك؟

- ذاك أنا - قال - أنا بعد ملايير السنين.

هل تُصدّق الأمر، يا ألمودوفار؟ أعرفُ، شافيير فنان. لكن، مع ذلك، تصور للحظة لو أننا جميعاً حشونا عقولنا بمثل تلك الخزعبلات التي كان يشغل بها شافيير فكره، لكان العالم قد انفجر منذ مدة.

وخلال العشرين دقيقة الموالية، تحدّثت فلور وشافيير عن الوشوم التي تغطي ذراعه، فشرح لها المعاني الخفيّة لكلّ وشم. مثلاً، عنكبوتٌ صغير أسود داخل قارورة مرسوم في الجهة السفلى قرب المعصم يمثل الصورة التي تُكوّنها البشرية عن نفسها؛ وشجرةٌ من دون أوراق تحترق تمثّل أوّل فكرة خطرت على أول إنسان فوق الأرض؛ وعينٌ بها رقم 3 مكان القزحية تمثل الرغبة في شكلها البدائي؛ وحروف أبجدية تلفّ الساعد مرتين تمثّل أُسّ هشاشة الإنسان.

في أثناء ذلك، استيقظ فاسكو. كان هو وماتيوس ينحنيان على المقعد ويستمعان بدورهما لشروحات شافيير. وفي لحظة ما، أشار ماتيوس إلى العين التي يتوسُّطها رسم يمثل رقم ثلاثة. ثم قال.

- أحاول ألّا أشعر بأيّ نوع من الرغبة.

نظر إليه شافيير لبضع ثوان، ثم رفع ذراعه فضرب ماتيوس على

يده المبسوطة. كان تفاهُماً تاماً بين الاثنين حسدتُهما عليه من كلّ أعماقي.

ثم تابع شافيير عرضه. وبينما هو يتحدث، كانت فلور تطلق، من حين لآخر، صيحات إعجاب متناغمة، تكاد تكون مبالغة.

- وهذا، ما هذا؟ - سألَتْهُ.

التفتُّ فرأيتُها تشير إلى دائرة صغيرة في الجلد وسط الوشوم، فيما يشبه جزيرة. لم أنتبه قط إلى وجود حيّز أبيض على ذراع شافيير.

- هذا هو المستقبل - قال.

- لا يوجد أيّ شيء في المستقبل - قالت فلور.

- تماماً - قال شافيير - لا يوجد أيّ شيء.

- كفى يا شافيير! - صحتُ - كُفّ عن هذا الكلام، فالأطفال غير مجبَرين على الاستماع لهذيانك.

شبك شافيير ذراعَيْه أمام صدره وأشاح بوجهه نحو النافذة إلى جانبه.

- دعه يتكلم، يا أبي - قال ماتيوس.

وكان ذلك أول شيء قاله لي بعد ستّ ساعات من الصمت تقريباً.

- ها قد وصلنا - قال أليبيو.

ثم دخلنا محطة وقوف للسيارت، يغطي الأسمنتُ كلّ جنباتها، بها شجيرات غرست في أصص حجرية، وأربع أو خمس سيارات ربضت متباعدة بعضها عن بعض. في الخلف، في بناية من ثلاث طوابق تقشّرت صباغتها، كان يوجد الفندق. ركن أليبيو الشاحنة

الصغيرة قرب المدخل فترجّلنا. كانت الأرض تبدو وكأنها تتحرك، كما لو أننا كنا فوق طوف في عرض البحر. فتحتُ صندوق السيارة فسحَبَ كلّ واحد حقيبته.

في بهو الفندق، سلّمونا مفاتيح الغرف. غرفةٌ لي، غرفة لفلور وماتيوس، غرفة لشافيير وفاسكو، وغرفة لأليبيو. ثم ولجنا المصعد نحو الطابق الثالث. قال فاسكو:

- عندما نعود إلى البرتغال، سأضع وشْماً.

- وأنا أيضاً - قالت فلور.

- وأنا بدوري سأضع وشماً - قال أليبيو رغم أنه كان واضحاً أنه لم يكُن يتحدّث بجدّ.

فقلتُ في نفسي: **ربما تكون هذه الرحلة خطأً.**

بعد ذلك، ركبنا أنا وأليبيو الشاحنة الصغيرة، وقطعنا خمس كيلومترات حتى وصلنا إلى مدينة بايون حيث بحثنا عن محل بيتزا، فاشترينا ثلاث علب من البيتزا من الحجم الكبير ثم عُدنا إلى الفندق. في غرفتي، كان فاسكو وماتيوس منبطحَيْن على أحد السريرين، والحاسوب أمامهما. تحاشى فاسكو نظراتي.

- أبي - قال ماتيوس ببطء - هنا يتوفّرون على الإنترنت اللاسلكي.

ومع ذلك، بدا لي أنه يرزح تحت وطأة القلق.

كانت فلور فوق سرير آخر، تشبك رجلَيْها وتسند ظهرها إلى جبل من الوسادات، والهاتف في أذنها. بالكاد كانت تتكلم، فقط تضحك كما لو أنهم في الجهة الأخرى من الخط يحكون لها نكتاً مسلية. كانت تلك أوّل مرة أسمعها تضحك منذ أن غادرنا لشبونة.

حسدتُ الشخص الذي كانت تتحدث معه. عندما رأتني، توقّفَتْ شيئاً فشيئاً عن الضحك ثم قالت لي:

- إنها ماما. تريد أن تتحدث معك.

أخذتُ الهاتف فتلاشى حسدي. جاء صوت مارتا عالياً وواضحاً جداً.

- هل أنتم بخير؟ - سألتْني.

- نحن بخير. أظنّ أننا كذلك. فقط نشعر بالتعب. وأنت؟

- أمضيتُ اليوم بكامله أفكّر فيكم، وأنتم هناك بعيداً.

- عفواً.

- لا. لقد فكرت في هذه الرحلة التي حدَّثتني عنها وفي تلك السيدة في سويسرا.

- آه!

- آسفة لأنني لستُ معكم. ما تقومون به من أجل مساعدة تلك السيدة شيء رائع. أنا فخورة بكم.

ألمودوفار، لقد أشعَرَني ذلك بأنني قد أصبحتُ كاملاً من جديد، وأضْفَت كلمات مارتا معنى على كلّ ما نقوم به. وفجأة، رغبتُ في أن أحلّ مشكلة السيدة دوروتيا ماركش في أسرع وقت ثم أعود إلى بيتي، إلى منزلي الجديد في فيانا دو كاشتيلو، رفقة مارتا والطفْلَين.

فتحنا علب البيتزا فوق سريري، وأكلنا جالسين على الأرض. لم يظهر شافيير. ثم حكى لنا أليبيو قصة أوّل رحلة له في الطائرة، في سفر إلى لواندا بدا له أنها لا تنتهي، وهو جالس إلى جانب فتاة مقتنعة بأنها لو حدّقت جيداً في السماء من نافذة الطائرة قد ترى

ملاكاً يمرّ أمام عينيها. فتمرّغ ماتيوس فوق الأرض من الضحك، وصار مرة أخرى ابني كما أعرفُه.

حوالي الساعة العاشرة، انسحب أليبيو وفاسكو إلى غرفتَيهما. أمّا نحن فارتدينا المنامات وأطفأنا الأضواء. لبضع دقائق، أطلَقنا أنا وفلور صوتاً مرعباً كي نُخيف ماتيوس. كان يصيح ويطلب منا أن نكفّ عن ذلك، لأنه لا يجد الأمر مسلّياً، وفي الوقت ذاته كان يضحك ويقلّد صوت أفعى مجلجلة. بعد ذلك، ومن دون اتفاق مسبق، بقينا صامتين في الوقت نفسه، صمتٌ أطفأ العالَم بكامله. نام ماتيوس وفلور. بقيت مستيقظاً، هادئاً، سعيداً بهما وهما ينامان إلى جانبي ويغطّان في سبات عميق.

يوم الأربعاء صباحاً، غادرنا الفندق قبل الساعة السابعة. قلت لأليبيو:

- هل تتركني أقود السيارة؟

أطلق قهقهة عالية، ثم حرّك يده باتجاهي كأنه ينهرني وجلس وراء المقود.

لم أضِفْ أيّ شيء آخر. كنتُ أشعر بالراحة. نمتُ أكثر من أربع ساعات، وبدا لي ذلك كافياً وقتئذٍ. كان الأطفال في مزاجٍ جيد، وإن لم يتمكّنوا بعد من تشغيل جهاز ألعاب الفيديو. كانَ ماتيوس يبدو مستسلماً للأمر، لكنه قال لي:

- هكذا، على الأقل، ليست هناك أية غواية.

فكرتُ إنْ كان فعلاً قادراً على فهم كلّ أبعاد كلمة «غواية». كان يُظهرُ تفاؤلاً مصطنعاً، لكن ذلك لم يبدُ لي أنه هو الطريق الصحيح.

كلماتُ مارتا ليلة أمس تسرّبت إلى دمي وجرت في عروقي. وما كانت تمارسه من سلطة على جسدي كان يشبه السحر. دخلنا من جديد إلى الطريق السيار فقلتُ في نفسي: **يمكن أن نقوم بمثل هذه المبادرات طوال حياتنا، نسافر عبر طُرق العالم ونساعد الناس.** كانت فكرة مستحيلة، ومع ذلك بدت لي رائعة لَحظتها.

مرّت الساعة الأولى من الرحلة في هدوء. أكلنا قطع بسكويت وشربنا حليباً بالشوكولاتة جلبناه معنا ممّا كان على مائدة الفطور في الفندق. تحدّث أليبيو، وفاسكو وماتيوس عن كرة القدم، وعن البطولتين الإسبانية والفرنسية. ثم طلب مني فاسكو أن أسلمه خارطة طرق أوروبا وبسَطَها أمامه. نظرا إليها ملياً هو وماتيوس ثم اقترحا أن نذهب إلى الملعب ونتابع، ونحن في طريق عودتنا، مباراة لكرة القدم في برشلونة أو مدريد. فوافق أليبيو بحركةٍ من رأسه، ثم همس قائلاً:

- فكرة جيدة - كما لو أنه يفكّر بصوت عالٍ.

تناول شافيير طعامه في صمت. كانت آثار طيّات أغطية السرير لا تزال بادية على وجهه وشعره متناثر. عندما سألته إن كانت لديه أخبار عن شقيق السيدة دوروتيا ماركش، أجابني:

- لم يمُت بعد.

- وهل سيموت؟ - سأله ماتيوس.

- ربما.

- إننا لا نعرف ذلك - قلتُ.

- إن كانت تريد أن تراه في أقرب وقت فلأنه سيموت.

- إنها تريد أن تراه لأنه في المستشفى. إذا كُنتَ تحب شخصاً وهو في المستشفى فإنك تريد أن تزوره.

وبعد بضع كيلومترات، قال أليبيو:

- أن يكون شقيقُها على فراش الموت ليس أمراً مهماً.

- ليس أمراً مهماً؟ - سأله ماتيوس.

- ليس مهماً بالنسبة لنا. هي طلبت منّا أن نساعدها ونحن ذاهبون لمساعدتها. وهذا هو المهم.

- هذا ليس صحيحاً - قالت فلور - لن نكون في طريقنا إليها داخل هذه الشاحنة الصغيرة، إن كان شقيقها في المستشفى فقط بسبب كسر في رجله.

- أو بسبب البواسير - قاطعها فاسكو.

- ما هي البواسير؟ - سأل ماتيوس.

- كُريّات في الإسْت - أجابه فاسكو.

فضحك ماتيوس.

- لو كان الأمر كذلك - قال أليبيو - ما كانت لتطلق نداء مساعدة لتزوره.

- ولو أطلقت هذا النداء، هل كنّا سنقوم برحلة كبيرة كهذه فقط لأننا نستطيع أن نقوم بها؟

- لست أدري. ربما نقوم بذلك - أجبتُه - إنْ طلبَ أحدهم مساعدة بهذا الشكل فلأنه بحاجة إليها.

في تلك اللحظة، أخرج شافيير من جيب معطفه علبة الأقراص.

- لا تفعل هذا - قالت له فلور.

- إنني أريد ذلك.

- ابقَ مستيقظاً.

- لا.

- يمكن أن نتحدّث.

- ليس ذلك كافياً لتقنعيني.

- وماذا لو قرأتُ عليك بضع صفحات من كتابي؟

- أيّ كتاب؟

ثم انحنت فلور وأخرجت من حقيبة الظهر كتاباً وأرَتْه لشافيير.

- إنها حكايات. لو قرأتُ عليك حكاية، فهل تبقى مستيقظاً؟

استدرتُ خلفي فرأيتُ الكتاب بين يدي شافيير، عيناه تحملقان في الغلاف، ومعركة حامية الوطيس بداخله، فلم يُدر الكتاب ليقرأ ما جاء في كلمة الغلاف، ولم يتصفّحه.

- حسناً - قال مستسلماً.

فتحت فلور الكتاب، وقلّبت الصفحات حتى وجدت الحكاية التي تريدها ثم بدأت تقرأ. كانت حكاية شاب له صديق يمكن نفخُه بالهواء. فملأ صوتُ ابنتي أجواء الشاحنة الصغيرة، في تناغمٍ تام بين كلّ كلمة من كلمات النص. بقينا نصغي إليها، ولم يتحرّكْ أيّ واحدٍ منّا. فقلتُ في نفسي: **لو شاءت، لصنعت أشياء رائعة بصوتها**. بعد ذلك، تعرض الطفل في الحكاية لمطاردة من لدن زملائه الذين رموه بالحجارة والعصيّ، ثم نمتُ.

استيقظتُ على رنين هاتفي. لم تعُد فلور تقرأ الحكاية. في الحقيقة، لم يعُد الكتاب بين يديها. كان الجميع صامتين. نظر شافيير إليّ وبدا كأنه يريد أن يبتسم، لكنه لم يفعل.

- أجِبْ على الهاتف - قال لي.

أجبتُ. كان صوت رجل قدّم نفسه وقال لي اسماً لا يعني لي أيّ شيء. تحدّث بسرعة عن مقابلة توظيف فتأخّرت بعض الوقت في فهم أنّ الأمر لا يتعلق بشيء جديد. كان واحداً من الرجلَيْن اللذين

أجْريا معي مقابلة التشغيل في الأسبوع الماضي. ثم أخبرني أنهم ما زالوا مهتمين بي، وما يمكن أن أقدّمه للشركة. سألتُه عن اسم الشركة فأجابني:

- في المقابلة القادمة، سنزودك بكلّ هذه المعلومات.

- وهل هناك مزيد من المقابلات؟

- نحن في المراحل الأخيرة من عملية الانتقاء. وقد اخترناك لتجتاز المرحلة الأخيرة.

- وهل المرحلة الأخيرة عبارة عن مقابلة أخرى؟

- تماماً.

- ومتى سيكون موعد المقابلة القادمة؟ - سألتُه.

- غداً. من الأفضل صباحاً. لكن يمكن أن تكون بعد الزوال.

عاهرةٌ هي الحياة، يا ألمودوفار.

- غداً، لا أستطيع - قلتُ - لقد حدث طارئ واضطررتُ لمغادرة البلد.

- في هذه الحالة، يمكن أن تكون المقابلة يوم الجمعة. لكننا لا يمكن أن نؤجّلها أكثر من هذا.

- لن أعود إلّا يوم الأحد.

ضحك وقال:

- أنت تعرف، لا أحد يشتغل يوم الأحد.

- يوم الاثنين، إذاً - قلتُ.

- هذا مستحيل. علينا أن نُنهي عملية الانتقاء هذا الأسبوع. هذا أمر مؤسف.

- ...

- هذا أمر مؤسف - قال مرة أخرى.

ألمودوفار، لقد أخبرني أنّ هناك ثلاثة أشخاص يجتازون المرحلة الأخيرة من مراحل الانتقاء وأنني كنت من بينهم، وأنهم ما زالوا متردّدين وأن حظوظي كانت حقيقية. كما أن تلك المقابلة ستحسم في الاختيار النهائي.

للحظة من الزمن فكرتُ في إمكانية أن أترك الآخرين في سويسرا مع دوروتيا ماركش، أقترض مالاً من شافيير وآخذ الطائرة إلى لشبونة. لكن هذا لم يرْقَ حتى إلى مستوى الاحتمال: لا يمكن أن أترك الطفلَيْن وابنك مع شافيير وأليبيو. فقلتُ له:

- يوم الاثنين. إن استطعتُم أن تنتظروا، سأكون هناك يوم الاثنين صباحاً.

فاكتفى بالقول:

- حسناً. سجلتُ هذا الأمر.

ثم أنهينا المكالمة.

وعلى الفور، قلتُ في نفسي: **يمكن أن نعود الآن، ونصل إلى لشبونة غداً مساء. ثم أذهب لإجراء المقابلة**. كانت فرصة نادرة، يا ألمودوفار، وأنا كنت أنهار في حافة سحيقة منذ وقتٍ طويل، وفجأة ظهر حبل نجاة يتدلى أمام عينيّ، وما عليّ سوى أن أمدّ يدي وأتمسك به.

ولكن السيدة كانت تعوّل على مساعدتكم.

وأنا أيضاً كنت بحاجة إلى مساعدة.

إذاً كان عليك أن تكتب إلى الموقع وتطلب مساعدة.

تباً لك يا ألمودوفار، ولتذهب إلى الجحيم!

التفتُّ نحوهم. كانوا ينظرون إليّ، وينتظرون أن أتكلم.

- كنّا نتحدث عن مقابلة عمل - قلتُ.

- لا يمكننا أن نرجع إلى الوراء - قال شافيير.

- لماذا؟ - سألهُ ماتيوس.

- لأن السيدة تنتظرنا.

- لكن الأمر يتعلق بمقابلة عمل. وأبي بحاجة إلى عمل - قال ابني.

- تصوّر - قالت فلور وهي تتوجّه إلى شقيقها - أنك بحاجة إلى مساعدة وأن أحدهم يعدكَ بها فتظلّ تنتظر، تصوّر ذلك الأمل الذي يكبر بداخلك كأنه مدٌّ بحري، والمستقبل يرتسم في ذهنك فيصبح يقيناً، ثم تصوّر أنه بعد ذلك لا يظهر أحد، وتمضي الساعات والأيام ولا يأتي أحد، تصوّر هذا الفراغ.

أومأ ماتيوس موافقاً بحركة من رأسه، ولم يقُل شيئاً.

ثم جاءت فلور قبالتي لتلوي ذراعيها بحنان على عنقي.

نظرتُ إلى أليبيو فنظر إليّ لمدة ثانية من الزمن. كان في تعابير وجهه عمق ذكّرني بك، يا ألمودوفار. إنه من ذلك النوع من الأشخاص القادرين على رؤية العالم من كلّ الزوايا في آنٍ واحد وفَهْم كلّ شيء. بالنسبة إلى أليبيو، كان أيّ قرار يمكن أن أتخذه قراراً مناسباً.

ثم استدرتُ من جديد لأنظر أمامي: الأشجار، والمنازل على حافة الطريق، والأشخاص، كلّ شيء كان يبدو صغيراً جداً تحت السماء الهائلة. ومرة أخرى، كنتُ غاضباً. لأنني فكرتُ فيما قالته فلور فشعرتُ بحرارة تسري في جسدي، والنار تلتهم معدتي ورئتيّ

ويمتد لهيبُها إلى كلّ صدري، كما لو أنني سأبصق ناراً. كانت هناك أشياء كثيرة يجب القيام بها، وأماكن عديدة ينبغي زيارتها، وأرواح متعدّدة تنتظر المواساة، لكننا نضيع بعضنا وقت بعض، لأننا لا نعرف كيف نعتني بأنفسنا، لأننا لا نعرف ما المطلوب منّا ولا نعرف كيف نستمر قُدُماً حين نضلّ الطريق، فننتظر أن يظهر أحد ويمدّ لنا يداً أو ذراعاً أو حياة. أنا لا أريد أن أساعد أحداً ولا أريد أن يُساعدني أحد.

دانييل، الناس يساعدون بعضهم بعضاً.

فليذهب الناس إلى الجحيم!

إذاً، هل عُدتم أدراجكم ورجعتم إلى البرتغال؟

كلا، يا ألمودوفار. لقد تابعنا الرحلة.

بعد مئتي كيلومتر، سألنا أليبيو إن كنّا نريد أن نتوقف لبعض الوقت.

- ألم يعُد لدينا ما يكفي من الوقود؟ - سألتُه.
- كلا. ليس لهذا الأمر.
- فلماذا نتوقف، إذاً؟
- أشعرُ بتشنّج في رجلي اليمنى التي أتحكّم بها في دوّاسة البنزين.

كنا في طريق وطنية، بها سيارات قليلة، وعلى جانبَيْها تمتد

حقول من الكروم تعانق الأفق. كان الجو ممتلئاً برائحة شيء يحترق، لكن الدخان لا يُرى في أيّ مكان. خرج أليبيو من الطريق وركن الشاحنة الصغيرة قرب موقف للحافلات. جلست فلور على دكّة موقف الحافلات. قفز فاسكو وماتيوس فوق الحاجز ومشيا عشرين أو ثلاثين متراً وسط الكروم. أمّا أنا فطُفتُ حول الشاحنة الصغيرة بينما فتح شافيير إحدى نوافذها وراح يدخن سيجارة.

- هل أنت بخير؟ - سألتُه.

- لا. وأنت؟

- لا بأس. تلك المقابلة كانت مهمة.

- وما نقوم به أيضاً شيء مهم. لولاك أنتَ ما خرجتُ من البيت.

- لكن أنت، على الأقل، تعرف أنه حالما نعود، ستغلق على نفسك في البيت خلال عشر سنوات أو عشرين سنة القادمة إن شئت.

- لا أحد يعلم ما سيقع بعد عشر سنوات أو عشرين سنة.

- على أيّ حال، هذه المقابلة لن تنتظرني.

- سيمرّ كل شيء على أحسن حال، يا دانييل. سوف ترى.

- أنا لا أؤمن بما تقوله.

- لكنك تؤمن بذلك.

مرّت سيارتان بسرعة كبيرة. اقترب أليبيو، وكان جلياً أنه يجد صعوبة في المشي.

- سوف أقود الشاحنة الصغيرة - قلتُ له.

- لن يلمس المقود أحد غيري.

- إنك لست في حالة تسمح لك بالسياقة.

- أستطيع القيام بذلك.

- أنت بالكاد تضع قدمك فوق الأرض. لا تنسَ أنها ما زالت تنتظرنا مسافة خمسمئة كيلومتر.

- أستطيع القيام بذلك.

- هذه حماقة. سوف تقودنا إلى الهلاك بسبب عنادك الصبياني.

- كنتم تعرفون ذلك منذ البداية...

- أعرف. الشاحنة الصغيرة شاحنتك، ولا أحد ينازعك في ذلك.

- كفى يا دانييل - تدخل شافيير قائلاً.

- لكن، هل سمعتَ ما يقول، يا شافيير؟

- كفى. اذهَبْ وقُمْ بجولة في المكان.

قطعتُ الطريق، قفزتُ فوق سور صغير وتبوّلتُ على جذع كرمة.

التحق بي شافيير بعد دقيقتين، وقال:

- إن هذا الرجل لا يملك تأمين الشاحنة الصغيرة.

- ماذا؟

- أنت تعرف أنه عاطل عن العمل، وما يتوفر عليه من مال لا يكفي لسدّ كل المصاريف، لذلك لم يؤدّ واجبات التأمين منذ سنتين.

- ولم يُخبرنا بذلك إلّا الآن؟

- كلا. لقد قال لي ذلك، لكني لم أخبرك بالأمر.

- ولماذا لم تخبرني؟

- لو أخبرتُك ما كنتَ أتيْتَ.

- تباً لك! ما كنتُ أتيتُ، طبعاً، يا شافيير. لا يمكن أن نقطع خمسة آلاف كيلومتر على متن شاحنة من دون تأمين.

- ولماذا؟

- شافيير لو أوقفتنا الشرطة، انتهى كلّ شيء. ثم إننا وسط أوروبا، وهم لا يمزحون هنا في مثل هذه الأمور. لماذا لم يُبرِم تأميناً قبل أن ننطلق؟

- ألا تفهم؟ إنّ أليبيو عاطل عن العمل منذ أربع سنوات ولم يبلغ سنّ التقاعد بعد. إنه يعيش على لا شيء تقريباً.

- كنت دفعت أنت واجبات التأمين.

- لا تعتقِد أنني أملك مالاً كثيراً...

- وماذا عن إرث جدّك؟

- لقد قلتُ لك إنه لم يترك لي مالاً كثيراً. وبعد مصاريف هذه الرحلة من وقود، وفنادق، وأكل لستة أشخاص، لن يبقى منه شيء.

- تباً لك يا شافيير! كان عليك أن تحدِّثني في الأمر.

- أعرف. لكنك ما كنتَ أتيتَ لو فعلتُ. ومن دونك، أنا لا أستطيع ذلك.

- هذا جنون.

- ربما. لكن نحن هنا وعلينا أن نستمر.

- لكن أليبيو ليس في حالة جيدة. ولا يستطيع الاستمرار في السياقة.

- إنه يستطيع القيام بذلك.

- ينبغي له أن يتركني لأقود الشاحنة الصغيرة.

- لكنه خائف.

- من أيّ شيء؟

- من أن يحدث أيّ شيء للشاحنة، وعليه أن يدفع ثمن إصلاحها لأنه لا يتوفر على تأمين.

- لن يحدث شيء إلّا إذا جلس خلف المقود وقدمه في تلك الحالة.

- يقول إنه يفضّل أن يخاطر على أن يتركك تقود الشاحنة الصغيرة.

- يفضل أن يخاطر؟ اللعنة، يا شافيير. هناك ثلاثة أطفال على متن هذه الشاحنة الصغيرة.

فجأة، تصاعد بوق الشاحنة الصغيرة كأنه صوت باخرة ثم سرعان ما تلاشى فوق الطريق.

- هيا، اصعدوا. سنستأنف الرحلة. - قال أليبيو وهو يجلس وراء المقود.

كان ماتيوس، وفلور وفاسكو قد جلسوا في مقاعدهم.

بقيتُ لحظة أنظر إلى التراب الأحمر بين قدميّ. بعد ذلك، قفزتُ فوق السور الصغير، ثم قطعت الطريق وصعدت إلى الشاحنة الصغيرة.

- أليبيو - قلتُ له - سآخذ المقود عند أول هفوة ترتكبُها.

غمزني بعينه، كما لو أنّ الأمر يتعلق بلعبة من الألعاب، أو مزحة من المزح.

وتركتَهُ يقود الشاحنة الصغيرة رغم ما يعانيه من تشنجات في رجله؟

كان علينا أن نقبل ذلك أو نظل هناك، وسط الخلاء. لم يكن لدينا وقت كي ننتظره ليتعافى. وكنا نريد أن نصل إلى جنيف قبل حلول الليل.

ولكن الأطفال كانوا معك في الشاحنة الصغيرة.

لم أكن أستطيع أن أهدر يوماً من السفر.

أيها الوغد!

ماذا؟

أيها الوغد!

كنت لا تزال تظن أنه من الممكن أن تجري مقابلة العمل يوم الاثنين صباحاً.

ماذا؟

لذلك لم تكُن ترغب في إهدار يوم من السفر. كان لا يزال لديك أمل.

طبعاً، كان لا يزال لديّ أمل، يا ألمودوفار!

تباً لك، يا دانييل! لقد أكّد لك ذلك الرجل أنهم سينتهون من

عملية الانتقاء يوم الجمعة، ومع ذلك كنت تعتقد أنها لا تزال أمامك فرصة أخرى يوم الاثنين، لذلك كنت تريد أن تصل إلى لشبونة يوم الأحد. فتركت أليبيو ليقود الشاحنة رغم ما يعانيه من تشنجات في رِجله.

بحسب طريقة تقديمك للأشياء، يبدو أنني فعلتُ كلّ شيء عن قصد. والحقيقة أن الأمر لم يكُن كذلك.

ربما. لكنك رجل حقير، يا دانييل.

في الحقيقة، صمد أليبيو كثيراً. كان يُشغّل المكيف حتى لا تبرد رجله فتؤلمه، ويدمدم، من حين إلى آخر، كلمات غير مفهومة. لكنني، انتبهت إلى أنه، في لحظة ما، لم يعد قادراً على قيادة الشاحنة الصغيرة بكلّ أمان. صدِّقْني.

دخلنا إلى سويسرا حوالي الساعة الخامسة مساء. في الحدود، أشار إلينا رجال الحرس بالمرور من دون توقف. كنا على مقربة من جنيف. كنت قد كتبتُ بعض المعلومات عن المدينة في ورقة وأنا أستعدّ لإلقائها، حين قال شافيير:

- معدّل مؤشّر السعادة لدى ساكنة سويسرا هو 8 من 10.

نظرتُ إليه، يا ألمودوفار، ففهمتُ أنّ ذلك الوغد كان يسخَر مني.

- ماذا؟ - سألهُ أليبيو.

شرح له شافيير حكاية معدّل مؤشّر السعادة، والاستطلاع المبني على سؤال واحد ووحيد، ولائحة البلدان. صاح ماتيوس وقال إنه

يعرف السؤال وإنه حاول أن يجيب عنه وإنه ما زال منهمكاً في البحث عن رقمه.

- ربما لن تجد الجواب الصحيح أبداً - قال شافيير.

- وتعني أنّ الناس هنا راضون عن الحياة بنسبة 80%؟ - سألهُ أليبيو.

- في المعدّل، نعم - أجابه شافيير. ثم أضاف:

- اسأل دانييل، هو الذي يريد أن يستقرّ هنا.

- غيِّرْ الموضوع، يا شافيير - قلتُ له.

- هل السويسريون بوذيون؟ - سأل ماتيوس.

فضحك فاسكو وفلور.

- لا - قال أليبيو - لكنهم يملكون شيئاً أحسن من ذلك بكثير.

- وما هو؟

- الثروة والمال.

- قد لا أكون أبداً 80% راضية عن الحياة في بلد شديد البرودة كهذا - اعترفت فلور.

فقال فاسكو:

- أظنّ أن السويسريين يقدّمون هذا الجواب لأنهم لا يعرفون واقعاً آخر. وهم مقتنعون أنّ الجنة توجد هنا.

- إنهم يعرفون ما يجري في جهات أخرى من العالم - قلتُ - يسافرون، يقرؤون الكتب ويشاهدون التلفزة.

- إنها مجرد نظرية - قال شافيير.

أصرَّ أليبيو على أن نتوقف في محطة وقود حتى يملأ خزان الشاحنة الصغيرة استعداداً لمرحلة اليوم الموالي. ترجّلْنا جميعاً إلّا

شافيير الذي بقي داخل الشاحنة الصغيرة لكنه مدّني ببطاقة ائتمانه كي أسحب بعض الفرنكات السويسرية من الموزّع الآلي. في المقهى، فتح ماتيوس الحاسوب، وقال لي كأنه يبرّر ذلك:

- دقيقة واحدة فقط.

بعد ذلك، ارتبط بالواي-فاي فلعب لعبته المفضّلة وباعَ ثلاثين ألف رأس من دواجنه الافتراضية. وقال لي إنه لو تأخر نصف ساعة أخرى لخسر كلّ تلك الدواجن، وهو ما يعتبر ضرراً كبيراً. أمّا أليبيو، فراح يمشي من مكان إلى آخر، يبتسم للسويسريين من حولنا، وهو يحاول أن يُعيد الحركة لرجله المتشنجة. طلبت مني فلور نقوداً لتشتري الجريدة.

- ظننتُ أنكِ لم تعودي تقرئين الجرائد - قلتُ لها.

- إنني لا أقرؤها فعلاً، لكنني أريد أن أعرف كم تتردّد بعض الكلمات في الصحف هنا.

- ألأنَّ مؤشّر سعادتهم يبلغ 8 من 10؟

- نعم.

- لكنك لا تفهمين اللغة الفرنسية.

- أنا لا أعرف الفرنسية، لكن فاسكو يفهمها.

كان فاسكو إلى جانبها. نظر إليّ وهزّ كتفيه، كأنه يعتذر لي عن قدرته على قراءة اللغة الفرنسية وفهمها.

أعطيتُها ورقة مالية من قيمة 10 فرنكات. بعد ذلك، نظرتُ من حولي. كان الأشخاص الذي يلجون ذلك المقهى ويغادورنه يبدون أشخاصاً عاديين جداً. لا يبدون راضين عن الحياة بنسبة 80%. حاولتُ أن أتخيل الفروق الممكنة بينهم وبيننا لتفسير اختلافنا في

الردّ عن سؤال الاستطلاع. ربما تكون في حياتنا نحن أشياء قبيحة لا وجود لها في حياتهم، كما أنه يمكن أن تكون في حياتهم أشياء جميلة تغيب عن حياتنا. أليبيو كان على حق: إنهم يملكون الثروة والمال. لكن لا يمكن أن يكون هذا فقط، لأنه لا يمكن اختزال الحياة في الثروة والمال. فهؤلاء الأشخاص يظلّون بشراً رغم كلّ شيء: يخافون، يتألمون، يحبّون ويموتون. وأمّا كونُهم سويسريين فلا يمنعهم من المرض، والموت والحب. تماماً كما نمرض نحن ونحب ونموت. فلماذا قد يكونون أكثر سعادة منا؟

كانت معنا خارطة لمدينة جنيف، طبَعَها شافيير قبل أن نغادر لشبونة، ورسم بلون أحمر مسارنا حتى بيت دوروتيا ماركش. عبَرْنا المدينة في صمت، كلّ واحد ينظر إلى الشارع من نافذته. كان هناك نظام تام في كلّ شيء، كما لو أنّ البنايات، والحدائق، والمآثر، بل وحتى الجبال قد وضعت لتصوير أحد الأفلام، ولم يتم تفكيك الديكور قط. حاولتُ أن أحصي عدد الأشخاص، من طلبة، ورجال أعمال، ومهاجرين ممّن ساعدتهم على الوصول إلى هذه الأرض، بعد أن اقتنوا تذاكر سفر من الوكالة التي كنتُ أشتغل فيها. إنهم يُعدّون بالعشرات، ربما بالمئات.

فجأة، قال أليبيو:

- أظن أنني بدأت أفهم لماذا هم سعداء.

أما أنا، فكنت لا أفهم بعد، يا ألمودوفار. لكني فهمتُ ما يقصده أليبيو.

كانت دوروتيا ماركش تسكن في زقاق ضيق بعيداً عن مركز المدينة، على الضفة الشرقية من البحيرة، قرب الشاطئ. ركنّا

الشاحنة الصغيرة أمام بيتها بالضبط. كان الجو بارداً رغم أننا كنّا في شهر يونيو والشمس لا تزال في كبد السماء. بقينا واقفين لحظة أمام الباب. قالت فلور:

- هل نقرع الجرس؟

نظرتُ إلى شافيير. بطريقة ما، رأيتُ أنه هو مَن كان عليه القيام بذلك. لكنه كان منحنياً على غطاء الشاحنة الصغيرة، مغمض العينين، يدخنُ سيجارة.

دنوتُ من جهاز الاتصال الداخلي وضغطت على زرّ شقة السيدة دوروتيا ماركش.

مرَّت دقيقة.

بعد ذلك، سمعنا صوتاً معدنياً يُجيبنا باللغة الفرنسية:

- أنا دانييل من البرتغال.

أطلقَتْ أنيناً لاإرادياً ثم سرعان ما فُتح باب البناية. دخلنا نحن الستة وولجنا المصعد. في الطابق الثاني، كانت دوروتيا ماركش في انتظارنا، تجلس على كرسي متحرك كهربائي. رأتنا نخرج من المصعد فتراجعت نصف متر إلى الوراء. كان واضحاً أنها لم تكن تنتظر كلّ هؤلاء الأشخاص وتبدو خائفة. مددتُ إليها يدي، فتردَّدَتْ لحظة قبل أن تصافحني. قدمتُ لها الجميع، أنا، وشافيير، ثم أليبيو، وبعد ذلك الأطفال. وحاولتُ أن أشرح لها سبب حضور كل واحد. كانت تُجيبني بلغة برتغالية ذات لكنة فرنسية قوية:

- كلّ هؤلاء من أجلي؟ إنها حماقة.

تخيل، يا ألمودوفار، أنها كانت على حقّ: كان ذلك حماقة.

ظلَّت تنظُر إلينا لبعض الوقت، وفجأة اختفى الخوف من وجهها. طلبت منّا أن نتبعها وندخل إلى بيتها. كانت شقّة فسيحة،

بها أثاث قليل، كُتب متناثرة في كلّ مكان، صور كبيرة لحشرات وضفادع معلقة على كلّ الجدران. وضعنا الحقائب في البهو وقادَتنا نحو المطبخ حيث وضعت الماء في غلاية فوق النار من أجل تحضير الشاي. جلسنا على مقاعدَ عالية، لم تعُد تجلس عليها منذ مدة بكلّ تأكيد. ظهرت ثلاث قطط بيضاء، نحيفة، من دون شعر تقريباً، قفزت في وقت واحد فوق دكة المطبخ ثم نامت ملتفة بعضها ببعض قرب مُحمّصة الخبز. سألها أليبيو عن شقيقها.

- إنه في انتظارنا - قالت. ثم رسمت ابتسامة انتشرت عبر كلّ أسارير وجهها ثم امتدت، شيئاً فشيئاً، إلى كلّ أرجاء جسدها.

كانت امرأة عجوزاً جميلة، بكل تجاعيدها وشعرها الأشيب، برجليها الميتتين وصوتها الهشّ. وبشكلٍ ما، صار كلّ هذا جزءاً من جمالها. كانت ترتدي تنورة حمراء، وسترة بيضاء. تضع على شفتيها أحمر شفاه وردي يبدو أنه وُلدَ معها. كانت حافية القدمين، وقد أسرّت لي بعد ذلك أنه من حسنات استعمال الكرسي المتحرك أن المرء يمكن أن يمشي حافي القدمين.

نزل فاسكو من مقعده ودنا من صورة كبيرة داخل إطار قرب الثلاجة: كانت تمثّل سرعوفة تبلغ قامتها حوالي متراً ونصف. كانت الحشرة تبدو مستعدة لتقفز خارج الإطار وتنقضّ على فاسكو.

- كان زوجي مصوّر حيوانات - قالت دوروتيا ماركش، بل إنه اشتغل مع مجلة **ناشيونال جيوغرافيك**. أهداني هذه الصورة بمناسبة مرور سنتَين على زواجنا.

قالت ذلك كما لو أن الأمر يتعلق بحدث تاريخي علينا جميعاً هناك أن نحتفظ به في ذاكرتنا.

كانت هناك صور أخرى في المطبخ، فمشى فاسكو على مهل

قرب الجدار يتأملها واحدة واحدة. بعد ذلك، خرج إلى الرواق، ثم تبعه ماتيوس وفلور. بعد دقيقة، عاد ماتيوس، ودون أن ينظر إليّ سأل دوروتيا ماركش إن كان بيتها يتوفر على الواي-فاي. فأجابته نعم، وأن كلمة السر توجد مكتوبة على لاصقة وُضعت فوق الهاتف. سألت ماتيوس إن كان يعرف ما معنى كلمة «لاصقة»، فضحك وخرج مرة أخرى.

بعد ذلك، سأل شافيير عن الحمام وخرج بدوره. خلال بضع دقائق، تحدث أليبيو مع دوروتيا ماركش عن ترتيبات اليوم الموالي، عن ساعة الانطلاق، عن الرحلة إلى مارسيليا، وعن المستشفى الذي كان فيه شقيقها. بعد ذلك، اشتكى من آلام رجله وسأل دوروتيا إن كانت تتوفر على حبة موز، وتحدّث عن الفوائد الصحية لهذه الفاكهة الغنية بالبوتاسيوم. شعرتُ بشيء من الحرج من الطريقة التي انتشرنا بها في البيت وأخذنا نطلب منها أشياء كثيرة كما لو أننا نحن مَن كنا بحاجة إلى مساعدة.

سألَتنا دوروتيا ماركش عن صاحب الموقع.

- أنا وشافيير - أجبتُها وأنا أشير إلى الباب الذي خرج منه شافيير للتو.

- يا لها من فكرة عظيمة! - قالت.

لم أرغب في معاكستها، فاكتفيتُ بأن قلتُ:

- لم تكُن فكرتي.

قال أليبيو إنه بحاجة إلى الجلوس في مكان مريح حتى يخفّف من آلام رجله. فاقترحت عليه دوروتيا ماركش أن يجلس على الأريكة في المكتب، فانسحب إلى هناك.

شعرتُ برغبة في أن أخبرها بأنني آسف لأنه يجب عليّ أن أعود على وجه السرعة إلى لشبونة من أجل إجراء مقابلة عمل في اليوم الموالي. وبدل ذلك، أشرتُ إلى رجلَيْها وسألتُها:

- ماذا حدث لك؟

نظرَتْ إليّ لحظة، وقد اعتلى وجهها كدر مباغت. وفجأة، ابتسمت ورفعت ذراعيها، في حركة كونية تدلّ على الاستسلام.

- حدث ذلك قبل ست سنوات عند نهاية تمارين رياضية في المسبح. كنتُ أخرج من الحوض عندما انزلقتُ على الأرض المبللة وسقطت على ظهري. أصيب النخاع الشوكي بجرح بليغ. لم يُحدث ذلك شللاً تاماً، لأنني ما زلت أستطيع أن أحرك أصبعين في قدمي اليمنى وأشعر شيئاً ما بقدمي اليسرى من هذا الجانب.

نظرتُ إلى قدميها الحافيتين. كان ما قالته صحيحاً: ثمة أصبعان يتحركان في قدمها اليمنى، كما لو أنهما يحاولان أن يتخلّصا من اللحم والعظام التي تشدّهما. نظرت دوروتيا ماركش بدورها إلى قدمها ثم نظرت إليّ وبعد ذلك إلى قدمها مرة أخرى، متسلّية ومستفزة، كما لو أنها تريني خدعة سحرية وتنتظر مني أن أتكهّن بالحيلة التي تستعملُها.

- هل كان زوجكِ على قيد الحياة حين حدث هذا الأمر؟

- لا. حمداً لله. لحسن الحظ، كان زوجي قد توفي قبل سنة.

- لحسن الحظ؟

- كان جاك يحبّني كثيراً، ولم يكن لديّ من سبب لأشتكي من هذا الجانب. لكن أشدّ ما كان يكره هو أن يبقى في البيت. كان دائماً خارج البيت، يمشي في الشارع، يتجول، يكتب في المقاهي،

يرسم، ويصوّر. كلّ شهر، كان يقضي ثلاثة أو أربعة أيام في الجبال. ومن حين لآخر، كان يجمع حقيبته ويركب الطائرة ليسافر إلى الجهة الأخرى من العالم. هكذا كان، وهكذا كنتُ أحبُّه. لو كان لا يزال حياً، لجنّ جنونه لهذا الوضع وهو يصارع الرغبة في مغادرة البيت حتى لا يتركني لوحدي فوق كرسي متحرك.

- إذاً، أنت لا تغادرين البيت أبداً؟

- إلّا في حالات الضرورة القصوى - قالت وهي تفتح عينين جاحظتين - هناك مُساعِدَةٌ منزلية تأتي كلّ صباح، تشتري لي ما يلزم من مؤونة من المتاجر الكبرى، تنظف البيت، تكوي الملابس، وأشياء من هذا القبيل. لكني أشتري عبر الإنترنت كلّ ما يلزمني تقريباً. خرجتُ من البيت ثلاث مرات خلال السنوات الخمس الأخيرة. أحبُّ هذه الطريقة في العيش. كنتُ كذلك من قبل. لم تكُن لي صداقات كثيرة، ولم أكُن أحب الخروج والتجوّل. وعندما كان جاك يطلب مني أن أرافقه في جولة كنتُ أفكر في العودة إلى البيت ما إن أغادره. هذا الصمتُ، وهذا الهدوء، بل وحتى هذه العزلة، كانت أشياء تشكل جزءاً من ذاتي. لدي كتبي، وقططي، والإنترنت. هذا يكفيني. تمرّ الأيام وأنا أكاد لا أبالي بها.

لستُ أدري إن كنتَ قد انتبهت للأمر، يا ألمودوفار، ولكنها كانت سعيدة بما تبقى من أيام في حياتها. حتى من دون زوج، ولا رِجْلين، ومن دون أن ترى أحداً. عادةً ما يشتكي المُسنون من أنّ الساعات تصبح طوالاً والوقت لا ينقضي. أمّا هي، فكانت تشعر بعكس هذا الإحساس. لم يكن هناك أدنى تمرد أو قلق في صوتها، وفي طريقة حديثها عن الأشياء، في نظراتها التي تبحث عن شيء ما من الماضي. كنتُ أتصوّرها امرأة مهزومة، لكن ذلك كان خطأ

فادحاً في التقدير. حتى إنه لم يكن من الضروري قياس مؤشّر سعادة تلك المرأة. كانت جالسة هناك أمامي، وسعادتها كانت شيئاً بديهياً وملموساً. فكيف كانت تحصل على ذلك؟ ما هو سرّ سعادتها؟ أعترف لك أنني شعرتُ بحسد قويّ تجاهها. مع أننا كنا هناك لمساعدتها. هناك ملايين الناس عبر العالم يمرون بمصاعب شتى، ونحن قطعنا ألفي كيلومتر تقريباً حتى نصل إلى سويسرا، حيث معدّل رضا المواطن العادي عن حياته يبلغ 80%، لنساعد امرأة كانت، رغم كلّ ما تواجهه من متاعب وإكراهات، أكثر سعادة من أي واحد منا.

لكنها كانت بحاجة إلى مساعدة.

ألمودوفار، كان أيّ واحد منّا أكثر حاجة إلى المساعدة من تلك المرأة. فماذا كنا نصنع هناك؟

هي من طلبت منكم أن تأتوا لمساعدتها.

تصور أنها كانت تمثل المواطن السويسري العادي ومؤشّر سعادتها 8 من 10. تصور أنه لا أحد استجاب لنداء مساعدتها وهي لا تستطيع أن ترى شقيقها في مارسيليا قبل أن يموت. تصور حجم الضرر الذي قد يُحدِثه هذا الأمر في مؤشّر سعادتها. هل تفقد بضعة أعشار من المئة؟ هل تفقد نقطة كاملة؟ نقطتين؟ لا أظن أنّ مؤشّر سعادتها قد ينزل بأكثر من نقطتين بعد كل ما عاشته من أشياء قبل ذلك. ربما ينزل بنقطة ونصف. وهكذا يكون مؤشّرها الجديد هو

6,5. وفي رأيي، يا ألمودوفار، لا أحد منا نحن الستة في تلك الشاحنة الصغيرة كان بوسعه أن يتبجّح بمؤشّر مرتفع كهذا.

إنك لا تعرف.

أنت الذي لا تعرف، يا ألمودوفار. لكني، سأعود إلى هذا الموضوع.

ظننتُ أنك كنتَ تؤمن أنكم تقومون بعمل جيد. لذلك أخذتم معكم الأطفال في الشاحنة الصغيرة.

نعم. أنا كنتُ أؤمن بذلك. لكني، بعد أن وصلتُ إلى هناك، ورأيتُ بيتها، وسمعت قصتها، تغير كلّ شيء.

نهضتُ. قلت لدوروتيا ماركش إننا قد حجزنا غرفاً في فندق غير بعيد عن بيتها، وإننا سنعود في الصباح الموالي، حوالي الساعة السابعة لنأخذها معنا إلى مارسيليا.

- لا تفكروا في الفندق - صاحت - أنتم ضيوفي هذه الليلة. وهذا أقلّ ما يمكن أن أقوم به.

قلتُ لها إنه لا ينبغي لها أن تفعل ذلك، لأننا كنّا كثراً ولا نريد أن نُتعِبَها. فحركت يديها أمام وجهها، كأنها تحاول أن تصدّ كلماتي.

- لقد حُسم الأمر ولا داعي لمزيد من الكلام في الموضوع.

لم ألحّ عليها. كنتُ متعباً. كنّا جميعاً متعبين. لم يكُن أيّ واحد منّا يرغب في الخروج من ذلك المنزل.

خلال ساعتين أو ثلاث ساعات لم يحدث أيّ شيء. كان فاسكو وفلور جالسَيْن أمام التلفاز ينتقلان من قناة موسيقية إلى أخرى دون التوقف لأكثر من عشر دقائق عند القناة نفسها، بينما كان ماتيوس، والحاسوب فوق حجره، يضحك من فيديوهات يظهر فيها صينيون يرتدون ملابس غريبة وهم يحاولون تجاوز حواجز حتى لا يسقطوا في الوحل. قمت أنا وأليبيو بتحديد مسار الرحلة في اليوم الموالي. جاء شافيير وطلب من أليبيو وثائق الشاحنة الصغيرة. نظر لبضع دقائق إلى بطاقة التأمين التي انتهت صلاحيتها منذ سنة، وفي الأخير قال إنه سيذهب ويحاول أن يغيّر تاريخ التأمين، وأنه يكفي وضع رقم 0 بدل رقم 1. فقلتُ له إنه لو تعرّضت الشاحنة الصغيرة لأيّ حادث أو عطب فإنّ ذلك التزوير لن ينفع في شيء. فأجابني إنّ الأمر يستحق العناء، بالرغم من ذلك.

ثم حلّ الليل بسرعة.

تمدّد أليبيو فوق الأريكة ونام. تصفحتُ الجرائد التي اشترتها فلور. كانت بعض الصفحات مليئة بكلمات وضعت فلور خطاً تحتها:

guerre, *conflit*, *paix*, *mort*, *développement*, *crime*, *découverte*, *récession*, *fortuné*, *festivités*, *chômage*, *assaut*, *inflation*, *futur*, *crise*[1]

ثم خربشتْ بعض الأرقام على الهامش.

لما انتهى شافيير من مهمة تزوير بطاقة التأمين، لم يعرض على

---

(1) بالفرنسية في الأصل: «حرب، صراع، سلْم، موت، تنمية، جريمة، اكتشاف، انكماش اقتصادي، ثريّ، احتفالات، بطالة، سطْو، تضخّم، مستقبل، أزمة» (المترجم).

أحد النتيجة النهائية لما قام به. نهض وراح يمشي من دون وجهة محدّدة، فتأمل ثمانية صور تمثّل مجموعة من السّحالي عُلقت على جدار خلف إحدى الأرائك ثم دخل من جديد إلى الحمام. عندما بدأنا نتحدث عن العشاء، فتحت السيدة دوروتيا ماركش جاروراً وأخرجت منه دزينة من المنشورات التي توزّعها المطاعم المتخصّصة في توصيل وجبات الأكل إلى المنازل وطلبت منا أن نختار دون أن نشغل أنفسنا بالثمن لأنها هي مَن سيؤدي.

- ليس هذا ضرورياً - قال أليبيو الذي كان مستيقظاً - سوف نتدبّر أمرنا.

- إنني أفعل هذا كلّ ليلة - قالت. ثم أضافت:

- أنتم ضيوفي.

لم يكن من السهل التوصّل إلى اختيار يُرضي الجميع. فماتيوس كان يريد البيتْزا مرة أخرى، وفلور وفاسكو كانا يفضلان تناول أكلة صينية بينما أليبيو كان يريد أن يأكل أي طبق تقليدي من المطبخ السويسري. هكذا طلبنا العشاء، في النهاية، من ثلاثة مطاعم مختلفة. في أثناء الأكل، حدَّثتنا دوروتيا ماركش عن سويسرا، فيما يشبه درساً في التاريخ. عندما انتهت من كلامها، سألها ماتيوس هل صحيح أنّ السويسريين راضون عن حياتهم بنسبة 80%. فأجابته أنه ليس لديها أدنى فكرة عن الموضوع ولم تسمَع عن شيء كهذا.

- لكن، هل من الممكن في رأيك أن يكون السويسريون راضين عن حياتهم بنسبة 80%؟ - ألحّ عليها ماتيوس.

فالتفتت نحو النافذة، كما لو أنها تستطيع من هناك أن ترى البلد بكامله. ثم قالت:

- نعم، هذا ممكن.

وهو ما ينطبق عليها، في نظري، يا ألمودوفار، أكثر ممّا ينطبق على البلد بكامله.

انتهينا من تناول العشاء، ثم رتّبنا كل شيء وذهبنا لنضطجع. دخلتُ أنا والأطفال إلى غرفة خاصة بالضيوف بها سريران واسعان، أما شافيير وأليبيو فناما فوق أريكتين في الصالة. نمتُ على الفور تقريباً. استيقظتُ قُبيْل الساعة الثالثة فجراً. كان البيت غارقاً في الصمت. وما عدا خطوات شافيير الذي كان يذرع المسافة بين المطبخ والصالة جيئة وذهاباً، كان البيت غارقاً في الصمت.

في اليوم الموالي، وكان يوم خميس، حملتُ أنا وشافيير السيدة دوروتيا ماركش وساعدناها على الصعود إلى الشاحنة الصغيرة. جلسَتْ في المقعد الأمامي بيني وبين أليبيو. بعد ذلك، وضعنا الكرسي المتحرك في صندوق الحافلة، وهو ما لم يكن ممكناً إلّا بعد دفع المقعد الأخير. لم تكن الساعة قد بلغت الثامنة صباحاً، والسماء زرقاء حتى أنها تبدو كأنها صُبغت.

قطعنا حوالي خمسين كيلومتراً في صمت. كان ماتيوس يجلس خلفي، منشغلاً، وعلامات حزن كبير على وجهه. منذ ستة أيام وهو ينتظر أن يكتمل نمو ثلاثة ملايين كتكوت من دواجنه الافتراضية ليصبح دجاجاً يتمكن من بيعه ويقتني نظام حضن اصطناعي قد يضاعف من وتيرة إنتاج البيض. وكانت التوقعات تشير إلى أن الدجاج سيكون جاهزاً للبيع عند الساعة التاسعة وسبع وأربعين دقيقة. وكان أمام ماتيوس ساعة من الزمن ليقوم بالبيع؛ وأيّ دقيقة تمرّ بعد ذلك قد تضاعف من حجم خسارته. إلّا أنّ خطتنا كانت تتوقع أن نصل إلى مارسيليا بعد منتصف النهار. هكذا قام ماتيوس

بقياس الوقت وحجم الخسائر الكارثية التي ستضرب دواجنه فانتابه غضب كبير لم يستطِعْ أحد أن يهدئ من روعه.

كان فاسكو وفلور يقرآن الكتاب نفسه، رواية عن الأزمة الاقتصادية الكبرى لسنة 1929 في الولايات المتحدة الأميركية، ورأساهما ملتصقان، هو يمسك الكتاب وهي تقلب الصفحات.

بعد أن تجاوزنا مدينة غرونوبل، قالت دوروتيا ماركش إنها قد فكرت ملياً في مسألة الرضا عن الحياة. وبعد ذلك، دون أي تفسير أو شرح، أعطتنا رقماً. لم يسألها أي أحد كيف توصّلت إلى ذلك الرقم، ولا عن المعايير التي اتّبعتها في التقييم.

مرّت بعض الثواني، فقامت فلور، دون أن ترفع رأسها عن صفحات الكتاب الذي تقرأه، وقالت رقماً يشير إلى معدّل رضاها عن الحياة.

بعد ذلك، قال أليبيو رقمه.

وتبعه ماتيوس.

وفاسكو.

ثم أنا.

مكتبة
t.me/t_pdf

- 6,0 - قال شافيير - مؤشّر السعادة داخل هذه الشاحنة الصغيرة هو 6 من 10.

بدا لي ذلك الرقم مستحيلاً. صحيح أن دوروتيا ماركش لها معدّل رضا عن الحياة مرتفع جداً، لكن، مع ذلك، كان رقم 6 يبدو لي بعيداً عن تمثيلنا تمثيلاً صحيحاً.

وصلنا إلى مارسيليا حوالي الساعة الواحدة زوالاً. كانت الشمس تنفجر مضيئة العالم والبحر الأبيض المتوسط هادئ تماماً،

كما لو أنه يمكن المشي فوق الماء. توجهنا مباشرة إلى المستشفى. أوقف أليبيو الشاحنة الصغيرة أولاً عند باب المستشفى كي نترجّل ونُخرج الكرسي المتحرك، ثم ذهب بعد ذلك ليركنها. في مكتب الاستقبال، أعطونا رقم الغرفة التي يرقدُ فيها شقيق دوروتيا ماركش؛ وأخبرونا أنّ الزيارات تبدأ على الساعة الثانية زوالاً.

جاء أليبيو والتحق بنا في مقهى داخل رواق المستشفى. تناولنا فطائر باللحم ومشروبات مبردة. قرأت بعض المعطيات عن مارسيليا حملتُها معي من لشبونة: ثاني أكبر مدينة في فرنسا، وأقدم مدنها، بها حوالي 000 850 نسمة، مسرح يوناني قبالة البحر. وعكس ما يظنه البعض فإنّ النشيد الوطني الفرنسي لم يظهر هناك، بل إن جنود فيدرالية مارسيليا هم مَن ساهموا في الرفع من شعبيته خلال الثورة الفرنسية[1]. ظلوا صامتين يستمعون لي، وإن لم يكن أحد مهتماً بما أقول. لم ترفع دوروتيا ماركش عينيها عن الطبق، لكنها لم تلمس الأكل. فتح ماتيوس الحاسوب فوق الطاولة. ظل يحدق في الشاشة لبضع دقائق دون أن يلمس لوحة المفاتيح، ثم أغلقه.

- لا يوجد ربط بالإنترنت هنا - قال.

- طبعاً؛ لا يوجد أيّ ربط - صاح فاسكو - لأن نظام الواي-فاي يمكن أن يشوش على الآلات الكهربائة التي يستعملونها في قاعات العمليات وقد يؤثر على التجهيزات التي تساعد المرضى على التنفّس. يمكن أن يموت بعض المرضى.

نظر إليّ ماتيوس، وسألني:

---

(1) يُعرفُ النشيد الوطني الفرنسي باسم «لامارسييز» أو «المارسيلية». (المترجم)

- هل هذا صحيح؟

لم أكُن أعرف إن كان صحيحاً أم لا، فأجبتُه.

- هذا ممكن.

فجأة، ابتعدَت دوروتيا ماركش عن المائدة.

- حان موعد الزيارة، قالت وهي تتوجه إلينا بحركة من رأسها كما لو كنّا تلامذة صغاراً وهي الأستاذة التي ستبدأ الدرس. كانت تبدو متوترة، وقلق دفين في كلّ حركاتها.

بقينا مسمرين في أماكننا، ننظر إليها. وبما أنها ظلّت جامدة بدورها، سألها أليبيو:

- هل تريدين أن أرافقك؟

ابتسمَتْ من جديد فنهض أليبيو، ثم توجّها معاً نحو المصاعد. لحْظَتها كُنّا جميعاً هناك، ومع ذلك كان يبدو أنّ شيئاً ما ينقصنا.

انتهينا من الأكل، وأراد ماتيوس أن يتعرف على مارسيليا. لكن ذلك كان مستحيلاً، لأننا كنا على مسافة بعيدة عن وسط المدينة، وحول المستشفى كانت هناك فقط إقامات سكنية، مستودعات وأشجار صنوبر. لكنه ألحّ على ذلك، فمشينا بضع دقائق، وقطعنا طريقاً واسعاً، به ثلاثة ممرات من كلّ جانب، ثم عبرنا حيّاً صغيراً به بنايات متشابهة من طابقين أو ثلاث طوابق، من دون حركة في شوارعه أو في نوافذ البيوت.

- اللعنة! - قال شافيير.

نظرتُ إليه. كان مستقيماً تماماً، يداه تحت رِدفَيْه، وعيناه تحدقان في الأفق. تعلو محياه تعابير استسلام تام، كما لو أننا أمام كتيبة إعدام.

- ما بك؟ - سألتُه.

- لست أدري إن كنت سأتحمل لوقت طويل.

- ماذا ستتحمل؟

- كلّ هذا. أن أكون هنا.

- ولكنك كنت ترغب في المجيء إلى هنا.

- لم أكُن أريد ذلك. لكن لم يكن هناك من حلٍّ آخر.

- حسناً. وماذا الآن؟

- الآن أشعر أن رأسي إلى أسفل وأن الكوكب يجثم بثقله فوق قدميّ.

- تباً لك يا شافيير! اهدأ.

- قد يكون أمراً جيداً أن نكتفي بقول الأشياء بصوت مرتفع فتقع، لكن الأمور ليست بهذه البساطة.

- ولماذا تقوم بهذا؟

- ماذا تعني حين تقول «هذا»؟

- إنك دائماً تجد وسيلة ما لتضع نفسك في قلب كلّ شيء.

- هذا ليس صحيحاً.

- إنه صحيح، بكلّ تأكيد. خوفُك، نفورُك من العالم ومن الحياة، حزنُك، كلّ هذا أكبر منك؛ يملأ الهواء من حولك، ثم يصيب مَن يحيطون بك.

- آسف، لكن هذا ليس هو قصدي.

- أصدّقك. لكنك تركز كثيراً على ذاتك، وعلى إبعاد ذلك الخوف حتى أنك لا تنتبه لما تقوم به.

- أستسمحك.

- هذا لا ينفعني في شيء، يا شافيير. تعلّم كيف تعيش وَدَعْك من هذا.

- إنه أمر صعب للغاية.

- إنه صعب للغاية بالنسبة إلى الجميع. تباً لك! إنك لست مختلفاً عن الأشخاص الآخرين.

كان يزمّ شفتيه، وعضلات ما حول فمه متصلّبة. وقلق عميق في عينيه. رفع إحدى يديه ثم قال بتثاقل:

- دانييل، لنتكلم في هذا الأمر لاحقاً... إنني لا أستطيع الآن...

ثم تحرّكت يدُه في الهواء، وهي تحدِّد الصمت بين الكلمات.

فقلتُ في نفسي: **إنه لن يستطيع أن يتحمّل حتى النهاية. يوماً ما، سوف يضع حداً لحياته، كما كنا نعرف دائماً. ربما يحدث ذلك قريباً. وربما يحدث اليوم.**

- لا تفسد كلّ شيء يا شافيير - قلتُ له - لقد جئنا إلى حدّ هنا، وهي الآن هناك في المستشفى مع شقيقها، وهذا ما كنّا نريده. ثم إنّ ألمودوفار سيكون سعيداً حين يعلم بذلك.

- أعرف. أعرف. لقد ألحّ عليّ كثيراً بأن نأتي إلى هنا.

- ماذا؟ متى ألحّ عليك ألمودوفار بأن نأتي إلى هنا؟

عضّ شافيير شفتَه السفلى وكادت عيناهُ القلقتين أن تقفزا من محجَريْهما. لم يكُن يريد أن يتكلم. لكننا نعرف ما تمارسه الحقيقة من قوة على جسده، وهو عاجز عن الكذب في مثل هذه المواقف.

- شافيير، متى طلب منك ألمودوفار أن نأتي إلى هنا؟

أغمض عينيه لمدة ثانية واحدة فقط، ثم فتحهما وقال:

- في الأسبوع الماضي.

- تباً لك! في الأسبوع الماضي؟ هل ذهبت لزيارته في السجن واستقبلك؟

- كتبتُ إليه أُخبره بما يجري.

- وهل أجابكَ ذلك الوغد؟

- لم أكُن أعرف أنه سيجيبني. كانت أول مرة أكتب إليه، لأنني اعتقدت أنه من المهم أن يعرف أن دوروتيا ماركش طلبت مساعدة.

- وأجابك هكذا، لا أقلّ ولا أكثر، بعد كلّ هذا الوقت من الصمت؟

ثم اتّكأ شافيير إلى الخلف على المقعد دون أن يسحب يديه من تحت ردفَيْه.

- لقد كتبَ لي من قبل.

- الوغد! متى كان ذلك؟

- مرة كلّ شهر.

- مرة كل شهر؟ منذ متى؟

- منذ شهره الثالث أو الرابع في السجن.

قمتُ بعملية حسابية بسيطة: إنها عشر رسائل في المجموع. كان أول شيء خطر على بالي أن أنهال على شافيير ضرباً. لكن هذا ما كان لينفع في شيء. على أي حال، كنتُ غاضباً منكَ أنتَ أكثر ممّا كنتُ غاضباً منه.

- ولماذا لم تخبِرني بأيّ شيء؟

- هو مَن طلب مني ألّا أخبر أحداً.

- لكنك تعلم يا شافيير أننا كنّا منشغلين بشأنه منذ أكثر من سنة وهو لا يقول شيئاً. ثم إنّ كلارا وفاسكو من حقِّهما أن يعرفا أيضاً.

- طلبَ مني ألّا أقول شيئاً.

- وماذا يقول في رسائله؟

- لا شيء ذا أهمية. يتحدّث عن الحياة داخل السجن، وعن اللحظات الصعبة التي يمرّ بها هناك، وعن الأحاديث مع السجناء الآخرين. كما يذكر بعض ذكريات الماضي، ويتساءل عن المستقبل. رسائلُه عبارة عن يوميات.

- وهل يتحدّث عمّا وقَع؟

- لا.

- وهل سألته عن ذلك مرّة؟

- لم يسبق لي أن كتبتُ إليه. كانت أول مرة.

- ولماذا؟

- لم يكُن لديّ ما أقول له.

- تباً لك! ألم يكُن لديك ما تقول؟ ألم تكُن لديك أسئلة؟

- أيّ نوعٍ من الأسئلة؟

- لست أدري. حول ما فعله كي يدخل إلى السجن. حول صَمْته. حول أشياء كثيرة.

- لا. لم يكُن لديّ أسئلة لأطرحها عليه.

- ومع ذلك، ظلّ يُراسلك كلّ هذا الوقت؟ لماذا لم يكتب إليّ أنا؟

- لست أدري. ربما كان يعرف أنني لا أجيبه، وهو بحاجة إلى شخص مثلي لا يُزعجه بأسئلة كثيرة.

وفجأة، فهمتُ كلّ شيء، يا ألمودوفار.

- إذاً، فكرة هذه الرحلة لم تكُن فكرتك، يا شافيير، بل فكرته

هو. ألمودوفار هو مَن طلب منك أن تذهب إلى سويسرا لتُساعد دوروتيا ماركش. وهو مَن طلب منك أن تُقنعني بذلك. إذاً، نحن هنا اليوم لأنه هو مَن أمر بذلك.

ظلّ شافيير صامتاً، وأومأ بحركة موافقة خفيفة من رأسه.

ألمودوفار، إنني أريد أن أفهم. رفضْتَ أن تستقبلني في السجن، ولم تتحدّث معي لما يزيد عن سنة، لكنك في الوقت نفسه كنت تكتب إلى شافيير كلّ شهر، تعترف له وتتاقسم معه ما تعيش، وما يقع لك. فهلّا شَرَحْت لي، من فضلك، كل ما قمتَ به؟

إنك تعرف أنني لا أستطيع أن أقوم بهذا الأمر. ولم أعُد ألمودوفار نفسه الذي كُنتَ تعرفُه.

أعرف ذلك.

لكن، هل أنت غاضب مني؟

تباً لك! لا تظنّ أنني هنا خارج السجن لأحلّ مشاكلك. قد يبدو لك الأمر كذلك، لكن لا تعوّل عليّ. لديّ أشياء أخرى في حياتي الخاصة.

حقاً؟

تباً لك!

ربما كان شافيير على حق. ربما كنتُ فقط بحاجة إلى شخص أبعث إليه رسائلي ولا أنتظر منه جواباً.

لماذا؟

لست أدري. الملل. الخجل.

أنا أيضاً كنتُ أستطيع أن أظلّ صامتاً.

لا أظنّ ذلك، يا دانييل. أنت كثير السؤال، وتريد أجوبة. أنت صارم جداً مع الآخرين.

ومن أينَ لك بهذا اليقين؟

لقد كنتَ هكذا دائماً. في ذهنك خطة مفصّلة عن كلّ ما ينبغي لأيّ شخص من حولك أن يقوم به ولا تقبَل أن يبتعد أيّ أحد قيد أنملة عن تصوّراتك الجاهزة. لا تقبَل بأن ينخرط أيّ أحد بجد فيما يقوم به، وأن يمضي كلّ وقته فيما لا تعتبره أنت شيئاً مهماً. لكن، اسمع أيها الوغد، المشلكة ليست في الآخرين، بل فيكَ أنت.

أتذْكُرُ تلك الليلة، يا دانييل؟ تلك الليلة في بيت شافيير، قبل أن يقبضوا عليّ وأدخل السجن؟ طلبتُ منك أن نلتقي في بيته لأنه كان لدي شيء مهم أقوله لكما. فظهرتَ فجأة على الساعة الثامنة ترتدي بدلة من ثلاث قطع، أنيقاً كعادتك، وحتى قبل أن تدخل

سألتَ عمّا يجري، لأنك كنت على عجلٍ من أمرك، لأنه كان يتوجّب عليك أن تذهب إلى البيت لتتناول العشاء مع مارتا وطفلَيْك، وبعد ذلك كنت تريد أن تشتغل على مقترح كان عليك أن تقدّمه لاحقاً إلى زملائك. فلم أُريك غير قنينة الفودكا التي كنتُ أحملُها في يد وكأساً في اليد الأخرى، ثم ملأتُ كأسكَ وقلتُ: «اشرب». فكُنتَ رائعاً وهادئاً حقاً، وتخلَّيتَ عن هيئة وجدّية الإطار الذي لا يضيع دقيقة من وقته، ثم نظرتَ إليّ كما لو أنك تقترح جنوناً عظيماً لا يُقاوم، فأخذتَ الكأس وكرَعَتها جرعة واحدة. وكما لو أنّ هذا لم يكُن كافياً، مددتَ لي ذراعك والكأس بين أصابعك وقلت لي: «املأها ثانية». فملأتُها وأفرغْتَها من جديد. أتذْكُر ذلك؟

- ليس هناك أيّ أمر خاص - قلتُ لك - اليوم لديّ رغبة في الاحتفال.

- بماذا نحتفل؟

- لا شيء بالتحديد. نحتفل ونرفع الأنخاب، ليس إلّا.

وكم كُنتَ بحاجة إلى تلك الأجواء، يا دانييل؛ كُنتَ بحاجة إلى خفّة الحياة والتخلّص من ثقلها. لذلك اتصلتَ بمارتا وأخبرتَها أنك برُفْقتي وبقيتَ معي.

أما شافيير، فلم يشرب شيئاً، ظلّ يذرع المكان جيئة وذهاباً والكأس تنتقل من يد إلى أخرى. مشكلتُه الأساسية لم تكن في عدم قدرته على التخفّف من المسؤولية والتخلّص من الأعباء، بل على العكس من ذلك، كان قد فقَدَ كثيراً من كثافته ولا يعرف سبيلاً لاسترجاعها. لكنه شاركنا في الحديث وضحك، تباً له! منذ مدة لم أسمَعه يضحك كما ضحك يومئذٍ، وأنت سَكِرْت بسرعة وبدأت

تهزَأ منه لأنه صبغ شعره بلون أبيض، وأن شُعوره بالشيخوخة منذ المراهقة كان جنوناً عبثياً، إلى أن أجابك إنه لم يعُد يصبغ شعره منذ ست أو سبع سنوات، وأن اللون الأبيض أصبح لون شعره الطبيعي كما لو أنّ جسده تَحالَف مع الأفكار السوداء التي تسكن خلده.

بعد ذلك دخّنا تلك السيجارة من الحشيش التي لفّها بعناية، فرحلنا إلى عالم آخر. وأخذ شافيير يحدِّثنا عن مخاوفه، فقال إنه يخاف من العالم كما هو فوق الأرض، كما حدثنا عن السماء، وقال إنّ السماء هي المكان الأنسب لشخص مثله؛ ليس سماء الجنة، لا، بل سماء الريح والسحب؛ فطفقنا نتمرّغ فوق الأرض من الضحك من نظرياته في استحضار الأرواح. أتذْكُر ذلك؟

فنهضْتَ وأنت لا تزال تضحك ثم ذهبْتَ إلى الحمام، وحين عدتَ كان وجهُك مشرقاً. فتساءلنا: «ما بك؟ ماذا حدث؟» فجثيتَ على ركبتيك أمام شافيير، وبتثاقلٍ قلتَ لنا:

- هيا بنا نخرج لنتجوّل.

- الآن؟ - سألتُك.

- نعم الآن. تعال معي يا شافيير. سوف نقوم بجولة في الخارج.

أيها الوغد، تشربُ كثيراً وتصير على هذا الحال: لا تحترم العالم ولا الناس من حولك.

- لا تكن غبياً يا دانييل - قلتُ لك.

- إنه قادر على ذلك. نعبُر الشارع ثم نعود صاعدين نحو البيت. أمر بسيط جداً.

نحن نتحدث وشافيير ينظر إلينا، كما لو أنه يراكَ لأول مرة. إلى أن قالَ بصوتٍ خفيض:

- لا أستطيع. سامحني.

وأخذ يبكي.

لستُ أدري إن كُنْتَ قد انتبهت للأمر، ولكنه بذل مجهوداً كبيراً ليرضيك حتى تقبَله وتتفهّمه. كان ذلك مهماً بالنسبة له. ولكنك لم تنظر إليه حتى. مددْتَ ذراعك لتأخذ القنينة التي كانت في يدي وملأتَ كأسك مرة أخرى.

وحتى يكفّ عن البكاء، طلبتُ منه أن يرسم وشماً على جسدي. أتذْكُر ذلك؟ منذ سنوات وهو يطلب منّا أن نتركه ليرسم أيّ وشم على جسدَيْنا.

نظَرَ إليّ لبضع ثوان ثم كفكَفَ دموعه بظهر يده.

- هل يمكنني أن أرسم ما أشاء؟ - سألني.

- ارسُمْ ما تشاء. لكن بشرطين فقط: أولاً، ألّا تتعدّى مساحةُ الوشم ثلاث سنتيمترات؛ وثانياً أن يكون في مكانٍ لا أراه من جسدي.

فرسَمَ وشماً يمثّل ثلاث نقاط (...) خلف أذني. ثلاث نقاط لا غير. لم يستغرق أكثر من دقيقة واحدة.

وفور ذلك، غيَّر الإبرة ورسم النقط الثلاثة نفسها (...) في الجهة الداخلية من معصمه الأيسر، عند مستوى العروق. فالتفتَ نحوك وقال:

- والآن، جاء دورك يا دانييل.

- لتذهب إلى الجحيم، يا شافيير - صحْتَ ضاحكاً.

- لن يكون للأمر معنى إلّا إذا رسمتَ الوشم نفسه على جسدك، ونحمل العلامة نفسها على أجسادنا الثلاثة.

- هذا الأمر لا يهمني. إنني لم أطلب منك يوماً أن ترسم على جسدي أيّ وشم، أيّاً كانت طبيعته.

- إنك غبي يا دانييل، ولا تفهم شيئاً.

- كلنا أغبياء، يا شافيير.

أتذْكُرُ الصمت الذي خيَّم بعد ذلك؟ كأنّ البناية ستنفجر في أيّ لحظة وحين. أخذ شافيير ينظّف كلّ شيء، فرمى الإبر ووضع الآلة داخل غطائها. حينئذٍ قُلتَ:

- حسناً.

وظلّ ينتظر، لأنه كان يعرف أنّ الأمور معكَ أنتَ لم تكُن بتلك السهولة. فأضفْتَ:

- سأتركك ترسم وشماً على جسدي، لكن فقط بعد أن ترافقني في جولة في الشارع.

- تباً لك، يا دانييل. كُفّ عن هذا - قلتُ.

- دعك بعيداً عن هذا الأمر، يا ألمودوفار.

نهض شافيير من فوق الكرسي، ثم مشى عبر الصالة، يداه فوق رأسه، يشدّ شعره الأبيض بأصابعه، ومعركة فظيعة تدور رحاها في دواخله. بعد ذلك، توقف وارتدى ثوب الحمام فوق المنامة.

- هيا بنا - قال، وهو يتوجه نحو الباب.

- لا، يا شافيير - قلتُ - لن تقوم بهذا الأمر.

وقفْتَ أمامي، بعينين جاحظتين كأنهما خرجتا من محجريهما، ثم صحْتَ قائلاً:

- إنني لا أقوم بأيّ أمر سيئ، يا ألمودوفار. أريد فقط أن أساعده.

تقدمتُ نحوك ودفعتُك. فاستجمعتَ قواك ولبضع ثوان صمدتَ أمامي كأنك جلمود راسخ في أعماق الأرض. كان من الممكن أن تكون تلك بداية عراك ربما ينتهي بشكل سيئ. أَتذْكُرُ آخر مرة تعاركنا فيها أنت وأنا؟ كان عمرنا إحدى عشرة سنة؛ يوم مات كلبي فقلتَ إنّ ذلك أمر جيد لأنّ الحيوان اللعين لا يكفّ عن عضّ كل الناس.

حسناً، هذا لا يهم، ولنتقدم قليلاً. فجأة، تراجعْتَ أمام قوة ذراعيّ.

أتذْكُرُ ذلك، يا دانييل؟ أما زلتَ تظن أنك كنت تساعد شافيير؟

خرجنا من الشقة نصيح معاً، وشافيير صامت كأنه محكوم بالإعدام. فطلبتَ المصعد.

قلتُ لشافيير:

- إنك لست مضطراً للقيام بهذا الأمر.

فنظر إليّ وخوفٌ سائل يفيض من عينيه، ثم أجابني من دون اقتناع:

- أعرف ذلك، لكن لا بأس أن نقوم بجولة قصيرة.

فوضعتَ ساعدَك الأيمن حول كتفيْهِ وقُلْتَ:

- هيا بنا إلى الأسفل، ندخن سيجارة ونصعد من جديد.

وصل المصعد فولجناه. اتكأ شافيير على أحد جدران المصعد ثم انزلق نازلاً حتى صار منكمشاً، يطوي ركبتَيْه إلى أن أصبح جاثياً فوق الأرض. عندما بدأ المصعد بالنزول أخذ يبكي. نظرتُ إليك

عبر المرآة، فرأيتك تميل رأسك وتغمزني بعينك، كما لو أننا خططنا لذلك الأمر معاً.

وصلنا إلى الطابق الأرضي، فخرجنا أنا وأنت. نهض شافيير لكنه ظلّ مسمّراً في مكانه.

- هيا، تعال يا شافيير - قلْتَ وأنتَ تُمسك باب المصعد.

- حسناً، أنا قادم.

وظل هناك، دقيقة، ودقيقتين، متجمّداً من الخوف يبتلع ريقه بصعوبة. إلى أن أطلقْتَ الباب فانغلقَ في وجهه. وبعد لحظات قليلة، بدأ المصعد يرتفع من جديد. مددتَ لي يدكَ، تصافحنا، تمنيتَ لي ليلة سعيدة وذهبتَ لحالك.

كانت الساعة تشير إلى الثالثة صباحاً تقريباً.

بعد ساعتين، قبضوا عليّ وأنا أسطو على محطة وقود.

أتَذْكُرُ ذلك؟

أتَذْكُرُ ذلك؟

طبعاً، أذكُرُ ذلك، يا ألمودوفار. لكنك مخطئ: أنا لم أقُم بذلك لأنني لا أحترم شافيير، بل، على العكس من ذلك، إنه كائن بشري وأنا أؤمن بأنّ كلّ الكائنات البشرية تملك بداخلها قوة تتجاوز خيالنا وتستطيع أن تقوم بأيّ شيء نعتبره مستحيلاً. فالمستحيل ما هو إلّا فكرة نبتكرها في محاولة لتفادي إحباطاتنا؛ وأما أن نرى أنّ بعض الأشياء يستحيل إدراكها فذلك أمر يجعل كلّ شيء سهل المنال. إنّ شافيير يعتقد أنه فقَدَ تلك القوة، لكني أعرف أنّ هذا ليس صحيحاً. فهذه القوة ستكمن بداخله ما دام قلبه يخفق. هذا ما كنت

أريد أن أبيّن له. وما لا تعرفه هو أنني عدتُ إلى هناك. بعد بضعة أسابيع، لا أذكر إنْ كانَ ذلك بعد محاكمتك، عدتُ إلى بيت شافيير وتركته ليرسم ذلك الوشم على جسدي. فرسم ثلاث نقاط (...) وسط ظهري تماماً.

مكتبة
t.me/t_pdf

أنا سعيد بمعرفة هذا الأمر.

والآن اسكُتْ، ودعني أحكي لك ما تبقى.

حسناً. كنّا هناك في مارسيليا غير بعيد عن المستشفى. كنتُ جالساً على مقعد قرب البحيرة. مشيتُ ثلاث خطوات لأبتعد من شافيير. كانت الحديقة هادئة كأنها مكان ينطوي على سرّ من الأسرار. الأشجارُ تتحرك بهدوء، وتبدو كأنها معلقة في السماء. كانت هناك امرأة تجلس قبالتنا ومعها عربة أطفال إلى جانبها. كان هناك عجوزان يتجولان حول البحيرة ويمشيان بخطوات من بضع سنتيمترات. وفوق تمثال حورية بحر تبرز من الماء حطّ حمامٌ فصار كأنه جزء من التمثال. لم يكُن ماتيوس، وفلور وفاسكو قرب البحيرة. لم يكونوا في أيّ مكان. التفتُّ نحو شافيير.

- هل رأيتَ الأطفال؟

كان يدير وجهه نحو الشمس، ويغمض عينيه. تأخر لحظة في فتحهما، ثم أشار إلى ضفة البحيرة وهمهم قائلاً:

- كانوا هناك.

- أعرف أنهم كانوا هناك، يا شافيير، لكن أين ذهبوا؟

- لا أعرف.

- انتظر هنا - قلتُ له.

ثم عبرتُ الحديقة. عندما بلغتُ الجهة الأخرى، أدركتُ أنها لا تنتهي هناك، بل كان ثمة منحدر صغير وأشجار أخرى أقل كثافة، وأزهار صفراء في كلّ مكان. كان هناك عدّة أشخاص يركضون فوق الممرات الترابية. تابعتُ سيري لمسافة مئة متر تقريباً، وحينئذٍ رأيتهم في باحة لعب خاصة بالأطفال. كانت فلور تجلس على أرجوحة ومقدِّمتَي قدَمَيها تلمسان الأرض لمساً خفيفاً، وتمسك الحبلين بيديها. كان فاسكو واقفاً أمامها بالضبط، بين رجليها، ويداه فوق يديها. كانا يتبادلان القبل. قبلة بدت كأنها تمتدّ لوقت طويل. لم أرَ ماتيوس في أيّ مكان.

ألمودوفار، هل تذْكُر يوم كانا صغيرَيْن؟ دائماً معاً، يجريان الواحد وراء الآخر. وحتى قبل أن ينطقا بالكلام كنّا نمزح ونقول إنهما يَعِدان بحبّ عاشقَيْن في المستقبل. ونهنئ أنفسنا على ذلك، مثل عرّابَيْن وجَدّيْن للحفيد نفسه في المستقبل. لا أذكر إن كنّا نتحدث بجدّ. لكن تلك القبلة كان بإمكانها أن تكون بداية لكلّ هذا. ولا تنسَ أنني لم أكُن قطّ أباً مفرطاً في حماية أطفاله، لذلك فإنّ منظر ذلك الشاب وهو يقبِّل ابنتي الجميلة، لم يشغَل بالي قط، بل على العكس من ذلك، كنتُ أعرف أنّ ذلك سيكون أمراً مهماً. إلّا أن تلك القبلة، يا ألمودوفار، سحبت الأرض من تحت قدميّ، وتركتني أسبح في خوف سائل. كما لو أنّ ابنك سوف يُعدي ابنتي من خلال تلك القبلة. كما لو أنّ حياة فاسكو، وأشرطة المشرّدين، وأصدقاءه في تلك الشقة، والمخدرات، والكذب، وحاجته إليك، والمعدّل المنخفض جداً الذي حدّده من قبل لمؤشّر سعادته، كما لو

أنّ كلّ هذا يمكن أن ينتقل إلى فلور وينخرها حتى لا يتبقَّ أيّ شيء ممّا هي عليه.

اقتربتُ منهما فلم ينتبها لذلك، واستمرَّت القبلةُ. قلتُ:

- فلور.

فتركَها فاسكو، ثم تراجع خطوة إلى الخلف وظلّ متكأ على الحائط. أما فلور، فبقيت في مكانها وابتسمَت لي دون أن تحرِّك شفتيها تقريباً.

صاح فاسكو:

- عفواً، دانييل.

فخطر على بالي لحظتها أن أتركه هناك، وأعود إلى البرتغال من دونه. لكني قلت له:

- نتحدث في هذا الموضوع لاحقاً. فلور، أين هو أخوك؟

- لا أعرف. كنتُ أظنّ أنه كان معك.

- إنه ليس معي. ألمْ يأتِ إلى هنا معكما؟

- لا.

عدنا إلى حيث تركتُ شافيير. جلسَتْ على المقعد بجانبه امرأةٌ فتّتت قطعة بسكويت في كفّ يدها فجاءت حمامة وحطت فوق معصمها وراحت تنقر الفتات. لم يكن ماتيوس هناك.

- انتظرا هنا - قلتُ لهما.

كانت الحديقة تنتهي في الجهة الأخرى. جريتُ لأقطع الشارع بين سيارتين. على طول الشارع كان هناك محلان أو ثلاث محلات تجارية، مقهى على الرصيف به ثلاث موائد، وكشك لبيع الجرائد. دخلتُ إلى المحلات وإلى المقهى ولم أجِد ابني. تحدَّثتُ مع الرجل في الكشك، فحرّك رأسه ولا أظنّ أنه فهم شيئاً من فرنسيتي

الركيكة. قطعتُ شارعاً آخر وقمتُ بالأمر نفسه. بدأتُ أشعر أنّ معدتي أخذت تتلوى، وأن بوادر حزن شديد بدأت تلوح وتدنو بسرعة.

عدتُ إلى الحديقة.

- علينا أن نتفرّق لنبحث عنه - قلتُ لهما.

طلبتُ من شافيير أن يذهب إلى المستشفى، لأنه ربما يكون ماتيوس قد عاد إلى هناك. ابتعد وهو يجرجر قدميه، كما لو أنه يحمل كلّ عبء العالم فوقهما. لم يكن على ما يرام، يا ألمودوفار، لكني كنتُ عاجزاً عن القيام بأيّ شيء من أجله لحظتها. أمرتُ فلور وفاسكو أن يبقيا في الحديقة، في حال ما إذا رجع ماتيوس. ثم جريتُ، فقطعت الحديقة ووصلت إلى موقف سيارات تابع للمستشفى، يتكوّن من طابقين أو ثلاثة طوابق متراصفة تعادل مساحة ملعب لكرة القدم ولا تحيط بها جدران. مشيتُ بين صفوف السيارات في الطابق الأرضي بحثاً عن ماتيوس. لم يكُن هناك أدنى أثر أو حركة لأيّ كان، كما لو أنّ كلّ تلك السيارات كانت عربات متخلى عنها. فكرتُ في مارتا، وفي الكلمات التي سأواجهها بها لأشرح لها أنني فقدتُ ابننا في فرنسا. لم أكُن أملك تلك الكلمات، يا ألمودوفار، وأن تلك الرحلة كانت أكبر خطأ ارتكبناه.

صعدتُ إلى الطابق الأول، مشيتُ وسط السيارات، وأنا أصيح باسم ماتيوس. لم يجبني أحد. وفعلتُ الشيء نفسه في الطابق الثاني. وفي الطابق الثالث المفتوح على السماء. لا شيء، لم يكن هناك.

اتصلتُ بشافيير. كان قد وصل للتو إلى المستشفى ولم يعثر على ماتيوس.

غادرتُ موقف السيارات وتوغلتُ في شارع به مستودعات كثيرة. كانت الساعة قد تجاوزت الرابعة زوالاً. قطعتُ عشرات الأزقة المتوازية والمتعامدة كما لو أنني أمارس لعبة من الألعاب. وفي شارع به حركة نشيطة، دخلتُ إلى المحلات التجارية، والمطاعم، والمخابز، والمقاهي، ومركز للتدليك حيث ساعدتني ثلاث نساء على خلع معطفي دون أن تفهمْنَ أن مشكلتي لا يمكن حلّها بكلّ تلك البساطة. كنتُ أجري، وأجري، من دون توقّف.

نظرتُ إلى الهاتف. لم تكُن هناك أيّ مكالمات فائتة. اتصلتُ بفاسكو. كانا لا يزالان في انتظاري في الحديقة، ولم يظهر ماتيوس بعد. اتصلتُ بشافيير، فكان كلّ ما قاله هو:

- هذا المستشفى لا ينتهي.

اتصلتُ بأليبيو، وحكيتُ له ما يجري. كان هو ودوروتيا ماركش لا يزالان عند شقيقها في المستشفى. كانت تحكي له حكايات من زمن طفولتهما، وتضحك مع نفسها كما لو أنها تسمعها لأول مرة. لكن شقيقها كان سجين غيبوبة عميقة، ومع ذلك حرّك خنصر يده اليسرى ثلاث أو أربع مرات. تركها أليبيو أيضاً وذهب ليبحث عن ماتيوس داخل المستشفى.

في شارع آخر، به حركة كبيرة أيضاً، رأيتُ حافلة توقّفت لمدة دقيقة في موقف الحافلات، فصعدها بعض المسافرين، ونزل منها آخرون. تخيّلتُ ماتيوس وهو يصعد حافلة تشبهها تماماً، فتأخذه إلى وجهة كُتِبَت بلغة لا يعرف قراءتها. كانت فكرة عبثية، لكنها بدت لي ممكنة جداً. هكذا، صعدتُ الحافلة الموالية. أديت التذكرة، وبقيتُ هناك واقفاً قرب السائق، حتى أستطيع رؤية الطريق عبر زجاج النافذة الأمامية. فطلب مني السائق أن أتقدّم نحو مؤخرة الحافلة.

لكني بقيت في مكاني. كان الشارع يبدو كأنه لا ينتهي. على الرصيف رأيتُ كثيراً من الناس، والأطفال، ولم يكُن بينهم ابني. رفضتُ أن أقوم بما أمرَني به السائق، فطلبَ مني مرة أخرى أن أتحرّك من مكاني. رفع صوته فصرختُ أكثر منه، وتحدثتُ عن ماتيوس وعن معنى أن يفقد المرء ابنه، وأشياء أخرى عامّة لا علاقة لها بهذا الموضوع. فتح باب الحافلة وطلب مني أن أنزل. فخرجتُ لأنني لم أكُن أريد أن أصدّق إمكانية أن يبتعد ماتيوس كلّ هذه المسافة.

اتصلتُ من جديد بشافيير، الذي لم يردّ على مكالمتي. كما اتصلتُ بفاسكو وأليبيو، اللذان لم يكن لديهما أي جديد.

بدأتُ طريق العودة جرياً، قرابة كيلومترين، بحسب تقديري. شعرتُ أن نَفَسي ينتهي بسرعة، وأن رئتيّ تمتلئان بجَمْر يتّقد كلما تسرّب الأوكسجين إليهما. قرب الحديقة، اكتشفتُ مركزاً تجارياً، فولجته. لمدة نصف ساعة، انتقلت من رواق إلى آخر، أبحث عن ابني. دخلت إلى المراحيض فتذكرتُ حكاية آفيلا مع هذه الأماكن، وما كان يقوم به في المراحيض العمومية. بعد ذلك، تذكرتُ ما نقرأه كلّ يوم في الجرائد من أخبار عن الأطفال المختفين، وعن شبكات الإتجار في الأطفال، وما يحدث من فظائع على الإنترنت. وماذا لو أن ماتيوس أخبر أحداً ما في الإنترنت أنه سيسافر إلى سويسرا ثم إلى فرنسا؟ ماذا لو أنه كشف له عن تفاصيل الرحلة وأخبره بتواريخها ومواعيدها وأماكنها؟ ألمودوفار، لقد كان العالم يبتلعُ ابني، والحزنُ يلفُّ كلّ روحي.

بعد ذلك، قلتُ في نفسي: **إنه لا يعرف رقم هاتفي. لو ضاعَ منه رقمي وحاول أن يتّصل بي من مخدعٍ هاتفيّ، فلن يعرف**

رقمي. لكنه، ربما يعرف رقم هاتف مارتا. لذلك اتصلتُ بها. فسألَتْني:

- هل كلّ شيء على ما يرام؟

- كلّ شيء على ما يرام - قلتُ كاذباً - وأنتِ؟

- بخير. كلّ شيء كما تركته. هل يمكنني أن أتحدّث مع الطفلَيْن؟

- إنهما ليسا هنا.

لم تطرح عليّ مزيداً من الأسئلة، لكنها كانت تعرف، بالطبع، أنّ شيئاً ما ليس على ما يرام. وقبل أن تنهي المكالمة، قالت:

- اتصل بي حالما تلتحق بهما مرة أخرى؟

بعد ذلك، انتبهتُ إلى أنّ المركز التجاري يتوفر على أربع قاعات سينمائية. اقتنيتُ تذاكر لأدخل إلى كلّ القاعات. وفي كلّ قاعة كنتُ أقف أمام الشاشة وأصيح باسم ماتيوس تجاه الظلام الذي يخفي المشاهدين. لكن الجواب الوحيد الذي كنت أحصل عليه كان عبارة عن كلمات نابية باللغة الفرنسية.

غادرتُ المركز التجاري. كانت الساعة تشير إلى السابعة مساء تقريباً، والشمس بدأت تغيب وراء البنايات، رغم أنّ الهواء لا يزال دافئاً. ولأوّل مرة، فكرتُ أن أتصل بالشرطة، لكن هذا الاختيار أرعبني فاستبعدتُه.

اتصلتُ بأليبيو، فأخبرني أنه كان يبحث في شارع آخر بحيّ يقع خلف المستشفى.

جريتُ نحو الحديقة حيث توجد البحيرة. كان فاسكو وفلور لا يزالان في المقعد نفسه. لم يكونا يتبادلان القبل. كانت فلور تبكي،

وعندما رأتني، عانقتني واعتذرَت لي. فقلتُ في نفسي: **لا، ليس هي مَن ينبغي عليها أن تعتذر، أنا مَن يتوجَّب عليه القيام بذلك.**

طلبتُ منهما أن يعودا إلى المستشفى وينتظراني هناك في المقهى، لربما فكّر ماتيوس أن يعود إلى هناك، أو ربما يكون قد عاد.

ثم جلستُ، أنتظر. ألمودوفار، أنا لم أكُن أعرف ما أفعل بعد ذلك. لم تكُن أمامي خيارات كثيرة فتملّكني خوف شديد، كما لو أنّ الليل سيحلّ والنهارُ لن يطلع أبداً. ربما يعود ماتيوس إلى هناك. كان ثمة أطفال يركضون من مكان إلى آخر. كان العجوزان قد عادا وهما يمشيان كتفاً بكتف كأنهما سلحفتان عمرهما مئة سنة. بقيتُ جالساً لمدة عشر دقائق، أنظرُ إلى كلّ شيء يتحرك؛ من أطفال، وحمام، وأشجار، وماء، وسُحُب. كان العالم بكامله حياً ومضطرباً، ورغم الغمّ والكدر كنتُ أشعر كأني من حجر. وكنت أودّ أن أعود لأشكِّل جزءاً من ذلك الهدوء، فقط أحتاج أن أستعيد ابني وبعدها لن أتخلى عن غوغاء العالم.

عندما غابت الشمس في الأفق احمرّت السماء ثم اكتست لوناً ليلكيّاً، في منظر يشبه الحلم. لحظتها رنَّ هاتفي. كان أليبيو.

- لقد وجدتُه - قال لي.

- ماتيوس؟

- نعم.

ثم شرح لي ما حدث. ألمودوفار، خلال كلّ تلك الساعات التي كنا نبحث عنه، كان ماتيوس داخل مقهى إنترنت، على بُعد نصف كيلومتر من المستشفى. عندما عثر عليه أليبيو، كان منهمكاً في

لعبته المفضَّلة وعلى وشك أن يحصل على ما يحتاج من قروض للمرور إلى المستوى الأعلى والشروع في عملية حضانة خمسة ملايين بيضة. لقد انغمس في عالمه وانتفى واقعُنا تماماً من ذهنه.

وبينما كان أليبيو يتحدث، نزل على كتفيّ ثقل كبير كالأسمنت، واستحوذ على عضلاتي تعبٌ حقيقي.

اتصلتُ بفاسكو وأخبرتُه، فصاح كما لو أنه كان يشاهد مباراة في كرة القدم وقد سجّل فريقُه المفضل هدفاً للتو. كما صاحت فلور بدورها. ثم أنهيتُ المكالمة وأجهشتُ بالبكاء، وقد غمرني فرح شامل لا يوصف.

ألمودوفار، لماذا ينبغي لنا أن نمرّ بلحظات عصيبة كهذه حتى نعرف قيمة اللحظات الجميلة؟ لماذا لا يظهر مثل هذا الفرح إلّا في لحظات الانفراج؟ لأننا محكومون بهوس نسبيّة الأمور. لأنّ ما نتوفر عليه هنا والآن لا يكفينا أبداً، فنخوض صراعاً مستمراً، يستحيل أن نفوزَ به، لأننا لا نقبل بالقليل، ونطمع دائماً في المزيد.

بقيتُ هناك لوقت طويل. حلّ الظلام، وذهب الناس إلى حال سبيلهم فأصبحت الحديقة مقفرة. حين نهضتُ لأعود إلى المستشفى، شعرتُ بحزن عميق لترك تلك الحديقة، كما لو أنني عشتُ فيها لأعوام طويلة.

كان فاسكو وفلور لا يزالان جالسَيْن إلى مائدة في المقهى داخل المستشفى. كانا يضحكان، ربما قال أحدهما شيئاً جعلهما يتلويّان من الضحك بقهقهات عالية. فقلتُ في نفسي: **ربما ليس شيئاً سيئاً أن يكونا معاً، ربما يكون عكس ذلك تماماً.**

نهضت فلور وعانقتني. ضمّتني إليها بقوة كما لو أنها تريد أن

تنفذ إلى أحشائي. ابتسم فاسكو، ابتسامة كابتسامتك أنتَ يوم كنت في سنّه. وكان ذلك شيئاً يثلج الصدر.

ألمودوفار، بعد بضع دقائق، وصل أليبيو رفقة ماتيوس. كنت أريد أن أحضنه، وأشعر به كاملاً بين يديّ، لكنني في الوقت ذاته لم أكُن أريده أن يستشعر ما يغلي في نفسي من قلق ربما ظلّ عالقاً بجسدي من تلك الظهيرة. لذلك، لم أقُم بأيّ شيء. جلس إلى جانبي، يداه في جيبَيه، ونظراته على المائدة.

- لا تقُم بمثل هذا الأمر مرة أخرى - قلتُ له.

أومأ بحركة من رأسه واستمرّ صامتاً.

نظرتُ إلى أليبيو. فتحتُ عينيّ واسعتين لأسأله عمّا يحدث. فأجابني:

- إنها حكاية التخلص من الرغبات.

نظرتُ من جديد إلى ماتيوس. بعد أن اختفى حماس الساعتَيْن الأخيرتَيْن، كان ابني يعيش تناقضاً: يريد التخلص من رغبة تعتريه لأنه يرغب في أن يكون أكثر سعادة. وكم كنت أريد أن أساعده، يا ألمودوفار. ربما يستطيع المرء، بعد التخلص من الرغبة التي تعتريه، أن يصبح أكثر سعادة. إنها مجرد نظرية. لكن، أي شخص هذا الذي يستطيع أن يتخلص ممّا يشعر به من رغبات؟ لم أكن أرغب في أن يكون ابني هو هذا الشخص. لا ينبغي للسعادة أن تشترط كلّ هذه التضحية. على الأقل، ليس من طفل في العاشرة من عمره. جثوتُ على ركبتيّ أمامه، ووضعتُ يديّ على كعبي قدمَيْه، لأطلب منه أن ينسى تلك النظرية، التي كانت خاطئة لأنها تنطلق من فرضية خاطئة ما دام أن السعادة لا يمكن أن تكون أبداً هي الهدف. إذا ظننتَ أن السعادة هي الهدف، فإنك سرعان ما تُصاب بالجنون. لكني، لم

أقل له شيئاً. لم يكن ماتيوس يتجاوز سنّ العاشرة، ولم يكن بحاجة إلى نظريات، كان فقط بحاجة أن يكون طفلاً.

رنّ هاتف أليبيو. كانت دوروتيا ماركش تطلب أن يأتي أحد ليبحث عنها، لأن ساعات الزيارة انتهت. فنهض أليبيو وقال:

- سوف أعود بسرعة.

ثم توجّه نحو المصاعد.

جلستُ ونظرت إلى ابنيَّ وإلى ابْنكَ، فكان ثلاثتهم أمامي والشك يملأ وجوههم، ينتظرون ما سأنطق به لأوبّخهم عمّا ارتكبوه من حماقات. لكني شعرتُ أنني لست أحسن حالاً منهم؛ ولم يعُد لفارق السن بيننا أيّ معنى. لم أكُن أشعر أنّ لي الحق في أن ألومهم عن أيّ شيء.

- أين هو شافيير؟ - سألَتْ فلور فجأة.

- ألم ترونه؟ - لقد وصل إلى هنا قبلكم.

نهضتُ، لكن فلور أمسكتني من يدي، وقالت:

- ابقَ أنت هنا. سنذهب أنا وفاسكو لنبحث عنه.

لم أكُن قادراً على معاكستها فبقيتُ هناك أنظر إليهما وهما يغادران المقهى ويعبران ردهة المستشفى. عدتُ لأجلس، قرب ماتيوس هذه المرة. أغمضتُ عينيّ. شعرتُ بقلبي يخفق مثل عضلة بلغَت حدّ طاقتها. بقيتُ كذلك مدة دقيقة كاملة. ثم فتحتُ عينيّ. إلى جانبي، بدا ماتيوس صغيراً جداً. حاولتُ أن أتخيّل تلك اللحظة لو أنه ظلّ مفقوداً. لم أكن قادراً على تصوّر ذلك. لففْتُه بذراعي وسحبتُه إليّ. تركني لأحضنه، فملأ شعرُه فمي، وتمدّد الزمن. لا يوجد في هذا العالم شيء يشبه تلك اللحظات، يا ألمودوفار.

بعد ذلك، ظهرت أمامنا فلور كأنها موجة بحر. كانت تبكي، ويداها تبدوان كأنهما تلتقطان حفنات هواء من حولها.

- عليك أن تأتي فوراً - قالت وهي تتعثر في بعض مقاطع الكلمات. شافيير. . . لا يستيقظ.

ودون أن تنتظر أن أنهض، استدارت وخرجت مرة أخرى من المقهى. فتبعناها أنا وماتيوس.

قطعنا رواقاً طويلاً، وفلور تمشي بخطواتٍ حازمة أمامنا. بعد ذلك، صعدنا سلالم حتى بلغنا الطابق الأول ثم دخلنا في رواق آخر. مرّ بالقرب منا ممرضٌ وسيدة يملأ الدم وجهها، يمشيان كأنهما عاشقان يتجوّلان. كانت هناك قاعة انتظار عند نهاية الرواق، وعلى بابها كُتب «RHUMATOLOGIE». كان هناك عشرون أو ثلاثون شخصاً، معظمهم من المسنين، ينتظرون أن ينادوا عليهم، وتكشيرة غضب تعلو وجوههم. في الخلف، كان هناك بابان يؤديان إلى المراحيض. عبرت فلور القاعة ودخلت إلى مراحيض النساء. تبعناها بدورنا ودخلنا إلى المراحيض دون أن ينتبه إلينا أحد.

كانت ابنتي واقفة أمام حوض من أحواض المراحيض، ولم تعُد تبكي، كما لو أنّ حضوري حلّ كلّ المشاكل ومدّها بالقوة الضرورية. دنوتُ حتى أرى جيداً. كان شافيير هناك جالساً فوق حوض المرحاض، يسند رأسه إلى الجدار خلفه ويغمض عينيه.

- شافيير! - صحتُ منادياً.

لم يتحرّك. بدا لي من المستحيل أن يظلّ نائماً هكذا، في ذلك الوضع، بكلّ هدوء. انحنيتُ ووضعت يداً على كتفه. رجَجْتُه برفق. حينئذٍ مال رأسُه جانباً فجرَّ ثقلُ الرأس معه بقية الجسد الذي تهاوى من فوق حوض المرحاض وسقط على الأرض. أمسكتُ به،

وتحمّلتُ ثقله لمدة ثانيتَين. بعد ذلك، تركته يسقط، فبدا جسد شافيير بكلّ طوله كأنه مُثْقلٌ بالحجارة. سقط على الأرض، فالتوت ذراعٌ قرب رأسه، وانكمشت رِجْلٌ فوق الأخرى. لم يستيقظ ولم يُبدِ أيُّ جزء من جسده ردّة فعل تُذكر.

خلفي، أُصيبت فلور بهلع شديد وأطلقت صرخة قصيرة وحادّة.

جثوتُ على ركبتيّ إلى جانبه، وبقيت أنتظر لبعض الوقت. لم يتحرّك. إنه ميت. هذه الفكرة بدت لي عبثية. قطعنا ثلاثة آلاف كيلومتر لنصل إلى هناك، دوروتيا ماركش رأت شقيقها، ماتيوس بخير، فلور وفاسكو تبادلا القبل، ومرّ ما هو أسوأ؛ إنه لا يمكن أن يموت. بطريقة ما بديهية، لكن يستحيل التعبير عنها بالألفاظ، قد يُلقي موتُه بسحابة سوداء على تلك الرحلة. ماذا عساني أقول للأطفال؟ يستحيل التمييز بين الحدَثَيْن، وهكذا قد نربط دوماً بين تلك الرحلة وموت شافيير. وفجأة، وجدتُني أستشيط غضباً ضده، وضدّ نفسي. كان غضباً شديداً سرى في كامل جسدي، فلطمتُه بصفعة قوية كأنها ضربة سوط نزلت على خدّه، فارتعشت فلور لذلك. وهمستُ في أذنه، دون أن أحرّك شفتيّ:

- لا يمكنك أن تفعل هذا، أيها اللعين.

وما أن مرت لحظة أخرى حتى صفعتُه ثانية بظهر يدي.

بدأت فلور تبكي من جديد.

لم يطرأ أيّ شيء.

ثم صفعتُه مرة أخرى.

قلتُ له:

- لا تفعل هذا. إننا جميعاً هنا. وليست هذه هي اللحظة

المناسبة لتَفعل هذا. أمسكتُه من معطفه ورججْتُه بقوة حتى تأرجح ساعداه في كلّ الاتجاهات. كان ميتاً بالنسبة لي، يا ألمودوفار.

- أبي! - قال ماتيوس وهو يبكي.

- استيقظ، أيها اللعين! - صحتُ، وأنا أستعدُّ لأضربه مرة أخرى.

وحينئذٍ، فتح شافيير عينَيْه. ثم انتفخ صدرُه قليلاً حين دخل الهواء إلى رئتيه. كما لو أنّ صوتي كان يملك القدرة على بعثه إلى الحياة.

نظر إليّ فرأى ما تبقى من خوفٍ في عينيّ، ولا بد أنه أدرك ما كنتُ أفكر فيه قبل لحظات فقط.

مكتبة
t.me/t_pdf

تيار كهربائي يسري في دمي
ورأسي يعجُّ بالكلمات،
كل الكلمات.

- هذا يعني أنّ هناك دائماً أمل - قال أليبيو.

- لا - قالت دوروتيا ماركش - الأطباء لم يقولوا هذا بالضبط.

- لا أفهم. ولكنه حرّك أصابعه. كان ينصتُ إليكِ وحرّك أصابعه.

- يقول الأطباء إنه من الطبيعي أن يحدث مثل ذلك الأمر في كثير من الأحيان. إنها نبضات عصبية، وردود فعل لاإرادية. . . لا أعرف ما هو المصطلح المناسب بالضبط.

كانا يتحدثان بصوت منخفض في عتمة الشاحنة الصغيرة، هو خلف المقود، وهي إلى جانبه. كنتُ أجلس في المقعد وراءهما بين ماتيوس وفلور، وحين أفتحُ عينيّ أستطيع أن أميز ظلّيْهما، ورأسَيْهما الموجَّهَين نحو الضوء المنبعث من المصابيح الأمامية والمنتشر على الطريق، وأتكهّن بحركات أكتافهما الخفيفة التي تُحدِثها الكلمات المندفعة من فمَيْهما. وخارج الشاحنة الصغيرة كان الليل يخيّم على كلّ شيء. ألمودوفار، كم كان السفر جميلاً داخل تلك الشاحنة

الصغيرة، كما لو أنّ العالم كله كان من ظلام. لأنّ ضوء النهار يطالبنا بشيء كثير.

كنتُ قد غفوتُ خلال نصف ساعة الأولى على الطريق السيار، لكني بعد ذلك سمعتهما يتحدّثان فأصختُ السمع في صمت. كان ماتيوس، وفلور، وفاسكو يغطّون في النوم. أو هكذا بدا لي. ربما كانوا يتظاهرون بالنوم فقط وهم يسمعون كلّ شيء. على أيّ حال، لم أعُد أعرف ما هو أحسن.

لمدة بضع ثوان، رفع أليبيو قدمه عن الدواسة، فارتجف المحرك، وفقدت الشاحنة الصغيرة سرعتها. ثم أطلق أليبيو أنيناً خفيّاً وغضباً مكتوماً. عاودته آلام الرِّجل. وضع رجله مرة أخرى على الدواسة، وبعد لحظة صمت، همس قائلاً:

- لقد قال لكِ الأطباءُ ذلك حتى لا يعطوكِ أملاً في شفائه. هناك عدّة أمور يمكن أن تسوء. وهناك أيضاً شكوك. شكوك كثيرة، بكلّ تأكيد. لكن، هناك عدة أشخاص يستيقظون بعد عدة أيام، بل بعد عدة أسابيع من الغيبوبة.

- الأطباء فقط قالوا إنهم يريدون أن ينتظروا الأسبوع المقبل للقيام بمزيد من الفحوصات والتحاليل. وبعد ذلك، سيقرّرون إن كانوا سينزعون عنه آلات العلاج أم لا.

- لقد حرّك أصابعهُ. حرك أصابعه. لا بدّ أنه كان يريد أن يقول شيئاً ما.

- كلا. ليس ما تظنّ.

- احتفظي بالأمل.

- لا أريد أن أكذب على نفسي.

- لكن، لماذا؟

– فقط كنتُ أريد أن أراه لآخر مرة وأودّعه. كان شيئاً مهماً بالنسبة لي. أشعر الآن أنني في سلام مع ذاتي. ولم أعُد بحاجة إلى الأمل.

– الأمل شيء ضروري على الدوام.

– كلا. ليس دائماً. بسبب الأمل تظلّ حياتنا مليئة بظلال الشك. وليس أمراً جيداً أن نستيقظ كلّ يوم على حياة مليئة بظلال الشك.

– إذاً أنت لا تؤمنين بإمكانية أن يتماثل شقيقك للعلاج؟

– لا. لو حدث ذلك سأكون سعيدة. لكنه لم يعُد لي أمل في ذلك.

صمتنا لبضع دقائق، فاخترق سواد الليل عيونهما أولاً ثم غزا ذهنيهما قبل أن ينتقل إلى سائر أرجاء الجسدين. حينئذٍ، قالت دوروتيا ماركش:

– لقد فكرتُ ملياً فيما قُمتم به. ستة أشخاص لم يتردّدوا في قطع نصف قارة ليساعدوني كي أزور شقيقي. أنا عاجزة عن تقديم تفسير منطقي لهذا الفعل. لا تفسير لذلك. إنه ضرب من الحلم. أعرف أنني لن أستطيع أبداً مجازاتكم عمّا قمتم به تجاهي. لكن سعادتي صادقة وأنا أشكركم من أعماق قلبي.

كنتُ أنتظر تلك الكلمات، يا ألمودوفار. حتى تلك اللحظة، لم أكُن أعيها تمام الوعي، لكنها حين نطقَتْ بها شعرتُ برغبة جامحة في معانقتها، وشكرها بدوري. لأنّ كلماتها كانت تعطي لرحلتنا كلّ معانيها، وتمنح أيضاً معنى جديداً لحياتنا المستقبلية.

حاولتُ أن أرى إن كان الأطفال وشافيير مستيقظين. كم كنتُ أريد أن يسمعوا هم أيضاً ما سمعتُ. من دون تلك الكلمات، قد لا

يفهمون أبداً بشكلٍ تام حقيقة ما ذهبنا للقيام به هناك. لكن، لم يتحرّك أيّ واحد منهم، وظل تنفّسُهم هادئاً ومستقراً.

وصلنا إلى جنيف حوالي الساعة الثانية والنصف فجراً. كنتُ أريد أن أنام في الفندق حيث حجزنا ثلاث غرف، لكن دوروتيا ماركش أصرّت من جديد على أن نأوي إلى بيتها. كان الوقت متأخراً وأنا لا أملك قوة لمعاكستها.

ترجّل أليبيو من السيارة وهو يعرج. نظرَ إليّ وحاول أن يبتسم لكنه لم يستطِعْ ذلك. كان شافيير يبدو كالشبح. قبل أن نغادر مارسيليا، منعتُه من تناول مزيد من الأقراص، ولذلك بدأت تظهر على محياه علامات انْجِذار غاضب. حمل فاسكو وفلور ماتيوس الذي ظلّ نائماً وأخذاه حتى المصعد ثم إلى السرير. أما أنا فدفعتُ الكرسي المتحرّك لدوروتيا ماركش، رغم ما كنت أشعر به من إرهاق. ألمودوفار، لقد كنّا مثل فرقة من الجنود بعد المعركة، ولا ندري إن كنا قد ربحنا الموقعة أم خسرناها.

استيقظتُ. كان هناك صمت عميق، رائع، ليس في العالم، بل في ذهني. كان الوقت باكراً، ولمّا تجاوزت الساعةُ السابعة. كان ماتيوس وفلور وفاسكو لا يزالون نائمين. غادرتُ السرير، افترشتُ الأرض ثم فتحت الحاسوب فوق حجري. فتحتُ صفحة على الإنترنت ثم ولجتُ موقع الألعاب الخاص بالدواجن الافتراضية. ثم فتحتُ حساباً لأستعمله.

بعد نصف ساعة، استيقظ فاسكو وجلس إلى جانبي. نظر إلى الشاشة ثم نظر إليّ وقال:

- ماذا تفعل؟

- سأقوم بتربية الدواجن.

ابتسم فأصدر صيحة خفيفة كأنها قهقهة، لكنه لم يعلّق بأي شيء.

بقينا هناك مدة ساعة تقريباً، نهيّئ أرضية افتراضية؛ فبنينا الأخمام أولاً، ثم مركبات تأوي آلاف الطيور، ثم وضعنا حاضنة بيض، وبنينا مربضاً نضعه في الشاحنات التي تنقل الكتاكيت وفراخ الدجاج. وكان ماتيوس يعلّمني كل شيء، خطوة خطوة، وحماسٌ متزايد في نبرة صوته. نظرتُ إليه مرتين أو ثلاث مرات: بالكاد كان يبدو أنه ابني. لم أستطع أن أدرك إن كان يفهم ما كنتُ أحاول أن أقول له.

انحنيتُ نحو دوروتيا ماركش فعانقتني. لم تقُل أيّ شيء. بقينا كذلك لبضع ثوان، أنا أنحني على الكرسي حيث كانت جالسة، وذراعاها تلفان عنقي. حين تركتني، فعلت الشيء نفسه مع كل واحد من الآخرين: مع أليبيو، مع شافيير، ومع الطفلَيْن.

لم نحكِ لها ما حدث مع ماتيوس، ومع شافيير. كانت تعتقد أننا أشخاص رائعون وأن قلوبنا تتّسعُ للعالم بكامله.

صعدنا جميعاً إلى الحافلة الصغيرة. كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة صباحاً تقريباً، والسماء ملبَّدة بسُحُب من كلّ درجات اللون الرمادي الممكن في الطبيعة.

كنا في الطريق السيار، ولم نكن قد قطعنا أكثر من خمسين أو ستين كيلومتراً حين انعطف أليبيو واتجه نحو محطة وقود.

- ماذا هناك؟ - سألتُه.

- لم أعُد أتحمل. رجْلي تؤلمني كأنّ خنجراً انغرز في عضلاتها.

- هل تريد أن تنتظر هنا حتى يهدأ الألم؟

- لن يهدأ هذا الألم.

- وما العمل، إذاً؟

- ستأخُذ المقود بدلاً عني.

ولم يقدِّم أيّ تفسير لما كان يقوم به. لكني تكهَّنتُ أنه كان بدوره يتطلّع إلى العودة بسرعة إلى بيته.

ألمودوفار، ما إن جلستُ وراء المقود حتى شعرتُ أنّ الشاحنة الصغيرة لم تكن سوى امتداد لجسدي. إرادتي وحركاتي كانت كافية لتأخذنا من جديد إلى بيوتنا.

قُدْتُ الشاحنة الصغيرة لمدة تسع ساعات ولم نتوقف سوى لفترتين قصيرتين كي نأكل أو نملأ خزان العربة بالوقود. ولم يتحدث أحد كثيراً، بمَن فيهم أليبيو. وفي ذهني، كان يمتد صمت ذلك الصباح، كما لو أنه لم يعُد بداخلي ولو فكرة واحدة أخرى. تصوّرْ، يا ألمودوفار، كم هو مريح أن تقود عربة بطريقة آلية، كلّ القرارت تُتخذُ بالحدس، وتُنفّذُ وفق اندفاعات ميكانيكية صادرة عن ذهني. لم يكن أمامنا غير الطريق. قطعنا فرنسا ودخلنا إلى إسبانيا حوالي الساعة السابعة مساء. كانت الشمس تنزل بسرعة نحو الأفق أمامي. لو كنا أكثر سرعة، قد نستطيع مرافقة الشمس في رحلتها حول الكوكب في يوم لا ينتهي.

توقفنا عند نُزْل قرب مدينة فيتوريا، شمال إسبانيا. تحدثنا قليلاً

ونحن نتناول العشاء في حانة قرب النُّزل تقدم مقبلات للزبناء. بعد ذلك، ذهبنا لننام. لم يفارقني الصمت في أثناء النوم، فكانت أحلامي خرساء كما لو أنني استنزفتُ كلّ ما أعرف من كلمات.

لم نكُن نفكر سوى في الوصول إلى بيوتنا. وقبل الساعة السابعة صباحاً، كنا داخل الشاحنة الصغيرة من جديد. طلب مني أليبيو أن أقود مرة أخرى. فقبلتُ طلبه رغم ما كنت أشعر به من إرهاق.

كنا قد قطعنا مئة كيلومتر حين صادفنا فرقة من شرطة المرور على جانب الطريقِ وأمرونا أن نتوقف على القارعة.

تنحيتُ جانباً.

جال شرطي حول الشاحنة الصغيرة ثم اقترب من نافذتي.

نظرتُ إلى أليبيو بجانبي. كان نائماً. التفتُّ نحو المقعد ونظرتُ خلفي. كان شافيير والأطفال نائمين بدورهم.

أنزلتُ زجاج النافذة.

قدّم لي الشرطي التحية وهو يضع أصابع يده اليمنى على جبينه. لحيتُهُ كثّة سوداء. نظر إلى داخل الشاحنة الصغيرة، وطلب مني الوثائق.

كانت محفظة أليبيو داخل جارور صغير تحت جهاز الراديو. فتحتُها وبحثتُ عن الوثائق. ثم مَدَدتها إلى الشرطي. بعد ذلك، قدّمتُ له رخصة سياقتي.

أخذ مني الشرطي كلّ ذلك دون أن ينظر إليّ.

نقل الوثائق والبطاقات من يد إلى أخرى متوقفاً بضع ثوانٍ عند كلّ واحدة منها. ففحص رخصة سياقتي، والبطاقة الرمادية، وأوراق التسجيل، ثم ألقى نظرة على بطاقة التأمين التي زوّرها شافيير. كنتُ

متأكداً أنه سيكتشف ذلك الرقم 1 تحت رقم 0. لو حدث ذلك، فسنترك الشاحنة الصغيرة هناك حتى نؤدّي الغرامة بمال لا يملكهُ أيّ واحد منّا. لم أشعر بالخوف. أظنّ أنني بدأت أتعود على مجريات الحياة والعالم من دون احتجاج، ولا ردّ. كان خياراً من الخيارات أن أستمر هكذا مكتوف اليدين. لكن، بعد ذلك، جمع الشرطي الوثائق كلها وأعادها إليّ ثم طلب مني أن أتابع السير.

لا أدري كيف أصفُ لك ما وقع، يا ألمودوفار. نظرتُ لاحقاً إلى بطاقة التأمين. كان التزوير الذي قام به شافيير ينطوي على عيوب ونواقص كثيرة فلم أفهم كيف لم ينتبه ذلك الشرطي للأمر.

قلتُ في نفسي: **إننا لا نُقهر. ما دمنا نؤمن بذلك، فنحن لا نُقهر ويمكن أن تحدث أشياء لا تصدق**. وفجأة شعرت بتيار كهربائي يسري في دمي ورأسي يعجُّ بالكلمات، كل الكلمات. اختفى صمت ذلك اليوم في سيل جارف من الأفكار. كان شيئاً عبثياً، يا ألمودوفار. فبسبب لحظة عرضيّة شعرتُ فجأة بقوة كبيرة تسري في جسدي.

نظرتُ إلى المرآة العاكسة. كانوا لا يزالون نائمين. لا يبدون على أحسن حال، لأنهم كانوا متعبين أيّما تعب، وشبه تائهين كما لو أنهم لا يملكون يقين الواقع من حولهم. بيد أنهم كانوا يحاولون، يا ألمودوفار، ولم يستسلموا. كنتُ أؤمن بذلك بكلّ خلية من خلايا جسدي. حتى شافيير كان يؤمن بذلك. فجأة، بدت لي إمكانية أن يعيش شافيير مغلِقاً على نفسه في البيت حتى الشيخوخة أمراً مدهشاً. لقد كنت مخطئاً، يا ألمودوفار، حتى فاسكو لا يمكنه أن يُعدي فلور بحكاياته المعقّدة وميولاته الانحرافية، ومعدّله جد المنخفض في الرضا عن الحياة. بل، على العكس من ذلك، كانت فلور هي مَن

تؤثّر على فاسكو بإنسانيتها. وسيصبح فاسكو إنساناً قوياً ومتكاملاً لأنه مرّ من كلّ ذلك. وسيقبّلان بعضهما مرة أخرى، ومرات عديدة، وسنكون نحن أحسن حالاً بسببهما. وأنا أؤمن بهذا تماماً كما أؤمن بما تراه عيناي.

لقد ملأ المستقبل ذهني، يا ألمودوفار. ربما ليس هو المستقبل الحقيقي، ولكنه مستقبل ممكن. وهذا كلّ ما نحتاج إليه. أنا في فيانا دو كاشتيلو، مع مارتا والطفلَيْن. جسدُ مارتا إلى جانب جسدي حتى النهاية، وصوتُها منارة تدلّني، ولا تتركني أزيغ عمّا يشكّل ماهيتنا. أشتغل بأيّ عمل أجده؛ موظفاً في مكتب الاستقبال في فندق من الفنادق، نادلاً في مقهى، مرشداً سياحياً، أي شيء. وفي هذا المستقبل، سيكون طفليّ سعيدَيْن. ويقيني في هذه الفرضية راسخ لا يتزحزح، لأنني أعرف أنني قادر على أن ألقّنهم مبادئ هذا التفاؤل. فلور تختزلُ بداخلها عالماً كاملاً، ويوم تكبر ستكون أحسن من أيّ واحدٍ منا جميعاً. أمّا ماتيوس، فلن يحتاج ليشغل باله بالسعادة وكبح الرغبات، لأنه أينما حلّ وارتحل ستكون قوة ابتسامته عظيمة. سوف أساعده على إدراك هذا الأمر، وسنُربي معاً دواجن افتراضية لوقت طويل، وقد أحلق شعري إن اقتضى الأمر ذلك. كما أريدك أن تعرف أنه ما دُمتَ هناك في زنزانتك، وكلما احتاج فاسكو لذلك، سأهبّ لمساعدته. ولن يكون لوحده أبداً.

إنه خطة.

خطتي الجديدة.

ها نحن هنا جميعاً، يا ألمودوفار، داخل هذه الشاحنة الصغيرة، في طريقنا إلى لشبونة. ومن هنا، من مكاني خلف المقود، والطريق تمتد أمامي، أحكي لكَ كلّ شيء. حتى تعلم أننا

ما زلنا هنا، وأنه يمكنك أن تنضمّ إلينا متى شئت. أنا لست خائفاً، يا ألمودوفار، لأنني ما زلتُ أؤمن بأنّ الحياة ما زالت كما عهدناها دائماً. ورغم كلّ شيء، ما زالت أيام هذا العالم تلمَع بالضياء وظلام الليل ما زال يبعث على الخوف. ونحن لا نزال هنا دائماً، يا ألمودوفار.

مكتبة
t.me/t_pdf

telegram @t_pdf

دافيد ماشادو

مؤشّر السعادة

«- ما هو مؤشّر السعادة؟، سألتُه.

- إنها ليست إحصائيات ذات أهمية كبيرة، ما دامت تفتقد الموضوعية، أجابني، لكنها أحسن ما لدينا. في الحقيقة، إنها تعتمد على استجواب يتضمن سؤالاً واحداً: **في سُلَّم من 0 إلى 10، كم هي نسبة رضاك عن حياتك في مجملها؟**

سحب نفساً من سيجارته، ثم أردف:

- أرجّح أنّ معظم الناس يجيبون عن الاستبْيان باستخفاف، لأنّ معظمهم لا يفهمون شيئاً عن السعادة».

❖❖❖

بدءاً من العنوان، تحتل السعادة مكاناً مركزياً في هذه الرواية الرائعة التي حازت على جائزة الاتحاد الأوروبي للآداب، كما تُرجمت إلى عدة لغات عالمية وحُوّلت مؤخراً إلى فيلم سينمائي.

أين نضع أنفسنا في سُلَّم من 0 إلى 10 في ظل تقلبات الحياة التي تكوّن سعادة المرء أو شقاءه؟ يدفعنا هذا العمل الجميل إلى طرح هذا السؤال إلى جانب أسئلة كثيرة أخرى حول ما يجعلنا فعلاً سعداء وكيف نُدرك هذه السعادة المنشودة، رغم قساوة عصرنا وما يميّزه من فتور في العلاقات الإنسانية.

إنّ قيم التضامن، والمساعدة، والحب، والتعاطف مع الآخرين تتكرَّر باستمرار في هذه الرواية الذكية، التي تفيض بالحكمة والرقّة والإلهام.

رواية مؤثّرة تبث فينا روح المثابرة والأمل.

ISBN 978-9953-68-963-0

قراءات تنمّي الذات

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com